عبد المتعال الجبري

الضالون

كما صورهم القرآن الكريم

الطبعة الثانية
مزيدة منقحة

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلي
الأزهر/٣ حيضان الموصلي بجوار جامع الدعاء

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * اياك نعبد واياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

(صدق الله العظيم)

مقـــدمة

نحمد الله ونصلى ونسلم على رسول الله وعلى آله وصحبه والسالكين طريقهم الى يوم الدين .

وبعـــد ..

فان التخلى قبل التحلى ، والواقعون فى الضلالة ، والزائغون عن الرشد لن يكونوا من المهتدين الا اذا أحاطوا خبراً بحقيقة ما هم فيـــه غارقـــون .

وللضلالات طرق شتى ، أما طريق الهدى فطريق واحد ، على جنبتيه للضلالات طرقا شتى .

روى أحمد والبغوى بأسناده عن عبد الله بن مسعود [1] قال : « خط لنا رسول الله ﷺ خطا ثم قال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطـــا عن يمينه وعن شماله وقال : هذه سبل ، على كل سبيل منهـــا شيطـــان يدعو اليه ، وقرأ : « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** »[2] .

وقد وردت فى القرآن كلمة « ضل » ومشتقاتها كالضالين وأضـــل ومضل وضلالة نحو ١٩٢ مرة [3] .

وورود الكلمة فى القرآن بهذه الكثافة يعلن عن أهمية توقى الضلالة ، وأهمية التعرف على معالمها لنحذرها .

ولئن كنت فى الطبعة الأولى قد اكتفيت بما ذكره الامام محمـــد عبـــده مقرونا بما كتبه الامام المودودى رحمهما الله ، فاننى فى هذه

---

(١) تفسير الخازن وبهامشه البغوى لهذه الآية ، والابداع فى مضار الابتداع ط ٧ ص ١٨ .

(٢) الأنعام : ١٥٣ .

(٣) المعجم المفهرس لألفـــاظ القرآن الكريم للمرحوم محمـــد فؤاد عبد الباقى عضو الهيئة التأسيسية للاخوان المسلمين .

الطبعة أضيف استقراء لكل ما اندرج فى القرآن تحت مادة « الضلال » استكمالا للبحث • لزوال العلة التى من أجلها كنت اكتفيت بما كتبه الامام « محمد عبده » الذى اتخذته مظلة لابراز كلمة حق خاف الناس أن يسمعوها منا ، أو ارتابوا ، فأردنا أن يسمعوها آمنين على ألسنة الموتى الذين فى دار الحق ، ممن لا يمكن أن يتهموا فى أنهم بمقالتهم يريدون قلب نظام الحكم ، أو حاجة من حاجات الدنيا •• و « لله الأمر من قبل ومن بعد »[٤] •

ولما كان هناك ملامح للضلالة يشترك فيها الضالون عبر العصور ، فاننا فى هذه الدراسات التى نقدمها فى حلقات متواصلة — ان شاء الله •• سوف نتناول — أنا وغيرى — قضية الانحراف ومظاهر الضلالة ، والفرق الزائغة بالتحليل ، لا لنحيى جدلا • ونؤجج نارا خمدت ، ولكن لنقدم للصادقين فى سلوكهم الى الله ، الراغبين بحرص « فى الجنة » اجابة عن سؤال خطير • الى أين ينبغى أن تكون الوجهة ، وماذا عليهم أن يحذروا من منزلقات الفكر ومنعطفات الطريق •

ونفتتح هذه الدراسات بهذه الحلقة « الضالون كما صورهم القرآن » من خلال تفسير الامام « محمد عبده » لآيات الكتاب العزيز ، مضافا اليه ما ذكره المودودى وبعض أئمة السلف فى الآيات نفسها •• ثم ما يفتح الله به علينا فى هذه الطبعة الثانية •

ونقدمها فى هذه الآونة التى يتمزق فيها الشباب النظيف ، بل والشيوخ الصادقون فى طلب السلامة ، لا يتمزقون الا ابتغاء رضوان الله ، ولكن كأتباع عيسى عليه السلام ، تشددوا على أنفسهم فى دين الله ، فأهلكوا أنفسهم • « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها »[٥] • ومنهم صادقون فى دعواهم حين أضافوا الى دين الله ما أضافوا ، ومنهم من يتبعون الفتنة « فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ، وكثير منهم فاسقون »[٦] •

---

(٤) الروم : ٤ • (٥) الحديد : ٢٧ •
(٦) الحديد : ٢٧ •

وهى دراسة آثرت أن تكون بقلم بعيد عن النزاع الفكرى القائم الآن فى المجتمع العربى وفى مصر بوجه خاص ، بقلم جد لهذا الجيل المحترق من أجل دينه ، بقلم عالم مجاهد سلفى مجدد له أفقه الواسع فى عالم الفكر والمفكرين ، ونظرته الثاقبة عند التأمل فى الكثرة الكاثرة من أحواله ، ذلك هو الامام « محمد عبده » ثم تعقيب للمودودى رحمهما الله • ولا أقول بعصمة الامام ، فله آراء ناقشتها احقاقا للحق • « ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها » ؟

* * *

● شبهات على الامام :

فى محلة نصر — احدى قرى مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة بجمهورية مصر العربية — ولد الامام (١٨٤٩ — ١٩٠٥) فى الساعة الحرجة لمولد حركة البعث الاسلامى ، فى ذات الوقت الذى كانت فيه حضانة الفكر المناهض للاسلام لقوى دول كبرى ذات امكانيات علمية وعسكرية ومالية تقابلها أمم منسوبة للاسلام هزيلة ضعيفة فى كل شىء • فواجه رحمه الله أعداء الدين والبلاد وأعوانهم مواجهة من لا يملك السلاح ولا السلطة فى تعقل وتدبر يمليه اجتهاده • فرأى فيه أعداء البلاد « العدو العاقل الذى هو خير من الصديق الجاهل » ، فحرصوا على ألا يدفعوا به الى مسالك الحمقى هو ومن تبعه من أنصاره • وأثبت اللورد كرومر « المعتمد البريطانى فى مصر » عظمة الشيخ فى تقريره الى البرلمان لانجليزى فى ابريل سنة ١٩٠٥ •

واعتبر بعض الشباب المراهق سياسيا وفكريا • بل وبعض أصدقائنا — ما قاله كرومر وثيقة يدان بها الشيخ ، اذ امتدحه خصوم الاسلام •• فواعجباه لهذا الاستنباط ؟ وكان الأولى أن يقال فى تمجيده ومدحه : « والفضل ما شهدت به الأعداء » من دبلوماسيته ، وهل هذا الاستشهاد منطق علمى • لقد امتدح الرسول ﷺ كثيرون من كفار قريش ومن

الساسة والمستشرقين الذى يكفرون بالاسلام ، فهل امتداحهم للرسول ﷺ يكون برهانا على نقص فى الرسول ﷺ ، أم أنه يدل على كمال فيه ﷺ ؟ !

وأبرزت احدى المجلات الاعتراضات على الشيخ فى هذه الكلمات :

● تقدير الاحتلال البريطانى لآراء الشيخ محمـد عبده المتحـررة المستنيرة فى فتوى فوائد التوفير .

● كل معاونة عطف وتشجيع أوروبى لمدرسة الامام محمد عبـده فى مصر ، ولسير « سيد أحمد » مؤسس كلية عليكرة بالهند .

● يجب اخضاع الأوقاف لرقابة وزارة الأوقاف .

● اصلاح القضاء الشرعى بقضاة مزودين بثقافة ذات طابـع تحررى ، فما حقيقة هذه الأمور ؟

* * *

● **النقطة الأولى :**

العبارة توهم احلال الامام أخذ فوائد ربوية عن الايداع فـى صناديق التوفير التى فى البنوك والبريد .

وهذا كلام مفترى على الشيخ .

أولا : لأن ما كتبه الشيخ عن الربا بشتى الصور والحيل ــ كمـا يجده القارىء فى هذا الكتاب ــ صريح فى تحريم التعامل الربوى فى شتى الصور والحيل .

وثانيا : لأن ما جاء فى مقال الناقد للشيخ محمد عبده لا يدل على هذا الاتهام ، فهو يقول : أشار التقرير فى هذا الوضع الى ما كـان يساور المسلمين من شكوك حول شرعية ايداع المال فى هذه الصنـاديق حتى وقت قريب . ثم أشار التقرير الى القانون الصادر فى ١٥ مارس ١٩٠٤ بقصد تذليل هذه العقبة التى تحول دون نجاح المشروع . فقـد

صيغ هذا القانون باستشارة المفتى وبعض السلطات الاسلامية الأخرى •

ثم أشار التقرير الى ما تركه هذا القانون وهذه الفتوى من أثر بأن أصبح فى ٣١ ديسمبر ١٩٠٤ عدد المودعين ٢١١٥١ شخصا منهم ١٢٩٤٥ مسلما •

ومن بين هؤلاء المسلمين ٩٤ ينتمون الى طائفة الشيوخ والعلماء • أما بقية المودعين فمنهم ٨٨٧٨ من الأجانب ، ومعظمهم من الايطاليين واليونانيين ، وبقيتهم من المصريين غير المسلمين •

وفى تقرير سنة ١٩٠٥ يقول : فكان لمعرفته العميقة بالشريعة الاسلامية ، ولآرائه المتحررة المستنيرة أثرها فى جعل مشورته ، والتعاون معه ، عظيم الجدوى •

ويمكننى أن أشير هنا على سبيل المثال الى الوجهة التى اختارها حين ثارت مشكلة صناديق التوفير • وتساءل الناس ان كان الاسلام يبيح للمسلمين استثمار أموالهم فيها • فقد استطاع الشيخ محمد عبده وقتذاك أن يقترح طريقا يمكنهم من ذلك • دون اخلال بالشريعة الاسلامية •

فهل فى هذين التقريرين ما يشير الى الاتهام ؟

« ان المشكلة المثارة • • هل الاسلام يبيح استثمار الأموال فى صناديق التوفير » ؟

وما مدى « شرعية ايداع المال فى هذه الصناديق » •

وكان رأى الشيخ واضحا : أن يجعل الايداع بلا فوائد للمسلمين كى يحفظوا أموالهم ويتدربوا على الادخار • بدلا من أن يكون الايداع فقط بالفوائد • كما رأى أن يوجد نظام الايداع للاستثمار كالقراض أو المضاربة فيشترك صندوق التوفير فى عمليات انتاجية ، وما كان من أرباح كثرت أو قلت كان للمودع نصيبه منها •

وهكذا واجه الخديوى ورئيس النظار مطالبا بالغاء الدكريتو الذى حدد نسبة مئوية للمدخر ، داعيا الى استثمار المضاربة (٧) .

فاستجيب لاقتراحه ، وبقى لذى الدين حرية الاختيار فى كيفية الايداع : بفوائد . أو عدم فوائد . أو ايداع للاستثمار . فلا ترغمه الدولة على الربا .

ثم ان الرأى لم يكن للشيخ وحده ، بل كان رأى مجموعة من العلماء شكلت لبيان حكم الشرع ، وما كان من المتصور أن تنحرف لجنة من علماء الاسلام عن القول بتحريم الربا الذى أكده الامام فى تفسيره بالأزهر لآيات الربا .

ولو أن اللجنة انحرفت فلماذا يوجه اليه وحده الاتهام ؟ ولم يثبت أن الأربعة والتسعين عالما حين أودعوا أموالهم صناديق التوفير أودعوها بالأرباح . فكيف نسىء الظن بعلماء المسلمين بلا دليل ؟ ولا يعقل أن الذين تزاحموا من المسلمين على صناديق التوفير فى بضعة أشهر قد ازدحموا من أجل فتوى ، وانما المعقول أن ذلك كان لقوة الدعاية من جانب ، ولفتح باب الايداع بلا فوائد من جانب آخر .

ثم انه لم يوجد عالم يعتد برأيه يحرم الايداع وحفظ الأموال فى صناديق التوفير بالمصارف أو البريد ، بل ولا قال بذلك أحد ممن يعتد برأيهم فى الاجتهاد ، حتى ظهرت فى هذه الأيام هذه الفاشية على ألسنة بعض المراهقين الأميين فى الشريعة الاسلامية ، ممن يرون أن الحكومات التى لا تقيم نظامها على أساس الاسلام حكومات كافرة وتجب مقاطعتها ، وبخاصة المدخرات والوظائف التى من شأنها مساندة الدولة ، وهذا من منطلق وجوب تعجيز مثل هذه الحكومات عن الاستمرار فى قمة السلطة والحكم .

---

(٧) د. شوقى اسماعيل شحاته : البنوك الاسلامية جـ ١ ص ١٤ ، دار الشروق ، سنة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

وقد سمعت من علمائنا المعاصرين من تجاوز ما قاله الامام محمد عبده فى موضوع الايداع بصناديق التوفير ، فأفتى بجواز الايداع بصناديق التوفير فى الدول التى لم تتخذ الاسلام نظاما للحكم ان لم يجد مجالا شرعيا لاستثمار أمواله فيه استثمارا مشروعا • وأجاز أخذ الأرباح منها على شريطة أن تنفق فى سبيل الله ، من منطلق وجوب تقليل طاقة الحكومات الجاهلية اذا تركت لها أرباح هذه الأموال المودعة ، بناء على قاعدة « ارتكاب أخف الضررين » : ضرر تقويتها بالمال المودع بدون أرباح • أو تقويتها بالمال المودع مع أخذ فوائد على الايداع ، ولكنه ينفق جميع ما يأخذه من الفوائد فى أوجه البر ، وبخاصة ما ليس اطعاما للفقراء ، وذلك كالمساجد والمدارس وانشاء مكتبات اسلامية ، ومعونة المجاهدين فى جهاد الكفار والمنافقين •• وذلك لأن هذه المصارف — طبقا للقوانين الأمريكية — تعطى هذه الفوائد المستحقة لمجلس الكنائس العالمى ان كانت مسيحية ، أو لاسرائيل والمؤسسات الصهيونية ان كانت مصارف يهودية وذلك لأن هذا يخفف عنها نسبة الضرائب • ويسقط ما يعطى لمؤسسات خيرية من الضرائب ••• وفى أخذ هذه الفوائد لحساب المساجد انتقاص لقوة الكفار أرجو أن يؤجر صاحبها لعموم نص الآية : « **ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح** » (٨) •• ولمن تورعوا عن هذا أجرهم كذلك ان شاء الله •

وعلى العاملين للاسلام والحكومات الاسلامية وأغنياء المسلمين أن يبادروا الى انشاء مصارف اسلامية بأمريكا وأوروبا ، تنقذ المسلمين من ضرورة ايداع أموالهم فى هذه البلاد التى لا يأمن فيها ذو مال على ماله فى بيته أو جيبه • وتقوم بأوجه الاستثمار الشرعى لهذه الأموال كالقراض أو القرض الحسن ، أو بناء اسكان للمسلمين يحميهم من الايجار بأجر فاحش أو الوقوع فى شرك شراء مساكن بأرباح ربوية مركبة تزيد على الثمن الأصلى ربما الى ثلاثة أمثال الثمن •

---

(٨) التوبة : ١٢٠ •

ويعمل بالرأى الأول فريق من المسلمين ، الذين يبررون الايداع بفوائد لا يتعاطونها فى نفقاتهم الخاصة ، وبخاصة اذا كان المـال المودع لهيئات دينية كالمساجد والمراكز الاسلامية .. ويعترض آخرون .

ومذهب أبى حنيفة على جواز أكل المال المتولد من ربا أمواله فى مصارف بلاد الكفار المحاربين ، وكذا ما يناله عن التأمين فى تلك المصارف خاصة لا فى بلاد المسلمين (٩) .

ولكننى أرى — من الورع — عدم أكله بأى حال ، وانما فقط يجوز أخذه لينفق فى مجالات البر ، وذلك بنية اضعاف قوة المشركين التى تكون أقوى بهذا المـال الذى نتركه لهم . بل وأرى وجوب عدم الايداع فيها أو الاستثمار عن طريقها اذا لم تكن هنالك ضرورة لذلك .

ورحم الله الامام « سحنون » المـالكى حين سئل عن اعطـاء المسلم ماله لمن يستثمره له من أهل الكتاب مضاربة شرعية فقال : أتحب أن يتقـوى بمالك على المسـلمين أولئك الكفـار ؟ ورحم الله الامام « حسن البنا » اذ كان فى بنود البيعة والعهد الذى يأخذه على أتباعه : « وألا يقع قرش من يدك فى يد غير اسلامية » .

***

● **النقطة الثانية :**

أما دعوى العطف الأوروبى والمعاونة لمدرسة محمد عبده ، فتوهم أن الامام محمد عبده ومدرسته كانت المســاعدة لهم لأنهم متفرنجون ويدعون الى الحياة على منهج أوروبى . وهى دعوى باطلة :

فان التقرير يثبت أن الامام محمد عبده ومدرسته كانا فى صراع مع دعاة الحياة على منهج أوروبى . ويوحى بأن الدعوة الى تشـجيع المدرسة هو ايجـاد توازن فى الصراع القائم الذى يحتـاج اليه كل سياسى ، فهو يقول :

---

(٩) الاسلام ، لسعيد حوى ، ج ٣ ص ٧ ، ط مكتبة وهبة ، ١٩٧٧ .

« وأتبـاع الشيخ محمـد عبده فى مصر — ان كانوا ممتـازين بذكائهم — فهم نفر قليل ، ويمكن أن نسميهم « جيروندبى » الحـركة الوطنية المصرية . وهم بما يستحدثونه من تجديد « بدع » يجعلون أنفسهم موضع الريبة ، بحيث لا يستطيعون أن يجتذبوا الى صفوفهم جماعة المحافظين من المسلمين الذين يتمسكون بالأساليب القديمة فى كل شأن من الشئون ، ويصرون على ذلك .

كما أنهم من ناحية أخرى تفصلهم هوة واسعة عن ذلك النفر من المتفرنجين الذين لم يبق لهم من اسلامهم الا الأسماء .

ومن ذلك نرى أنهم يقفون فى منتصف الطريقين المتناقضين ، وهم بذلك يتعرضون للنقد والتجريح من الطرفين كليهما ، كما هو الشأن فى السياسيين الذين يسلكون مسلكا وسطا ، ولكنى أحب أن أضيف الى ذلك أن المعارضة التى تصدر عن المحافظين أكثر أهمية الى مدى بعيد من تلك التى تصدر عن المتفرنجين فى المجتمع المصرى ، وهى معارضة لم تعد تسمع فى الأيام الأخيرة الا قليلا » .

هكذا كان الشيخ محمد عبده — كما يبدو فى التقرير — فى صراع مع مسلمين جامدين على أساليب ابتدعوها من أصحاب البدع والأهـواء والخرافات ، ومع منحلين مفتونين باسم الغرب ، تم له اخراس أصواتهم ، أو على الأقل امتصاصها ، بل وانتهى الى اقناع أعدائه الذين يزعمـون أن حمايتهم على مصر لاصلاح أحوالها ، بأن الاسلام ليس دينا منعزلا عن الحياة فى صومعة أو دير ، ولكنه دين للحياة ذو نظريات فى الاصلاح ، حتى قال كرومر فى نفس التقرير « فلا ريب أن مستقبل الاصـلاح الاسلامى — فى صورته الصحيحة المبشرة بالآمال يكمن فى ذلك الطريق الذى رسمه الشيخ محمد عبده . وأن أتباعه ليستحقون أن يعـانوا بكل ما هو مستطاع من عطف الأوروبى وتشجيعه » .

فأى الأمرين خير ، أن يترك لأعداء الاسلام القيام بكل الاصلاحات العلمية التعليمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى تنشأ النابتة

على تصور أن الغرب مصدر كل اصلاح وخير ، وليس للدين فى ذلك شيء ، بل انه وباء المدنية ، كما حدث فى مفهوم الغربيين عن الدين ، وفى مفهــوم الدول الأخــرى التى وقعت تحت ما سمى الحمــاية أو الانتداب ؟ أم أن الخير أن يلقى بالاسلام فى صراعات الاصــلاح ومذاهبه شيئاً ما ، ويكون له ذكر بين المذاهب الاصلاحية فوق أنه دين ، فهو دين ودولة ، سياسة وقانون ، روحانية وعمل ؟ .

هذا هو ما فعله « محمد عبده » ، فحمى مصر والمشرق العربى من طمس الصورة الاسلامية التى أراد المتفرنجون طمسها بعزل الدين فى المساجد بعيداً عن معركة الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدستورية .

* * *

● **النقطة الثالثة والرابعة :**

أما مسألة ادارة الأوقاف والقضاء فجاء فى التقرير على لســان « مالكولم ماكلريث » فى تقريره عن عام ١٩٠٤ ما يبين أن لجنــة من العلماء هى التى قامت بهذا وليس محمد عبده منفرداً .

« وقد اجتمع جماعة من العلماء فى جلسة ناقشوا فيها صياغة الأبواب الأساسية للشريعة الاسلامية فى شكل مواد قانونية ، واتخذوا كتاب قدرى باشا عن « الأحوال الشخصية » أساساً لتوصياتهم ، وقد شغلت جماعة العلماء هذه بالتفكير فى تنقيح نظم المحاكم أيضاً لاتخاذ اجراءات عاجلة لازالة أسباب الشكوى التى تعددت .

* * *

● **ترجيح القول ببطلان الوقف الأهلى :**

« وكان من بين المسائل المهمة التى نظرتها كذلك وجوب فصــل الأوقاف الخاصة « الأوقاف الأهلية » عن الأوقاف الخيرية .

● **اصلاح القضـــاء :**

ومن بينها أيضـــاً الاجراءات القضائية ، وادخال بعض النظم الحديثة عليها » •

فأى عيب يؤخذ على الامام اذا اجتمعت لجنة من العلماء لصوغ الأبواب الأساسية للشريعة فى شكل مواد قانونية • وهو الأمر الذى يصرخ بطلبه المسلمون اليوم ، ويلحون على مجلس الشعب فى سبيل تحقيقه ، وانتهت اليه الأمة المصرية ، فقد تقدم العلماء بفتاوى وبحوث اعتمدتها المجالس النيابية فى مصر فى فصل الأوقاف الأهلية عن الأوقاف الخيرية ــ واجتمعت كلمة الأمة على تقنين الشريعة الاسلامية فى مواد تدعم بالأدلة والمراجع الفقهية •

* * *

● **مدرسة القضاء الشرعى :**

ان مما يعاب على الامام أنه استفاد من تجربة فى تنظيم وتدريب القضاء والقضاة فى سراجيفو ، والآن أصبح التدريب والاستفادة من خبرة الخبراء أمراً متفقاً عليه • فهل سبق الامام للزمان فى ادراك ذلك جريمة ؟ أم يقال ان قولة الحكيم ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » قولة مع ايقاف التنفيذ ؟

ولقد أثبتت الأيام أن مدرسة القضاء الشرعى كانت أعظم حدث علمى وتعليمى وفنى فى مجال خدمة القضاء الشرعى • وأثبتت الأيام أن اصلاحات الامام محمد عبده فى جعل مرتبات علماء الأزهر شهرية وثابتة بقانون عام ١٨٩٥ ــ بعد أن كانت فوضى ــ ذات أثر كبير فى حفظ كرامة الشيوخ • وقد زاد تحسين مستوى العلماء مرة أخرى بقـــانون جديدة أصدره الامام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى رحمه الله •

ان الشيخ لو كان عميلا للمستعمر لـــا وجد أى اضطهاد ومحاربة لمشروعاته الاصلاحية من الخديوى توفيق أولا ، ثم من عباس حلمى

الثانى فى أواخر عهده .. لو كان عميلا لما اضطر الى أن يقدم استقالته فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٥ لتغير الخديوى عليه ولشدة ما لاقاه من معارضة بعض الأزهريين ، ولما أبعد عن التدريس فى دار العلوم ومدرسة الألسن ، ولما حددت اقامته فى بلده بعد نفى جمال الدين الأفغانى ، ولما حوكم مع زعماء الثورة العرابية وحكم عليه بالنفى ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، ولما ألف كتابه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية »(١٠) .

أو عيب على الامام أن يكون هو الرجل الكبير بين الشعب ، ومن الشعب ، فيتحدث باسم الاسلام والمسلمين مع أعداء الاسلام والمسلمين حديثاً يفرض عليهم احترامه ومجاملاته ، فاذا ذهب الى تركيا أو غير تركيا .. وجد من سفراء الأعداء من يكونون فى خدمته . اجلالا لمنزلته العلمية . ؟ !

واذا كانت فى مصر بعض السيدات يتبوأن منازل فى الفكر والسياسة فغشى مطارحهن ليسمع ويرى ويناقش ويوجه ، وهو يرى أن التوجيه لا يقبل اذا كانت هنالك جفوة بين الناصح والمنصوح .. أفيعاب بهذا ؟ أم أن العيب أن تترك جيوب فى المجتمع ربما يستشرى منها الفساد اذا لم يطفىء لهيبه رجل كالامام ؟

ومن عجب أن يقال : ان الامام محمد عبده وشيخه جمال الدين الأفغانى أتيا أمراً اداً حينما جمعا حواليهما كل الطوائف المثقفة من نصارى ويهود ومسلمين للاصلاح الاجتماعى : كل حسب تخصصه فى الطب أو الهندسة أو التعليم على غرار ما يفعله المحفل الماسونى . فاتهما بالماسونية التى هى حرب للأديان باسم التلاقى عليها .. وقد كانا رحمهما الله يستفيدان من تجارب كل مجرب . دون الارتماء فى أحضانه .

---

(١٠) العروة الوثقى : ص ٣٢ ، ٣٣ (ذو الحجة ١٣٨٩ هـ — فبراير ١٩٧٠ م) ط . دار الكتاب العربى . بيروت ..

حقاً لقد اشتركا فى المحفل الماسونى الأسكتلندى طمعاً فى توجيهه لخير الاسلام ، ولما اختلفا مع المحفل ورأياه لا يخدم المسلمين تركاه وأقاما خيراً منه ، فهل فى هذا الانتفاع بأسلوب المسيحى أو الماسونى فى مجالات الخدمة الاجتماعية ما يحولنى الى مسيحى أو ماسونى ؟

ان تجريح الاسلام ، والدعوة الى ترك تراثهم الفكرى برمته من أجل غلطه صغيرة أو كبيرة • بل من أجل وهم كاذب • بل تلمس الاتهامات من كتابات « المحامى المورط » أى خصم الاسلام الذى يمدح رجلا ليتوهم السامعون أنه صديق حميم للمحامى ، أو أنه خائن وعميل له •• هذا كله ينبغى للباحث أن يتفاداه • ويدرس لهذا العالم بامعان وروية كل ما كتبه وجادت به قريحته • فلكل جواد كبوة • وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون •• وحسب المرء لينجو يوم القيامة أن يكون مخلصاً فى اجتهاده • ومن اجتهد فأخطأ فله أجر ، ومن اجتهد فأصاب فله أجران ، فلنتفهم ما قاله الامام • ورحم الله ابن تيمية حين قال : يجب أن نعرف للأشعرى وأمثاله من خصومنا المخالفين فضلهم فى الدفاع عن الدين ، فى الوقت الذى نناقش ما أخطأوا فيه مفوضين أمرهم الى الله [11] • وليتخلص الطالب للحقيقة من داء الغرور ، ويكسر مغاليق التعصب والجمود ، ويستفتى من هم أكبر منه وأعلم وأهل للاختصاص ، فقد مجد الله اللجوء الى أهل الاختصاص عندما قال : « **فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »[12] •

ان الذى يدرس حجة الوداع يرى يسر الفتوى من رسول الله ﷺ للحجاج والبدو حين جاءوا يستفتونه فظل يقول : لا حرج • لا حرج • لا حرج ان شاء الله • وقد تناول ابن القيم ذلك فى كتابه زاد المعاد فى هدى خير العباد • وهو منهج يمضى مع القرآن الكريم فى طريق واحد « **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** »[13] •

---

(١١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ص ١٣ — ١٤ •
(١٢) الأنبياء : ٧ • (١٣) المائدة : ٦ •

وليس معنى اليسر فى الشريعة أن يمشى الانسان بلا ضوابط وحدود من تجاوزها ضل وهلك « **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين** »[١٤] ، « وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه الا أوتوا الجدل » .

* * *

● **مشكلة الحشر :**

وقد أثارت عقيدة المعاد مناقشة حامية بين كتاب العقيدة والفلسفة الاسلامية .

قال جلال الدين الدوانى فى شرح المواقف « المعاد الجسمانى حق باجماع أهل الملل الثلاث[١٥] ، وبشهادة نصوص القرآن فى المواضع المتعددة بحيث لا تقبل التأويل » الى أن قال : « ولذلك قال الامام : الانصاف أنه لا يمكن الجمع بين الايمان بما جاء به النبى ﷺ وبين انكار الحشر الجسمانى »

ويعقب الاستاذ « رشيد رضا » على هذا قائلا :

« ولا يمكن الجمع بين القول بقدم العالم — على ما يقول به الفلاسفة — وبين الحشر الجسمانى أيضاً ، لأن النفوس الناطقة « الآدمية » على هذا التقدير — أى اعتبار قدم النوع الانسانى — غير متناهية ، فيستدعى حشرها أبدانا غير متناهية فى أمكنة غير متناهية . وقد ثبت تناهى الأبعاد بالبرهان وباعترافهم » ، أى فيستلزم القول بقدم العالم انكار الحشر الجسمانى . اهـ « رشيد رضا » .

● **تعقيب :**

وهذا الذى استنبطه خصوم الفلاسفة لم يصرحوا به .. وانما هو مجرد استنباط من خصومهم وتحميل للقول ما لا يحتمله ، ولهذا قال الامام محمد عبده :

---

(١٤) النساء : ١٤ .

(١٥) ظهر بعد ذلك من النصارى واليهود من ينكرون المعاد الجسمانى (الجبرى) .

صرح الفلاسفة بثبوت الحشر الجسمانى وصرحوا بقدم الأنواع « كالانسان والقردة والبقر » • فهم بالحشر مؤمنون ، وما ألزمه عليهم الدوانى هو لازم مذهب • ولازم المذهب ليس بمذهب كما هو المشهور ، فنحن نؤمن بحشر جسمانى لا يفهم معناه كالسلف حين قالوا : نؤمن بوجه ويد واستواء لله • ولكن لا نعلم حقيقة معناها •

أقول : وكأن الامام يعنى بقول السلف قول مالك رضى الله عنـــه : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة •

وأنكر الدكتور « سليمان دنيا » على الامام قوله بايمان الفلاسفة ومخالفة المعروف من أنهم كفرة ، قائلا :

ان ابن سينا فى كتابه « رسالة أضحوية فى أمر المعاد »[١٦] قال : « لكنا نبين بيانا برهانيا أنه لا يمكن أن تعود النفس بعد الموت الى البدن البتة » • ثم قال ابن سينا فى الرسالة نفسها — ص ٥ — « فظاهر من هذا كله أن الشرائع واردة لخطاب الجمهور بما يفهمونه ، مقرباً ما لا يفهمونه الى أفهامهم بالتشبيه « التمثيل » •

ويخطىء ابن سينا فيما قاله اذا أراد بالنفس التى لا تعود الى البدن تلك التى نسميها « الروح » فان كان يعنى بالنفس شيئا غير الروح التى بها المحيا والممات والنشور ، فذلك منه تصور خاطىء لا يقتضى كفره ، وذلك الخلاف القائم بين العلماء هل جوهر النفس هو الروح •• أم أن الروح غير النفس ؟

والذى أستريح اليه هو أن النفس هى الروح ، كما قال سبحانهفى أواخر سورة الفجر **« يا أيتها النفس المطمئنة • ارجعى الى ربك راضية مرضيـــة »**[١٧] •

وان أراد بالنفس تلك التى هو موضوع الجزاء وصـــاحبته فى

---

(١٦) ويقال انه من الامامية الاثنى عشرية •

(١٧) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ •

الآخرة ، فقد أسرف فى الخطأ ، كما بينا ذلك فى ردنا على أصحاب هــذه الفرية .

وأحب أن أنبه هنا الى أن منهج الفلاسفة فى الاعتقاد غير المنهج القرآنى الذى هو منهج السلف الذى قرره الامام « حسن البنا » فى مقدمة رسالته « الله فى العقيدة الاسلامية » ورسالة « العقائد » .

وقال ابن سينا : الله علة الوجود . وهو يعلم نفسه ، ومن علمه لنفسه علمه كونها علة الموجودات . وهذا يستدعى علم الله الموجودات نفســـها .

ولابد أن ندرك أن ابن سينا قد أخطأ فى ترداده قول الفلاسفة ان الله علة الوجود ، لأنهم يريدون بذلك انبثاق المعلول عن علته وذلك قد يحدث — دون رغبة من مصدره ، شأن المولود ينبثق عن أمه بالرغم منها ، وشأن كل الحوادث والمخلوقات .. وفى هذا اكراه على وجود الحدث ، بالرغم من الحدث وبالرغم من علته ومصدره .. ومن المسلم به أن الاله له ارادة فيما يخلقه وفيما لا يخلقه ، وأنه لم يلد ، كمـــا أن العلة حين ينبثق عنها المعلول يحدث انشطار لها وخروج جزء منها ، بينما الاله واحد لا يتجزأ ولا ينفصل منه أى شىء .. وهــذا القول بالعلة هو كقول الفلاسفة بالأفلاك التى انبثق أولها عن الله ، أو انبثق عنه الفلك الثانى ثم عن الثانى انبثق الثالث الى آخر هذه الخرافة التى ليس لها أصل علمى ، وهو كذلك اتجاه « الغنوصيين » . وفيهم قال القـــائل :

ومن يقـــل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عن أهـــل الملة

فان أراد الفلاسفة بقولهم ان الله علة الوجود قول الصوفية فى حديث قدسى يروونه : « أردت أن أعرف فخلقت الخلق » أو أرادوا بقولهم هذا أن الله — قد انبثق الخلق عن ارادته وباختياره وعلمه وتصويره وقدرته . فالعلة هى الارادة الربانيـــة .. وليست العلة التى تلازم المعلول بالرغم منها لأنه « ليس كمثله شىء »(*) لم يكفروا بذلك .. ولكن

(*) الشورى : ١١ .

هذا الاحتمال لا تحتمله العبارة الا بتعسف ، ولهذا لم يورده العلماء .. وكان الواجب رفض القول بأن الله علة المخلوقات .

* * *

● **بماذا كفر الفلاسفة ؟**

قرر جمهور علماء المسلمين كفر الفلاسفة بأمور ثلاثة :

الأول : قولهم بقدم العالم ، لما يلزم هذا القول من وجود الشريك لله ، بينما الله عند علماء الكلام هو الذى يتصف بالقدم بمعنى الأول الذى ليس قبله شيء .

وأحب أن أنبه الى أن ابن سينا وأمثاله من الفلاسفة الاسلاميين بقولهم ان الله علة الوجود ينفون قول الفلاسفة غير الاسلاميين بقدم العالم أو الأنواع لأن المعلول حادث ينشأ عن العلة السابقة على وجوده ، بينما القائلون بقدم الأنواع لا يقولون بوجود الله ولا أنه علة الموجودات .. ولهذا وجب عدم الخلط فى هذا بين الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم .

الثانى : نفى الفلاسفة وجود البعث الجسمانى ، فهم ليسوا كالملاحدة الذين ينكرون البعث مطلقا ويقولون : ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع . وما يهلكنا الا الدهر ، وانما هم كالنصارى الذين يقولون ببعث الروح فقط .

الثالث : قول أرسطو ان الله يعلم ذاته ولا يعلم جزئيات العالم وهو قول لا يقول به فلاسفة المسلمين .

وقد قبل الامام « محمد عبده » طريقة ابن سينا فى استدلاله على أن الله يعلم نفسه ويعلم الكليات والجزئيات لأنها صادرة عنه سبحانه ، وهو يعلم نفسه ويعلم أنه علة كل موجود ، فلا وجود لشيء الا وهو مستند فى وجوده الى الله طبقا لعلمه وارادته .

كما قبل الامام « محمد عبده » من الفلاسفة الاسلاميين عموم الايمان بالبعث والحشر بطريقتهم البرهانية المخالفة لطريقة الجمهور فى البرهان .

وذلك لأن المطلوب — فى تصوره — هو الايمان الجازم أو اليقين التام بتمام علم الله سبحانه ، وليس المراد غير طمأنينة القلب بأى برهان كان ذلك . وانما كان يعترض الامام على طمأنينة القلب من العوام من حيث عدم وجـود برهان لهم على عقيدتهم يعصمهم من تضـليل « المنصرين » و « الملاحدة » ، رغبة منه فى تحصينهم بالدليل من كتاب الله المسطور أو كتاب الكون المنشور .

وقد أنكر الدكتور « سليمان دنيا » على الامام تسامحه فى اعتبار الفلاسفة الاسلاميين ناجين ، وفى اعتباره المتصوفة بوجه عام ناجين — بالرغم من حملاتهم عليه وحملاته على خرافاتهم وبدعهم (١٨) ، وفيهم من أنكر اللذة الحسية جملة بطريق الحقيقة والخيال ، وأقروا بوجود لذات وآلام أعظم من اللذات والآلام الحسية .

وينكر الدكتور سليمان دنيا على الامام محمـد عبده احترامه الفلاسفة مع أنهم قالوا : ان الخرق والالتئـام مسـتحيلان على عالم الأفلاك . بينمـا يقول القرآن : **« يوم تبـدل الأرض غير الأرض والسموات »(١٩)** .

وقد غاب عن الدكتور سليمان أن التبديل ليس حتما ناشئاً عن خرق والتئام ، فقد يكون ناشئاً عن تبديل بخلق للكونين . لا رتق ولا خروق فيهما .

وقد تناولنا الرد على منكرى البعث بالجسم فى كتابنا « شطحات مصطفى محمود فى تفسيراته العصرية للقرآن » عندما ردد الطبيب مصطفى محمود هـذه الفكرة فى كتابه « القرآن .. محاولة لتفسـير عصرى للقرآن » — ص ٢٠١ — بما لا داعى لذكره هنا .

---

(١٨) انظر حملته عليهم تحت عنوان « الأنداد » فى كتابنا « المصطلحات الأربعة بين المودودى ومحمد عبده » .

(١٩) ابراهيم : ٤٨ .

وهذا الاتجاه الفلسفى يعتبر زندقة قال بعض العلماء انها فسق لا يؤدى الى اقامة حد الردة قال البعض بل انها توجبه ، وقيل : بل يقتل الزنديق تعزيراً لا حداً .. قال فى المسوى ملخصا [٢٠] :

ان المخالف للدين الحق — ان لم يعترف به ولم يذعن له ظاهراً ولا باطنا فهو الكافر ، وان اعترف بلسانه ، وقلبه على الكفر فهو المنافق .

وان اعترف به ظاهراً وباطنا لكنه يفسر بعض ما ثبت من الدين ضرورة بخلاف ما فسره الصحابة والتابعون . وأجمعت عليه الأمة فهو الزنديق ، كما اذا اعترف بأن القرآن حق ، وما فيه من ذكر الجنة والنار حق ، لكن المراد بالجنة الابتهاج الذى يحصل بسبب الملكات المحمودة ، والمراد بالنار هى الذامة التى تحصل بسبب الملكات المذمومة ، وليس فى الخارج جنة ولا نار ، فهو الزنديق .

وقوله ﷺ : « أولئك الذين نهانى الله عنهم » هو فى المنافقين دون الزنادقة .

ثم قال : « وان الشرع كما نصب القتل جزاء للارتداد ليكون مزجرة للمرتدين ، وذباً — دفاعا — عن الملة التى ارتضاها ، فكذلك نصب القتال جزاء للزندقة ، ليكون مزجرة للزنادقة ، وذباً عن تأويل فاسد فى الدين لا يصح القول به .

قال : ثم التأويل تأويلان :

١ — تأويل لا يخالف قاطعا من الكتاب والسنة واتفاق الأمة .

٢ — وتأويل يصادم ما ثبت بقاطع .. فذلك الزندقة .

فكل من أنكر الشفاعة ، أو أنكر عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ، أو أنكر الصراط والحساب ، سواء قال : لا أثق بهؤلاء الرواة ، أو قال : أثق بهم لكن الحديث مؤول ، ثم ذكر تأويلا فاسداً لم يسمع من قبله فهو الزنديق .

---

(٢٠) فقه السنة ، مجلد ٢ ، ص ٣٩١ — ٣٩٢ ط دار الفكر .

وكذلك من قال عن الشـيخين « أبا بكر وعمر » مثلا : ليسـا من أهل الجنة ، مع تواتر الحديث فى بشارتهما ، أو قال : ان النبى ﷺ خاتم النبوة ولكن معنى هذا الكلام أنه لا يجوز أن يسمى بعده أحد بالنبى ، — أو أنه حلية النبيين كالخاتم كما يقول القاديانية —[٢١] أو قال : ان معنى النبوة من وجوب العصمة ومن افتراض الطاعة له موجود فى الأئمة بعده فذلك هو الزنديق ، وقد اتفق جمهور المتأخرين من الحنفية والشافعية على قتل من يجرى هذا المجرى » • ا هـ •

لكن ابن تيمية فى مجموع الفتاوى حين تكلم عن حكم المرتد رجح أنه لا يحكم عليهم بالردة والقتل ، وانما بالفسق • والله أعلم •

ويلاحظ أن الامام «محمد عبده» كان يكره منهج الفلاسفة والمتكلمين، الجدلى فى بيان العقيدة ، ويتجه الى تأكيد العقيدة وسلامتها بأسلوب القرآن ، وبما يدعو اليه من التأمل والاستدلال بخلق الله على كمال الله وفضله •

ويقال — فى اتهام الامام محمد عبده :

ان النزعة العلمانية وترجيح العقل على الوحى امتداد لمدرسة الامام محمد عبده الذى أراد أن يقيم الاسلام على أرجل عصرية تتأول القرآن وترفض الأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة ، وما هذه العمليـات التى نشأت فى داخل «الاخوان المسلمين» لتجرهم عن سلفيتهم كحركة «الشباب المسلم » التى تطورت الى « المسلم المعاصر » بعد أن نبذها الاخوان الا ثمرة لتعاليم محمد عبده •

والواقع أن الامام محمد عبده قد وقع تحت تأثير عصره ، وهو عصر العلم الذى كاد يؤله العقل والتجربة ، شأنه فى هذا شأن المفتونين بالغرب وحضارته المـادية اليوم — فكانت له أخطاء فى تفسيره بعض المسائل •• وهى أخطاء محدودة تناولنا معظمها بالرد ، ولكنه — رحمه الله — كان لا يخضع النصوص القرآنية للنظريات والبحوث العلمية ، بل هو على العكس من ذلك كما ترى فى حديثه عن « اقتداء الغرب بالقرآن فى

(٢١) اضافة من المؤلف (الجبرى) .

منهجه التاريخى » ، وكما فى تفسير « **وابتغاء تأويله** »[٢٢] فى موضوع : « اتباع المتشابه طلباً للفتنة » ينعى على من يفسرون القرآن بما يصرفه عن المراد الى « واقعهم » ومفاهيمهم ، أو ما يسمونه « الاسلام فى خدمة المجتمع » وفى تفسيره لآية « **اهـدنا الصراط المستقيم** »[٢٣] يجعل هداية العقل قاصرة تحتاج الى قوامة الدين[٢٤] .

وفى باب حديث سحر لبيد بيان أنه يأخذ بحـديث الآحاد فى الأحكام ، ولا يأخذ به فى العقيدة أو العمل اذا اصـطدم بأصـول الشرع ، ويجعل المصالح المرسلة مقيدة بالنصوص من الكتاب والسنة « فما وافقتها علم أنه صالح لنا ووجب الأخذ به ، وما كان منافراً علم أنه غير صالح ووجب تركه » كما قال الامام [٢٥] .

ان كل ما دعا اليه من العلم هو الحض على « العلوم التى تشرح حكم الله وآياته فى خلقه » ، لأن من لا يعرف أسرار هذه الكائنات ، وانما ينجر الى ظواهرها فيراها كما تراها العجماوات ، فهو لا يفهم معنى كونها آيات ، لأنه أهمـل آلة الفهم التى امتاز بهـا ، وهى العقـــل [٢٦] .

والله نسأله العصمة من الزيغ والضلال ، كما نسأله التوفيق للهدى والرشـــاد .

عبد المتعال محمد الجبرى

* * *

---

(٢٢) آل عمران : ٧ . (٢٣) الفاتحة : ٦ .
(٢٤) المصـطلحات الاربعة بين المودودى ومحمـد عبده ، ط أولى ص ٩١ — ٩٣ .
(٢٥) المرجع السابق ص ٧٦ . (٢٦) نفس المرجع ص ١٥٦ .

الفصل الأول

أنواع الضالين

- ما الصراط المستقيم ؟
- أنواع الضالين
- المفرطون فى دين أسعد سلفهم
- المعاصى وذل الشعوب
- الاستخفاف بعذاب الآخرة

الضــالون

« اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم غير المغضــوب عليهم ولا الضالين »
(آمين)

● **ما الصراط المستقيم ؟**

قال الأستاذ الامام : « الصراط المستقيم » هو الطريق الموصل الى الحق . ولكنه تعالى ما بينه بذلك كما بينه فى نحو سورة العصر ، وانما بينه باضافته الى من سلك هذا الصراط . كما قال فى ســورة الأنعام : « **فبهداهم اقتده** »(1) .

وقد قلنا ان الفاتحة مشتملة على اجمال مافصل فى القرآن حتى من الأخبار ، التى هى مثل الذكرى والاعتبار ، وينبوع الفطنة والاستبصار وأخبار القرآن كلها تنطوى فى اجمال هذه الآية(2) .

ثم قال :فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين . و « **المغضوب عليهم** » باليهود ، و « **الضالين** » بالنصارى .

ونحن نقول : ان الفاتحة أول سورة نزلت كما قال الامام على رضى الله عنه ، وهو أعلم بهذا من غيره ، لأنه تربى فى حجر النبى ﷺ . وأول من آمن به .

(ا) وان لم تكن أول سورة على الاطلاق : فلا خلاف فى أنها من أوائل السور . ولم يكن المسلمون فى أول نزول الوحى بحيث يطلب الاهتداء بهداهم . وما هداهم الا من الوحى .

---

(1) الأنعام : ٩٠ .

(2) لأنه يضم أخبار الأنبياء والمؤمنين وعكسهم .

(ب) ثم هم المـأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هـذه السبيل سبيل من أنعم الله عليهم من قبلهم • فأولئك — اذن — غيرهم •

وانما المراد بهذا ما جاء فى قوله تعالى : « **فبهداهم اقتده** » ، وهم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من الأمم السالفة •

فقد أحال على معلوم أجمله فى الفاتحة ، وفصله فى سائر القرآن بقدر الحاجة ، فثلاثة أرباع القرآن تقريباً قصص ، وتوجيه للأنظار الى الاعتبار بأحوال الأمم ، فى كفرهم وايمانهم ، وشقاوتهم وسعادتهم ، ولا شىء يهدى الانسان كالمثلات والوقائع • فاذا امتثلنا الأمر والارشاد ، ونظرنا فى أحوال الأمم السـالفة وأسباب علمهم وجهلهم ، وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلهم ، وغير ذلك مما يعرض للأمم ، كان لهذا النظر أثر فى نفوسنا يحملنا على حسن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكن فى الأرض ، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار •

أقول : ومن أسباب الشقاوة والهلاك الكفر وايذاء رسل الله ودعاة الحق ، قال سـبحانه : « **ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سـعيرا** »[٣] وقـال : « **ان الذين يؤذون الله ورسـوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا** »[٤] •

ومن هنا يتجلى للعاقل شـأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد والثمرات ، وتأخذه الدهشـة والحيرة اذا سمع أن كثيراً من رجال الدين من أمة هـذا كتابها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه [٥] • ويقولون انه لا حاجة اليه ولا فائدة اليه • وكيف لا يدهش ويحار ، والقرآن ينادى بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو اليه هـذا

---

(٣) الأحزاب : ٦٤ .   (٤) الأحزاب : ٥٧ .

(٥) يرغبون عنه : يكرهونه : عكس (يرغبون فيه) .

الدين ؟ « **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات** »(٦) .

* * *

● **كيف نتأسى بمن شرعنا أكمل من شرعهم ؟ :**

وههنا سؤال وهو : كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وارشادات لم تكن عندهم . وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم ، وأصلح لزماننا وما بعده ؟ .

والقرآن يبين لنا الجواب : وهو أنه يصرح بأن دين الله فى جميع الأمم واحد ، وانما تختلف الأحكام بالفروع التى تختلف باختلاف الزمان . وأما الأصول فلا خلاف فيها .

قال تعالى : « **قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** »(٧) .

وقال تعالى : « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده** »(٨) .

فالايمان بالله وبرسله وباليوم الآخر ، وترك الشر ، وعمل البر ، والتخلق بالأخلاق الفاضلة مستو فى الجميع .

وقد أمرنا بالنظر فيما كانوا عليه ، والاعتبار بما صاروا اليه ، لنقتدى بهم فى القيام على أصول الخير . وهو أمر يتضمن الدليل على أن فى ذلك الخير والسعادة ، على حسب طريقة القرآن فى قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول ، والجمع بين السبب والمسبب . وتفصيل الأحكام التى هذه كلياتها بعد الاجمال . نعرفه من شرعنا وهدى نبينا عليه الصلاة والسلام .

* * *

---

(٦) الرعد : ٦ .
(٧) آل عمران : ٦٤ .
(٨) النساء : ١٦٣ .

● **المغضوب عليهم ضالون :**

جاء فى المنار : وأما وصفه تعالى « الذين أنعم عليهم » بأنهم « **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » • فالمختار فيه أن المغضوب عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به •

● **ما المراد بالغضب ؟ :**

وغضب الله يفسرونه بلازمه وهو العقاب • ووافقهم الأستاذ الامام •

والذى ينطبق على مذهب السلف أن يقال : انه شأن من شئونه تعالى يترتب عليه عقوبته وانتقامه •

والمختار : أن الضالين :

١ — هم الذين لم يعرفوا الحق البتة •

٢ — أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح الذى يقرن به العمل • وقرن المعطوف « الضالين » بـ « لا » النافية على « غير المغضوب » •• والقاعدة النحوية أنه لا يعطف النفى على المثبت ، وذلك لما فى لفظ « غير » من معنى النفى ، فكأنه قال : غير المغضوب عليهم وغير الضالين ، وفى هـذا تأكيد للنفى •

وهو يدل على أن الطوائف ثلاث : المنعم عليهم • والمغضوب عليهم • والضالون • ولا شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً ، لأنهم بنبذهم الحق وراء ظهورهم قد استدبروا الغـاية واستقبلوا غير وجهتها • فلا يصلون منها الى المطلوب • ولا يهتدون فيها الى مرغوب •

● **تعقيب :**

وفى هؤلاء الكافرين الجاحدين يقول المولى سبحانه : « **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً • ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم**

ولا ليهديهم سـبيلا »(٩) ويقول سبحانه : **« ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم ، وساءت مصيراً »**(١٠) .

وهؤلاء كابليس الذى تمرد على أمر الله فى قحة وفجور ، لا يغفر لهم كما قال سبحانه فى الآية بعدها : **« أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً »**(١١) .

ولا يقبل الله من المشركين — بعد أن تبين لهم الحق — أن يعتذروا بالقهر الاجتماعى أو سلطان البيئة ، وفى الوقت نفسه لا يرغمهم الله على أن يدخلوا فى الاسـلام ، وانما يتركون لقهر الحقيقة الايمـانية البلجاء ذاتها :

« لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم »(١٢) — **« لكـم دينكم ولى دين »**(١٣) — **« انمـا أمـرت أن أعبد رب هـذه البلدة التى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلوا القرآن ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين »**(١٤) .

« يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل »(١٥) . **« ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ، وقال الله انى معكم »**(١٦) ثم يقـول **« فمن كفر بعد ذلك منـكم فقد ضل سـواء السـبيل »**(١٧) .

---

(٩) النسـاء : ١٣٦ ، ١٣٧ .
(١٠) النسـاء : ١١٥ .
(١١) النسـاء : ١١٦ .
(١٢) البقرة : ٢٥٦ .
(١٣) آخر سورة الكافرون .
(١٤) النمل : ٩١ ، ٩٢ .
(١٥) يونس : ١٠٨ .
(١٦) المـائدة : ١٢ .
(١٧) المـائدة : ١٢ .

وهؤلاء الضالون باختيارهم — بعد بيـان الحق لهم « **وهدينـاه النجدين** »[١٨] — هلكوا باتباع أهوائهم ليس غير « **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين** »[١٩] .

وقد وصفهم الله بالظلم ، لأنهم باتباعهم الهوى ظلموا الحقيقة فى ذاتها حيث لم تخضع لشـهواتهم ، وظلموا الله بشركهم « **ان الشرك لظلم عظيم** »[٢٠] ، وظلموا الناس ببغيهم على المستضعفين تلبية لنداء الأثرة والشـح فى داخلهم ، ومن هنا ندرك السر فى ارتباط الظـلم السياسى والاجتماعى للشعوب والأفراد بالشرك بالله ، فى أى صورة كان ذلك الشرك ، شرك مسيحية أو وثنية أو الحاداً بعبادة وتأليه الطبيعة . أو كان الشرك شرك الأهواء ، وعبادة الذات أو الشهوات وهؤلاء الظالمون بدافع من شركهم يتهمون الشرفاء المتقين بالضلالة — على حـد قول القائل — رمتنى بدائها ثم انسلت .. ويصـور القرآن ذلك فيقول : « **واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين** »[٢١] ويقـول : « **لقد أرسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قال الملأ من قومه انا لنراك فى ضلال مبين** »[٢٢] .

وقد أوجب الله علينا أن نصارح الضالين بضلالهم : « **ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هـذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين** »[٢٣] وتمضى الآيات فى سرد قصة ابراهيم حتى كسر أصنامهم ، فلما اعتقلوه وحققوا معه نبههم الى الحقيقة التى يلمسونها : « **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم . أف لكم ولمـا تعبدون من دون الله ، أفلا تعقلون** »[٢٤] .

---

(١٨) البلد : ١٠ .
(١٩) القصص : ٥٠ .
(٢٠) لقمان : ١٣ .
(٢١) الأنعام : ٧٤ .
(٢٢) الأعراف : ٥٩ ، ٦٠ .
(٢٣) الأنبياء : ٥١ — ٥٤ .
(٢٤) الأنبياء : ٦٦ ، ٦٧ .

ويقدم القرآن صوراً كثيرة للبرهان على الحقائق الايمانية وبطلان دعاوى الشرك ، ومن ذلك قوله سبحانه : « **خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم · هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين** »(٢٥) ·

ويسمى المشركين والملحدين « ظالمين » ويؤكد هذه الحقيقة مرة أخرى باستفهام انكارى فيقول : « **أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون** »(٢٦) ؟

ان الشهوات والاهواء تعمى عن الحقائق الواضحة « **ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا** »(٢٧) « **فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** »(٢٨) · فضلال هؤلاء الكافرين ليس لفقدان البراهين ، فهى صارخة بالحق فى الطبيعة بين أيديهم يعرضها القرآن كثيراً كما فى أول الرعد : « **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** »(٢٩) الى قوله « **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** »(٣٠) ·

وهى صارخة بتوحيد الله وربوبيته فى تجارتهم حين ييأسون من كل ماحولهم عند شدة المرض وعصف الرياح بسفنهم أو طائراتهم « **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله ، انه كان بكم رحيما · واذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر أعرضتم ، وكان الانسان كفوراً** »(٣١) — « **وهو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها**

---

(٢٥) لقمان : ١٠ ، ١١ ·
(٢٦) النحل : ١٧ ·
(٢٧) الاسراء : ٧٢ ·
(٢٨) الحج : ٤٦ ·
(٢٩) الرعد : ٢ ·
(٣٠) الرعد : ٤ ·
(٣١) الاسراء : ٦٦ ، ٦٧ ·

جاءها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهـم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكون من الشاكرين • فلما أنجاهم اذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق »[٣٢] « **وفى الأرض آيات للموقنين • وفى أنفسكم ، أفلا تبصرون »**[٣٣] • فالايمان فطرة فى النفوس « **ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل »**[٣٤] •

وهـذه الضلالات الذاهبة الى الشرك لا عن جهالة أو قصور فى الحجه التى أقامها الله على ألسنة المرسلين ، بل كانت مع هذه الحجة ، ولكنهم قد يتناسونها فى حميا الشهوات « **قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى »**[٣٥] وقد يكون ذلك عناداً واستكباراً « **ولمـا جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـا معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلمـا جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين • بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فبـاءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عـذاب مهين »**[٣٦] • « **فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »**[٣٧] •

وان عدل الله الكامل ليأبى أن يعذب قبل كمال الاعذار « **وما كنـا معذبين حتى نبعث رسولا »**[٣٨] — « **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسـل ، وكان الله عزيزاً حكيمـا »**[٣٩] « **وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم »**[٤٠] •

وهـذا اللون من الضلالة بعـد تبين الحقيقة ينذر الله أصـحابه بأشد العذاب « **ثم انكم أيها الضالون المكذبون • لآكلون من شجر من**

---

(٣٢) يونس : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .
(٣٤) البقرة : ١٠٨ .
(٣٥) طه : ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٣٦) البقرة : ٨٩ ، ٩٠ .
(٣٧) الانعام : ٣٣ .
(٣٨) الاسراء : ١٥ .
(٣٩) النسـاء : ١٦٥ .
(٤٠) الشورى : ١٤ .

زقوم • فمالئون منها البطون • فشاربون عليه من الحميم • فشاربون شرب الهيم • هذا نزلهم يوم الدين »(٤١) •

هؤلاء المغضوب عليهم من الضالين المكذبين يتهكمون بالصالحين فى الدنيا فى كل جيل •• وينذرهم الله بجزاء من جنس العمل مع الفارق الكبير بين الله وعذاب القوى الجبار وبين هؤلاء الضعفاء كما قال الله فى سورة المطففين : « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون • واذا مروا بهم يتغامزون • واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين • واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون • وما أرسلوا عليهم حافظين • فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون • على الأرائك ينظرون • هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون »(٤٢) •

وهكذا يحكى الله سخرية قوم نوح والرد عليهم « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون • فسوف تعلمون »(٤٣) بل ان السخرية منهم قد تكون من زبانية جهنم حيث يسلونهم حين يقذف بهم فى لنار • « وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً ، حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين • قيل ادخلوا ابواب جنهم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين »(٤٤) •

وقد تكون السخرية بحشرهم فى جهنم مع أوثانهم « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل • قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بوراً »(٤٥) •

---

(٤١) الواقعة : ٥١ — ٥٦ ، والزقوم : شجر له ثمر مر — والحميم : ماء متناه فى الحرارة — وشرب الهيم : شرب الابل المصابة بالهيم وهو يشبه داء الاستسقاء ، والنزل : ما يقدم للضيف قبل الطعام من الأغذية الخفيفة .
(٤٢) المطففين : ٢٩ — ٣٦ . (٤٣) هود : ٣٨ ، ٣٩ .
(٤٤) الزمر : ٧١ ، ٧٢ . (٤٥) الفرقان : ١١٧ ، ١١٨ .

وقد يواجهون فى الحشر بالملائكة أو الأنبياء الذين كانوا يعبدونهم **« ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون »**(٤٦) **« واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، ان كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ، انك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم الا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد »**(٤٧) .

* * *

● **دليل بطلان كل الأوثان :**

وهؤلاء الضالون بوثنيتهم يرد القرآن عليهم بالحجة البالغة فيقول : **« أفمن هـو قائم على كل نفس بمـا كسبت ، وجعـلوا لله شركاء قل سموهم »**(٤٨) فهو ينفى سبحانه كل معبود مع الله الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ، بعلمه وقدرته وجزائه فى الدنيا والآخرة ، فهو رقيب عليها ، حافظ لأعمالها ، مجاز لها بما كسبت . فاذا جعلتم أوثانكم شركاء فسموهم اذن بالأسماء التى يسمى بها « القائم على كل نفس بما كسبت » فانه سبحانه اسمه : الحى القيوم ، المحيى المميت ، السميع البصير ، الغنى عما سواه وكل شىء فقير اليه ، ووجود كل شىء به ، فهل تستحق آلهتكم اسماً من تلك الأسماء ؟ فان كانت آلهة حقا فسموها باسم من هـذه الأسماء ، وذلك بهتان بين ، فاذا انتفى عنها ذلك علم بطلانها كما علم بطلان مسماها ، وضلال عابديها .

وأما ان سموها بأسمائها الصادقة عليها كالحجارة وغيرها من مسمى الجمادات أو الحيوان أو الشياطين أو الكواكب أو الآدميين فهذه أسماؤها

---

(٤٦) سبأ : ٤٠ ، ٤١ .
(٤٧) المـائدة : ١١٦ ، ١١٧ .
(٤٨) الرعـد : ٣٣ .

الحق ، وهى تبطل دعوى الهيتها ، لأن الأسماء التى هى من لوازم الالهية كالمحيى والمميت والمعطى والسميع مستحيلة عليها ، فظهر أن تسميتها آلهة من أكبر الأدلة على بطلان الهيتها ، وامتناع كونها شركاء لله ، وضلال عبـــادها [٤٩] .

ومن الأدلة القاطعة على بطلان الوثنية قوله تعالى : **« قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا ، والله هو السميع العليم »**[٥٠] .

بل ان الله يذكرهم باهلاك قوم عبـــدوا الأصنـــام فما دفعت عنهم البلاء **« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك ، منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لـمـا جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب »**[٥١] فبين الله أنها لم تنفعهم بل ما زادتهم الا شرا .

* * *

● ازالة شـــبهة :

يثير بعض الضالين على القرآن شبهات منها أنهم يقولون : الشر كله من جهة عباد الأصـــنام فكيف يقال عنهـا **« فما زادوهم »** ؟ فيقـــال : بل عذبوا على كفرهم بالله ولو لم يعبدوهم ، فلما عبدوهم مع ذلك ازدادوا بذلك كثراً وعذاباً ، فما زادوهم الا خسارة وشرا .

وهكذا فى قوله تعالى : **« يدعوا من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير »**[٥٢] . أثبت أول الآية ما هو معلوم بالضرورة وهو أن الأصنام لا تنفع ولا تضر ولكن قوله بعد ذلك عنها **« لمن ضره أقرب من نفعه »**[٥٣]

---

(٤٩) مجموع فتاوى ابن تيمية : ج ١٥ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٥٠) المـــائدة : ٧٦ .

(٥١) هود : ١٠٠ ، ١٠١ .

(٥٢) الحج : ١٢ ، ١٣ .

(٥٣) الحج : ١٣ .

هل فيه اثبات نفع وضرر منها فيكون متناقضا ؟ من المعروف بداهة أنها لا تضر ولا تنفع ..

والجواب : أن اضافة الضرر والنفع اليها ليست من اضافة الفعل أو مصدره للفاعل ، فان المصدر قد يضاف الى محله أو زمانه أو مكانه ، أو لسبب حدوثه كما هنا فى الآية وان لم يكن فاعلا كقوله سبحانه « **بل مكر الليل والنهار** »[٥٤] ، فالليل لا يحدث مكرا وكما فى قولهم للمحبوب انه أهلك محبه أو عذبه ، بينما المحبوب قد لا يدرى بعاشقه ، وكما فى الصحيحين عن عمرو بن عوف عن النبى ﷺ أنه قال « والله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتتنافسوا فيها كما تنافسوا فيها وتهلككم كما أهلكتهم » فجعل الدنيا المبسوطة هى المهلكة لهم ، وذلك بسبب حبها والحرص عليها والمنافسة فيها ، وان كانت مفعولا بها لا اختيار لها ، فهكذا المدعو المعبود من دون الله الذى لم يأمر بعبادة الناس له ، فانه لا يضر ولا ينفع .. لكن لما كان سببا فى عبادة العابدين له ، وكان فى ذلك اضرار بهم ، جاز اضافة ذلك الضرر الذى سيلحق بهم الى ذلك المعبود .. وهذا الضر المضاف اليه ، للسببية غير الضر المنفى عنه للعجز عن الفاعلية ، وكما أضيف كلمة « مكر » الى « الليل » فقيل « **مكر الليل** » لنوع علاقة .. أضيف لفظ ضر « ضر » و « نفع » الى أوثانهم لنوع علاقة اقتضت الاضافة وهى السببية . كأنه قيل لمن شره أقرب من خيره ، وخسارته أقرب من ربحه[٥٥] .

ثم قال الامام محمد عبده : والضال حقيقة : هو التائه الواقع فى عمايته ، لا يهتدى معها الى المطلوب .

---

(٥٤) سبأ : ٣٣ .

(٥٥) مجموع فتاوى ابن تيمية : ١٥/٢٧٣ — ٢٧٥ .

والعماية فى الدين : هى الشبهات التى تلبس الحق بالباطل[٥٦] ، وتشبه الصواب بالخطأ •

* * *

● **أقســام الضالين :**

قال الامام [٥٧] : الضالون على أقسام :

القسم الأول : من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة ، أو بلغتهم على وجه لا يسوق الى النظر ، فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل • وحرموا رشد الدين ، فان لم يضلوا فى شئونهم الدنيوية : ضلوا — لا محالة — فيما تطلب به نجاة الأرواح وسعادتها فى الحياة الأخرى •

على أن من شــأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة معاً ، فمن حرم الدين حرم السعادتين ، وظهر أثر التخبط والاضطراب فى أعماله المعيشية ، وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة • سنة الله فى هذا العالم ولن تجد لسنته تبديلا •

أقول : ويشير الى هذا قوله تعالى : « **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحيــاة الدنيــا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** »[٥٨] •

ويقول سبحانه فى بيان ربط الشقاء بالكفر والمعصية « **ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم**

---

(٥٦) الفعل الماضى (لبس) بفتح الباء ، و المضارع (يلبس) بكسرها بمعنى يغشيه به ليخفى أمره (معجم الفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية — المجلد الثانى (مادة لبس) وقد وردت فى القرآن بهذا المعنى من الضلالة ثمانى مرات (المعجم المفهرس) •

(٥٧) تفسير المنار جـ ١ ص ٩٩ وما بعدها ط . رابعة .

(٥٨) الأعراف : ٣٢ .

تنسى • وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[٥٩] •

ثم قال الامام محمد عبده : أما أمر هؤلاء الذين لم تبلغهم الدعوة فى الآخرة ، فعلى أنهم لن يساووا المهتدين فى منازلهم ، وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد [٦٠] •

القسم الثانى : من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر ، فساق همته اليه ، واستفرغ جهده فيه • ولكن لم يوفق الى الايمان بما دعى اليه • وانقضى عمره وهو فى الطلب •

وهذا القسم : لا يكون الا أفراداً متفرقة فى الأمم • ولا يعم حاله شعباً من الشعوب • فلا يظهر له أثر فى أحوالها العامة • وما يكون لها من سعادة وشقاء فى حياتها الدنيا •

أما صاحب هذه الحالة : فقد ذهب بعض الأشاعرة الى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى • وينقل صاحب هذا الرأى مثله عن أبى الحسن الأشعرى •

وأما على رأى الجمهور : فلا ريب فى أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذى أنكر التنزيل ، واستعصى على الدليل ، وكفر بنعمة العقل ، ورضى بحظه من الجهل •

---

(٥٩) طه : ١٢٤ — ١٢٧ .

(٦٠) هؤلاء يسمون أهل الفترة .. وفيهم نقرأ قول الله **« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »** (الاسراء : ١٥) والمعتزلة يرون أنهم بمقدار ما رزقوا من العقل والادراك المميز للحسن والقبيح يحاسبون ، وحسب ارتقاء أرواحهم بهداية العقل وسلامة الفطرة يتمايزون فى الجزاء والمؤاخذة .. وهذه التفرقة الدقيقة من الامام أقرب الى العقل والقبول من قول القائلين : ان أهل الفترة ناجون .. دون أن يميزوا بين مقدار ما منحهم الله من مناط التكلف ، وهو العقل والحرية والبلوغ والاستطاعة .

القسم الثالث : من بلغتهم الرسالة وصـــدقوا بها • بدون نظر فى أدلتها ولا وقوف على أصولها ، فاتبعوا أهواءهم فى فهم ما جاءت به من أصول العقائد ، وهؤلاء هم المبتدعة فى كل دين ، ومنهم المبتدعون فى دين الاسلام ، وهم المنحرفون فى اعتقادهم عما تدل عليه جملة القرآن وعما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الأول ، ففرقوا الأمة الى مشارب ، يغص بمائها الوارد[٦١] ، ولا يرتوى منها الشارب •

قال : وانى أشير الى طرف من آثارهم فى الناس ، يأتى الرجل الى دوائر القضاء ، فيستحلف بالله العلى العظيم ، أو بالمصحف الكريم • وهو كلام الله القديم — أنه ما فعل كذا • فيحلف ، وعلامة الكذب بادية على وجهه ، فيأتيه المستحلف عن طريق آخر ، ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد لهم الولاية ، فيتغير لونه وتضطرب أركانه ، ثم يرجع فى أليته[٦٢] ويقول الحق ، ويقر بأنه فعل ما حلف أولا أنه لم يفعله ، تكريماً لاسم ذلك الشيخ ، وخوفا منه أن يسلب عنه نعمة اذا حلف باسمه كاذباً • فهذا ضلال فى أصول العقيدة ، يرجع الى الضلال فى الايمان بالله تعالى وما يجب له من الوحدانية فى الأفعال[٦٣] •

* * *

● **صور أخرى لضلالات الكفر :**

« ومن يشرك بالله فقـــد ضـــل ضـــلالا بعيدا »[٦٤] •

أقول : ومن أبرز من نص الله على ضلالهم أولئك الذين يعبدون

---

(٦١) الوارد : من يذهب الى المـــاء فى النهر أو النبع ليشرب •

(٦٢) يمينه وقسمه • ومنه : **« ولا يأتل أولوا الفضل منكم »** (النور : ٢٢) يعنى لا يحلف • **« الذين يؤلون من نسائهم »** (البقرة : ٢٢٦) : يحلفون •

(٦٣) تعقيب : قد لا يكون هذا خوفا من الشيخ أن يسلب عنه النعمة ، ولكن خوفا من الله أن يسلب عنه النعمة تكريما للشيخ الذى امتهن بالحلف به باطلا .. وهذا ليس خللا فى العقيدة يكفر به صاحبه ، انما هو اثم أن يحلف بغير الله ، واسراف فى رجاء أن يتســـاهل الله فيغفر له حين يحلف به • ولا يتساهل فى العدوان على كرامة الآخرين • وهو خطأ •

(٦٤) النســـاء : ١١٦ •

الأوثان ، فيذكر القرآن ضلالهم بصيغة تتضمن التنفير من ذلك • فيقول : **« ومن أضـــل ممن يدعـــوا من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة »**(٦٥) ••فالأصنام لا تسمع ولا تتحرك لتلبية رغبات من يناديها ويدعوها • فهل يليق بالعاقل أن يناديها ويدعوها فضلا عن أن يعبدها ؟ • وهكذا كل المشركين بالله الذين لا يملكون لأنفسهم من دون الله فى ملك الله شيئا •• **« ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا »**(٦٦) وستتضح هـــذه الحقيقة فى دار الحق لعباد الأوثان فينحون باللائمة على من حرضوهم على عبادتها من آبائهم أو دعاة الوثنية كالبوذيين وعبدة الصليب ومريم والمسيح ويسوون بينهم وبين الله الذى خلقهم فيقول فى تصوير حالهم فى جنهم **« وأزلفت الجنة للمتقين • وبرزت الجحيم للغاوين • وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون • من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون • فكبكبوا فيها هم والغاوون • وجنود ابليس أجمعون • قالوا وهم فيها يختصمون • تالله ان كنا لفى ضلال مبين • اذ نسويكم برب العالمين • وما أضلنا الا المجرمون • فما لنا من شافعين • ولا صديق حميم »**(٦٧) **« وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »**(٦٨) •

ومن الوثنية عبادة الجن والملائكة ودعوى المشركين أن الملائكة بنـــات الله •• ويناقش القرآن القضية بتساؤلات تكشف الحقيقة للمشركين **« فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون • أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون • ألا انهم من افكهم ليقولون • ولد الله وانهم لكاذبون • أصطفى البنات على البنين • ما لكم كيف تحكمون »**(٦٩) ثم يقـــول : **« وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنـــة انهم لمحضرون • سبحان الله عما يصفون • الا عباد الله المخلصين »**(٧٠) •

---

(٦٥) الأحقاف : ٥ .   (٦٦) النساء : ١١٦ •

(٦٧) الشعراء : ٩٠ — ١٠١ .   (٦٨) فصلت : ٢٩ .

(٦٩) الصافات : ١٤٩ — ١٥٤ . (٧٠) الصافات : ١٥٨ — ١٦٠ .

فيبطل دعوى القوم بعدد من البراهين المسلمة وهى :

١ — كيف ينسبون لله البنات اللاتى هن موضع الاحتقار فى أنظارهم لدرجة أنهم كما وصفهم ربهم « **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم** »[٧١] أى يسوءه ذلك • فأيهم الأكمل والأعظم أهم أم الله ؟ حتى يعطوه ما يتصورونه رذلا مذموما ؟

٢ — دعوى المشركين أن الملائكة اناث دعوى كاذب لم يشهد خلق الملائكة ، فهى شهادة الجاهل بما لم يعلمه ولم يره •

٣ — ومن غير المعقول أيضا دعواهم أن المسيح ابن الله وأمه العذراء ، ولم يشهد أحد زواج الله للعذراء ، ولهذا فانه ليس والدأ لأحد من خلقه فهو لم يلد ولم يولد • « **ولم تكن له صاحبة** »[٧٢] •

فهذه الدعوى ممن لم يشهد الولادة المزعومة ولم يشهد الزواج دعوى لا سند لها •

٤ — ما دام الله خالق البنات والبنين ، فهم أمامه سواء ، فان المنطق المعقول ألا يكون هناك فارق بين الاناث والبنين ، ولا فارق بين المخلوقين حتى يجعل بعضهم أبناء وبعضهم منبوذين •

٥ — دعوى المصاهرة التى أنجبت الجن مكذوبة • وقال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله ، فقال أبو بكر : فمن أمهاتن ؟ قالوا : بنات سروات الجن وشرفاؤهم فنزلت الآية : « **ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون** »[٧٣] أى الى العذاب يوم القيامة « **الا عباد الله المخلصين** »[٧٤] المتقين المتبعين للحق المنزل على كل نبى مرسل •

ومن صور الضلالة انكار البعث ، وقد ناقشهم القرآن فى هذا اذ يقول : « **وقالوا أاذا ضللنا فى الأرض —**

---

(٧١) النحل : ٥٨ .
(٧٢) الأنعام : ١٠١ •
(٧٣) الصافات : ١٥٨ .
(٧٤) الصافات : ٤٠ .

أى أصبحنا ترابا تبعثرت أجزاؤه حتى تاهت ذراته — **أئنا لفى خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون))**(٧٥)

* * *

● **شـــبهة البشرية :**

ومن صور الضلالة شبهة البشرية **((كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحدا نتبعه انا اذن لفى ضلال وسعر))**(٧٦) — وكذلك قال مشركو قريش فى الرسول ﷺ **((لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم))**(٧٧) — ومن رحمة الله بقوم صالح أن أرسل لهم الناقة برهانا من الله على صدق النبى صالح **((انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر))**(٧٨) .

* * *

● **ضلال الفرق فى القضاء والقدر :**

ولو أردنا أن نسرد ما وقع فيه المسلمون من الضلال فى العقائد الأصلية بسبب البدع التى عرضت على دين الاسلام لطال المقـــال ، واحتيج الى وضع مجلدات فى وجوه الضلال ، ومن أشنعها أثراً وأشدها ضرراً ، خوض رؤســـاء الفرق منهم فى مســـائل القضـــاء والقدر ، والاختيار والجبر ، وتحقيق الوعد والوعيد ، وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد .

اذا وازنا ما فى أدمغتنا بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها أولا فيه يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما اذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن وحشرناها فيـــه أولا ، فلا يمكننا أن نعرف الهـــداية من الضـــلال ، لاختلاط الموزون بالميزان . فلا يدرى ما هـــو الموزون من الموزون به .

---

(٧٥) السجدة : ١٠ ، ١١ .
(٧٦) القمر : ٢٣ ، ٢٤ .
(٧٧) الزخرف : ٣١ .
(٧٨) القمر : ٢٧ .

أريد أن يكون القرآن أصـــلا تحمل عليـــه المذاهب والآراء فى الدين • لا أن تكون المذاهب أصـــلا والقرآن هو الذى يحمل عليها ، ويرجع بالتأويل أو التحريف اليها ، كما جرى عليه المخـــذولون ، وتاه فيه الضالون •

● **تعقيب :**

وقد عالج الامام حسن البنا هذه القضية فى رسالة التعاليم فقال :

« والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم فى تعريف أحكام الاسلام ، ويفهم القرآن طبقـــا لقواعد اللغة العربيـــة من غير تكلف، ولا تعسف ، ويرجع فى فهم السنة المطهرة الى رجال الحديث الثقات » •

ثم يتحدث عن قيمة ما يسمى الالهام والكشف ورؤى الصالحين فيقول : « ولكن الالهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية » •

ويتحدث عن القيمة الحقيقية لاجتهاد المجتهدين الصالحين فيقول : « وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك الا المعصوم « محمد ﷺ » وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه • والا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالاتباع • ولكنا لا نعرض للأشخاص — فيمـــا اختلف فيه — بطعن أو تجريح ، ونكلهم الى نياتهم ، وقد أفضوا الى ما قدموا » •

* * *

القسم الرابع : ضلال فى الأعمـــال ، وتحريف للأحكام عما وضعت له ، كالخطأ فى فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات ، والخطأ فى فهم الأحكام التى جاءت فى المعاملات •

● **تعقيب :**

ومن الخطأ فى فهم معنى الصلاة ما رأيته فى معتقل أبو زعبل عام ١٩٨١ من أحد الشباب يقول: الصلاة مجرد الدعاء بلا ركوع ولا سجود •

* * *

● **مثال للخطأ فى فهم الأحكام :**

قال الامام محمد عبده :

ولنضرب لذلك مثلا : الاحتيال فى الزكاة ، بتحويل المال الى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استرداده بعد مضى قليل من الحول الثانى حتى لا تجب الزكاة [٧٩] ، ويظن المحتال أنه بحيلته • قد خلص من أداء الفريضة • ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية • ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركنا من أركان دينه • وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً ، وشرع — سبحانه — بجانب ذلك الفرض من الأحكام ما يذهب به ويمحو أثره • وهو محال عليه جل شأنه •

وفى هؤلاء يقول الله تعالى : « **الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** »[٨٠] •

* * *

● **أثر الضلال فى الأمم :**

ثلاثة أقسام من هذا الضلال • أولها [٨١] وثالثها [٨٢] ورابعها [٨٣] يظهر أثرها فى الأمم ، فتختل قوى الادراك فيها ، وتفسد الأخلاق ، وتضطرب الأعمال ، ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لابد من نزولها بهم ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تحويلا •

ويعد حلول الضعف ونزول البلاء بأمة من الأمم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها ، لما أحدثته فى عقائدها وأعمالها مما يخالف سنته ولا يتبع فيه سننه •

لهذا علمنا الله كيف ندعوه بأن يهدينا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده ، وتقويم العقول والأعمال بفهم ما هدانا

---

(٧٩) لقد اصبحنا فى زمان لا يعبأ الرجل بالزكاة أصلا ولا يرد فى خياله مدلول الزكاة ولا الحساب . (الجبرى) • (٨٠) الكهف : ١٠٤ •

(٨١) من لم تبلغهم الدعوة ، أو بلغتهم على وجه لا يسوق الى النظر •

(٨٢) من بلغتهم الرسالة فآمنوا بها دون نظر فى أدلتها وتعمق فى أسرار أصولها .. ففسروها بأهوائهم •

(٨٣) ضلال الأعمال وتحريف الأحكام عن مقاصدها ، مثل ما يسمى بـ « الحيل الشرعية » •

اليه ، وأن يجنبنا طريق أولئك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه • سواء أكان ذلك عمداً وعناداً أو غواية وجهلا •

اذا ضلت الأمة سبيل الحق ولعب الباطل بأهوائها ، ففسدت أخلاقها واعتلت أعمالها ، وقعت فى الشقاء لا محالة • وسلط الله عليها من يستذلها ويستأثر بشئونها ، ولا يؤخر لها العذاب الى يوم الحساب ، وان كانت ستلاقى نصيبها منه أيضاً •

فاذا تمادى بها الغى وصل بها الى الهلاك ، ومحا أثرها من الوجود ، لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر فى أحوال من سبقنا ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الأمم لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الأقوام وما به تشقى •

أما الأفراد : فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال فى هذه الحياة الدنيا ، فقد يستدرج الضال من حيث لا يعلم ، ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه ، وانما يلقى جزاءه « **يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله** »[٨٤] •

* * *

● **التدين الفاسد فى أكثر الجماعات :**

وأحب أن أضيف الى ما قاله الامام محمد عبده « خاطرة » لابن الجوزى [٨٥] اذ يقول فى هذا الباب :

« قد يدعى أهل كل مذهب الاجتهاد فى طلب الصواب ، وقد ترى أكثرهم لا يقصد الا الحق ، فترى الراهب يتعبد ويتجوع ، واليهودى يذل ويؤدى الجزية ، وصاحب كل مذهب يبالغ فيه ويحتمل الضيم والأذى طلبا للهدى وتحصيل الأجر — فى اعتقاده — ومع هذا فيقطع العقل بضلال الأكثرين •

وهذا قد يشكل : وانما كشفه انه ينبغى أن يطلب الهدى بأسبابه ، ويستعمل الاجتهاد بأدواته •• فأما من فاتته الأسباب أو فقد بعض الآلات فلا يقال له مجتهد •

---

(٨٤) الانفطار : ١٩ •

(٨٥) صيد الخاطر — لابن الجوزى — ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ •

فاليهود والنصارى :

١ — بين عالم قد عرف صدق نبينا محمد ﷺ ، ولكنه يجحد ، ابقاء لرئاسته ، فهذا معاند .

٢ — وبين مقلد لا ينظر بعقله فهذا مهمل ، فهو يتعبد مع اهمال الأصل ، وذاك لا ينفع .

٣ — وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر ، فيقول فى التوراة ان ديننا لا ينسخ ، ونسخ الشرائع لاختلاف الأزمنة حق ، ولكنه يقول : النسخ بداء[٨٦] ، ولا ينظر فى الفرق بينهما ، فينبغى أن ينظر حق النظر .

ومن هذا الجنس — الناظر نظراً قاصراً — تعبد الخوارج مع اقتناعهم بعلمهم القاصر ، وهو قولهم : لا حكم الا لله ، ولم يفهموا أن التحكيم من حكم الله ، فجعلوا قتال على رضى الله عنه وقتله مبنياً على ظنهم الفاسد .

ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال : ان دخلت النار بعد هذا .. اننى لشقى ، فظن — بجهله — أنهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم .

* * *

● **أعجل الناس فى الفتوى :**

فالويل لعامى قليل العلم لا يتهم نفسه فى واقعة ، ولا يذاكر من هو أعلم منه ، بل يقطع بظنه ويقدم على الأمر الذى يحتاج البحث والنظر قائلا : « **استفت قلبك** » .

وهذا أصل ينبغى تأمله ، فقد هلك فى اهماله خلق لا يحصون ، وقد رأينا خلقا من العوام اذا وقع لهم واقعة لم يقبلوا فتوى « **وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية** »[٨٧] .

* * *

(٨٦) البداء : يعنى ان تبدو وجهة نظر جديدة فيعدل عن خطئه الأول بقول ناسخ للباطل الأول .

(٨٧) الغاشية : ٢ — ٥ .

● **جماعات بلا منهج متكامل واضح :**

يقول الامام البنـــا : تعددت الجمعيات الاســلامية ، وتعددت الأغراض وميادين الجهاد وكلها والحمد لله نافع ومفيد ، ولكن الأمــة الناهضة التى تطلب بناء المستقبل فى أشد الحاجة الى نوع آخر من العلاج والمجاهدة ، قد يكون أجدى الأنواع وأقرب الطرق الموصلة الى الغـــاية •

● **التربيـــــة :**

ذلك النوع هو التربية وصياغة نفوس الأمة على نسق يضمن لها مناعة خلقية قوية ، ومبادىء فاضلة ثابتة ، وعقائد صادقة راسخة ، فاذا وفقت هيئة من الهيئـــات العاملة الى هـــذه الناحية التى تؤاخى الجهاد أفادت الأمة أكبر فائده فى كل مظاهر نهضتها ، ودلتها على أقصر طريق يتحقق بها آمالها وأمانيها •

والغاية الأولى : هى انشاء النفوس وبناء صرح الأخلاق ، وتثبيت العقائد الصادقة التى تدفع الى جلائل الأعمال •

● **معــرفة الحــق :**

ان الأمة التى تعرف حقوقها ولا تفرط فيها لا يجرؤ الناس على الاعتداء عليها ، ولئن حدث ذلك تحت ضغط الظروف والحوادث ، أو فى سنات الغفلة والجهالة ، فان معرفة الأمة بحقها المسلوب يجعلها فى دأب على المطالبة به فلا تيأس ولا تضيع • وان الأمة التى تشربت نفسها بالعزة والكرامة لا يقربها انسان ، لأنه يعلم أن خسارته بمصادمة هذا الشـــعور الأبى •• أعظم من ربحه ، فهو دائما حذر ، وانما تهون الأمة على الناس اذا هانت على نفسها قبلهم ، ومن لا يكرم نفسه لا يكرم •

● **الحب والوحــدة :**

ان الأمة التى يقوى فيها خلق الايثار والتسامح حتى يؤديها ذلك الى الحب والوحدة • لا يشق صفوفها دخيل ، ولا ينال منها معتد شيئا ، لأن الوحدة قوة ليس فوقها قوة •

● **عقيدة الجزاء والربوبية :**

وان الأمة التى تعلم أن لها ربا واحــدا هو المتصرف فى آجالها وأرزاقها ونفعها وضرها ، ولا متصرف فى ذلك غيره • وأن لها جزاء على مناصرة الحق ومقارعة الباطل ، لا تخشى أحداً الا الله ، ولا تحزن على ما تضحى به فى سبيل الوصول الى الحق والانصاف ، ولا يصعب عليها أن تسخو بكل ما تملك فى سبيل الغايات الشريفة والأغراض النبيلة •

هــذه هى مهمة الجماعة ، وغايتها الأولى تكوين نفوســهم على مبادىء الاسلام الصحيح •

● **ما شروط المنهج السليم ؟**

قال الامام البنا : المنهج الذى ينهض بأمة من الأمم يجب أن تتوفر فيه شروط عدة حتى يؤدى مهمته ليكون أقرب الطرق للوصول •

— لابد أن يكون واضحا سهلا محدود الغايات والمرامى •

— ولابد أن يكون عمليا لا يعتمد على الخيال •

— ولابد أن يكون شاملا يعبر عن أمانى الأمة وعواطفها ، ويصور آمالها ومطالبها •

— ولابد أن يكون محوطا بصفة من القداسة تدفع الى المحافظــة عليه والتضحية فى سبيله •

والقرآن هــو المنهج الوحيــد الذى يحقق آمال هــذه الأمــة • فهو منهج ســـهل محــدود ، واضــح المرامى والغــايات — عملى — لا يعتمد على الخيال — يعالج النفوس والمشكلات بالعمل لا بالقول • وبالتكاليف لا بالأحلام ، وهو شــامل لكل أمانى الأمة ، فهو يشعرها بكرامتها وعزتها « **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** »(٨٨) ولا يقف منها عند هــذا الحد بل يتســامى الى أبعــد من ذلك الى أســتاذية البشرية « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شــهداء على الناس** »(٨٩) •

ثم يضع لها القواعد فى العبادات والمعاملات والقوانين والأخلاق

---

(٨٨) المنافقون : ٨ . (٨٩) البقرة : ١٤٣ .

والصـــحة والاجتماع والعلم والتعلم والمطعم والمشرب • بل فى كل شـــئون الحياة •

ثم هو يوحد بين عناصرها ، ويؤلف بين طوائفها ، فيضع لهم الميزان المضبوط الدقيق « **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين • انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهـــروا على اخـــراجكم أن تولوهم ، ومن يتـــولهم فأولئك هـــم الظالمون** »(٩٠) •

وهو بعد ذلك كله محفوظ بجلال القداسة • محفوف بالعناية الربانية ، مفدى عند الجميع بالأموال والأنفس والثمرات •

ذلك منهج أهداه الله الينا والناس يحارون فى وضع المناهج وتعرف الخطط ويقاسون من مرارة التجارب ونتائجها ما يقاسون من عناء وبلاء وفشل وتضحيات •

* * *

(٩٠) الممتحنة : ٨ ، ٩ •

المفرطون فى دين أسعد سلفهم

« مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنـــورهم وتركهم فى ظلمـــات لا يبصرون . صـــم بـــكم عمى فهم لا يرجعون »[91] .

هذا مثل من مثلين ضربهما الله فى هذه الآيات للذين قرع القرآن أبواب قلوبهم ، ضرب الله تعالى لهـــذا الصنف فى مجموعه مثلين ، وينبئان بانقســـامه الى فريقين ، خلافاً لمـــا فى أكثر التفاسير من أن المثلين لفريق واحد ، وأن معناهما وموضوعهما واحد .

الأول : من آتاهم ديناً وهداية عمل بها سلفهم فجنوا ثمرها ، وصلح حالهم بها أيام كانوا مستقيمين على الطريقة ، آخذين بارشاد الوحى ، واقفين عند حدود الشريعة ، ولكنهم انحرفوا عن سنن سلفهم فى الأخذ بها ظاهراً أو باطناً ، ولم ينظروا فى حقائق ما جاءهم ، بل ظنوا أن ما كان عند سلفهم من نعمة وسعادة انما كان أمراً خصوا به ، أو خيراً سيق اليهم ، لظاهر قول أو عمل امتازوا به عن غيرهم ممن لم يأخذ بدينهم ، فأخذوا بتقاليد وعادات لم تدع فى نفوسهم مجالا لغيرها ، ولذلك لم يتفكروا قط فى كونهم أحرى بالتمتع بتلك السعادة والسيادة من سلفهم ، لأن حفظ الموجود أيسر من ايجاد المفقود .

بل لم يبيحوا لأنفسهم فهم الكتاب الذى اقتدى من قبلهم بما فيه من شموس العرفان ونجوم الفرقان ، لزعمهم : أن فهمه لا يرتقى اليه الا أفراد من رؤســـاء الدين ، يؤخذ بأقوالهم ما وجـــدوا ، وبكتبهم اذا فقدوا .

فمثل هـــذا الفريق من الصنف المخذول مثل من **« استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون »** .

---

(٩١) البقرة : ١٧ ، ١٨ .

والوجه فى التمثيل : أن من يدعى الايمان بكتاب نزل من عند ربه قد طاب بذلك الايمان أن توقد له نار يهتدى بها فى الشبهات ، ويستضىء بها فى ظلمات الريب والمشكلات ، فلما أضاءت ما حوله بما أودعته من الهدى والرشاد ، وكاد بالنظر فيها يمشى على هداية وسداد ، هجمت عليه من نفســه ظلمة التقليد الخبيث ، وعصب عينيه شيطان الغرور فذهب عنه ذلك النور ، وأطبق عليه جو الضلالة ، بل طفىء فيه نور الفطرة ، وتعطلت قوى الشعور بما بين يديه ، فهم بمنزلة الأعمى الأصم الذى لا يبصر ولا يسمع .

وقال أبو الأعلى : هذا المثل المنافقين الذين أسلموا حفاظا على مصالحهم ولم يخالط الاسلام شغاف قلوبهم (٩٢) .

* * *

● **أسرى البدع والتقاليد :**

وأما الفريق الثانى فقد ضرب الله له المثل فى قوله : **« أو كصيب من الســماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت، والله محيط بالكافرين. يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ، ان الله على كل شىء قدير »**(٩٣) .

وهو الذى بقى له بصيص من النور ، فله نظرات ترمى الى ما بين يديه من الهداية أحيانا ، ولمعانى التنزيل لمعان ، يسطع على نفســه الفينة بعد الفينة ، ويأتلق فى نظره الحين بعد الحين عندما تحركه الفطرة أو تدفعه الحوادث للنظر فيما بين يديه ، ولكنه من التقاليد والبدع فى ظلمات حوالك ، ومن الخبط فيها على حال لا تخلو من المهالك ، وهو فى تخبطه يسمع قوارع الانذار الالهى ، ويبرق فى عينيه نور الهداية ، فاذا أضاء له ذلك البرق السماوى سار **« مشوا فيه »** ، واذا انصرف عنه بشبه الضلالات الغرارة قام وتحير لا يدرى أين يذهب **« واذا أظلم عليهم قاموا »** .

(٩٢) تفهيم القرآن : ١/٥٣ .   (٩٣) البقرة : ١٩ ، ٢٠ .

ثم انه ليعرض عن سماع نذر الكتاب ودعاة الحق : كمن يضع اصبعيه فى أذنيه حتى لا يسمع ارشاد المرشد ولا نصح الناصح ، يخاف من تلك القوارع أن تقتله ، ومن صواعق النذر أن تهلكه .

هذا هو شأن فريقى هذا الصنف بما يشير اليه المثالان اجمالا .

وفى هؤلاء يقول القرآن : « **ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل** »(٩٤) — ويقول : « **ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا** »(٩٥) — وهكذا وردت فى الموضوع آيات كثيرة .

وقال أبو الأعلى : هذا المثل الثانى يصف المنافقين الذين كانوا مرض الشك ، ورغم أنهم ما كانوا كفارا تماما فقد أدوا مقتضيات الاسلام الى الحد الذى لا يسبب لهم رهقا . ومشكلات (٩٦) .

* * *

● **عبرة الماضى للحاضر :**

وقال شيخنا فى تطبيق المثل على اليهود وأمثالهم من هذه الأمة ما معناه : « **استوقدوا** » بفطرتهم السليمة نار الهداية الالهية بتصديقهم ، فلما أضاءت لهم بروقها ، ووضح لهم طريقها ، فاجأتهم التقاليد الموروثة وباغتتهم العادات المألوفة ، وشغلهم ما يتوهمونه من المنافع والفوائد ، وما يتوقعونه فى الاعراض عنها من المصارع والمفاسد ، عن الاستعانة بذلك الضوء على سلوك ذلك الصراط المستقيم ، بل استبدلوا هذا الديجور بذلك الضياء والنور ، وهذا هو معنى ذهاب نورهم .

وانما قال « **ذهب الله بنورهم** »(٩٧) ولم يقل: ذهب نورهم ، أو أذهب الله نورهم ، للاشعار بأن الله تعالى كان معهم بمعونته وتوفيقه عندما استوقدوا النار فأضاءت ، وذلك أنهم كانوا قائمين على سبيل فطرته التى فطر الناس عليها ، معتقدين صحة شريعته التى دعا الناس اليها ، وبأنه تخلى عنهم عندما نكبوا عن تلك السبيل .

(٩٤) البقرة : ١٠٨ .
(٩٥) النساء : ١١٦ .
(٩٦) تفهيم القرآن : ٥٣/١ .
(٩٧) البقرة : ١٧ .

ولا شك أن المستوقد المسترشد تكون له حالة مع الله تعالى مرضية فى التوجه اليه ، والاستضاءة بنوره الذى وهبه اياه ، فاذا أعرض عنه وكله الله الى نفسه ، وذهب بنوره ، واذا ذهب النور لا يبقى الا الظلمة .

وما كان هؤلاء فى ظلمة واحدة ، ولكنها ظلمات بعضها فوق بعض ، متعددة بتعدد أنواع التقاليد التى فتنوا بها ، وبتعدد أنواع الهداية التى أعرضوا عنها ، ولذلك قال : « **وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** »(٩٨) شيئا ، وحذف مفعول « **يبصرون** » ايذاناً بالعموم ، أى لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، ولا يرون طريقاً من طرقها ، لأنه صرف عنايته عنهم بتركهم سننه واهمالهم هدايته ، ووكلهم الى أنفسهم .

وقال أبو الأعلى : ان الآية فى المنافقين ، وأن قوله « **ذهب الله بنورهم** » تشير الى القانون الطبعى ، فهم حين اختاروا بأنفسهم أن يسيروا فى الظلمات تركهم الله يتيهون ويضلون .. وسيأتى ذكر الامام محمد عبده لهذا القانون (٩٩) .

* * *

● الاعتماد على الانتماء للدين :

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال : التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى . فقال اليهود للمسلمين : نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن على دين ابراهيم ، ولن يدخل الجنة الا من كان هوداً ، وقالت النصارى مثل ذلك . فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ، ونبينا ﷺ بعد نبيكم ، وديننا بعد دينكم ، قد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم ، فنحن خير منكم ، نحن على دين ابراهيم واسماعيل واسحاق ، ولن يدخل الجنة الا من كان على ديننا ، فأنزل الله تعالى : « **ليس بأمانيكم ولا أمانى**

---

(٩٨) تفهيم القرآن : ١/٥٢ ، ٥٣ .
(٩٩) الضالون : ص ٤١ ط . أولى .

أهـل الكتاب ، من يعمل سـوءاً يجز به ولا يجـد له من دون الله ولياً ولا نصيراً »(١٠٠) •

وأخرج البخارى فى التاريخ من حديث أنس مرفوعا : « ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، ان قوما ألهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحسن الظن بالله تعالى ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » •

والحكمة فى عناية الله تعالى بالنص على المغترين بالانتساب الى الدين — أياً كان — ظاهرة ، فان هذا الغرور هو الذى صرفهم عن العمل به ، اكتفاء بالانتساب اليه وجعله جنسية فقط ، وترك العمـل لازم — أى تابع — أو ملزوم (١٠١) لعدم الفقه فى الدين ، — أى أن ترك العمل بالدين ناشىء عن عدم فهم حكمه وأسراره — ، وتبع هذا فى الأمم السابقة — ترك النظر فيما جاء به النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، لأن المغرور بما هو فيه لا ينظر فيما سواه نظرا صحيحا ، لا سيما اذا كان مخالفا له (١٠٢) •

● **تعقيب :**

وما آفة الفرق بل والجماعات الاسلامية المعاصرة الا الغرور بما عندهم غرورا صرفهم عن النظر فيها •

* * *

---

(١٠٠) النساء : ١٢٣ .   (١٠١) أى نتيجة طبيعية حتمية .
(١٠٢) المنار جـ ١ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .

وقال الله تعالى : « **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** »(١٠٣) .

وتحدث الله عن اليهود فقال : « **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** »(١٠٤) .

وقال الامام : ذلك الذل وتلك الخلاقة(١٠٥) بالغضب انما لزماهم لأنهم عصوا الله فيما أمرهم أن يأخذوا به من الأحكام ، ولأنهم اعتدوا تلك الحدود التى حدها الله لهم فى شرائع أنبيائهم . وقد كانت تلك الأحكام والحدود هى الوسيلة لاخراجهم من الذل ، وتمكين العز والسلطان لهم فى الأرض الموعودة ، لأنها كانت الكافلة بنظامهم الحافظة لبناء جماعتهم ، فان أهملوها فسدت ألفتهم ، وانهدم بناؤهم ، وأسرعت اليهم الذلة التى لم تكن فارقتهم الا منهزمة من يدى سلطان الشريعة ، ولم يكن يصدها عنهم الا معاقل النظام تحت رعايته ، ولزمتهم الذلة والمسكنة بعد هـذا لزوم الطابع للمطبوع .

وقال أبو الأعلى : وفى الآية اشارة الى أنهم استحقوا لعنة الله لأنهم تخيروا أكابر مجرميهم ممن لا يرقبون شرعة ولا خلقا ، وجعلوهم رؤساءهم فى حين بعثوا بأطهر رجالهم الى السجون والمشانق (١٠٦) .

* * *

● **أقل المعاصى بريد الكفر :**

والمتبادر أن ترجع الاشارة فى قوله :« **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق** » الى الثـانى ، أى ذلك الكفر

---

(١٠٣) الاحزاب : ٣٦ .   (١٠٤) البقرة : ٦١ .

(١٠٥) تلك الخلاقة : هذه الجدارة والاستحقاق ، يقال : هو خلق بكذا : يعنى جدير به .   (١٠٦) تفهيم القرآن : ٧٨/١ .

بآيات الله وقتل النبيين • أى ان كفرهم وجراءتهم على النبيين بالقتل ، انما منشؤهما عصيانهم واعتداؤهم حدود دينهم • لأن الذى يدين بدين أو شريعة أياً كانت يتهيب لأول الأمر مخالفتها ، فاذا خالفها لأول مرة تركت المخالفة أثرا فى نفسه ، وضعفت هيبة الشريعة فى نظره ، فاذا عاد زاد ضعف سلطة الشريعة على ارادته ، ولا يزال كذلك حتى تصير المخالفة طبعا ورينا • وينسى ما قام على الشريعة من دليل ، وما كان لها من سيطرة • ويضرى بالعدوان ، كما يضرى الحيوان بالافتراس ، وكل عمل يسترسل فيه العامل تقوى ملكته فيه خصوصا ما اتبع فيه الهوى •

● **تعقيب :**

ولئن نزل ذلك فى اليهود ، فانه لتحذيرنا نحن المسلمين من المعصية التى تجر الى معاصى تتراكم فتحدث « الران » على قلوب العصاة حتى تحجب عن نور الايمان وهدايته كما قال الله تعالى فى سورة المطففين **« كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون • كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون • ثم انهم لصالوا الجحيم • ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون »**(١٠٧) •

كما قال سبحانه وتعالى : **« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون »**(١٠٨) •

وبقى سؤال عن الآية ، اذ كيف تضرب الذلة على اليهود على الأبد ، والسبب مذكور أنه فعل ماض **« كانوا يكفرون بآيات الله »** ؟

والجواب أن قوله **« كانوا »** ليست ممحضة فى بيان الماضى ، وانما لبيان عراقة القبح الذى فيهم بالماضى فهم كانوا ولا يزالون كذلك ولأن التوراة التى فى أيديهم — وهى غير التى نزلت على موسى عليه السلام تكون عقيدتهم المتعطشة الى الدماء المسفوكة • والى السيطرة واستعباد الشعوب المستضعفة فهى تقول فى وصيتها للجنود اذا احتلوا أرض الأعداء : سمموا الآبار ، اقتلعوا الأشجار ، احرثوا الزروع ،

(١٠٧) المطففين : ١٤ — ١٧ . (١٠٨) البقرة : ٨١ .

وابقروا بطون الحوامل ثم احرقوا عليهم الديار .. ولهذا فان ما حدث فى صبرا وشاتيلا ودير ياسين وغيرها انما هو الثمرة الطبيعية لهذه العقيدة الضالة المدمرة لسلام العالم .. والتى حتما ستتكرر كلما انطفأت ، تصديقا لقوله تعالى : **« كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فساداً ، والله لا يحب المفسدين »**(١٠٩) .

والتعبير بلفظ **« كلما »** يفيد تكرار حدوث فعل الشرط **« أوقدوا ناراً »** والتعبير بصيغة المضارع **« ويسعون فى الأرض فساداً »** لافادة استمرارهم فى افساد الأرض وكل ذلك سبب فى أن الله لا يحبهم **« والله لا يحب المفسدين »** .

* * *

● **تغلف القلوب :**

وفى حديث القرآن عن بنى اسرائيل : **« وقالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون »**(١١٠) .

يقول الامام : ان قلوبهم ليست غلفا لا تفهم الحق بطبعها ، وانما أبعدهم الله تعالى من رحمته بسبب كفرهم بالأنبياء السابقين ، وبالكتاب الذى تركوا العمل به وحرفوه .

فهم قد أنسوا بالكفر وانطبعوا عليه ، فكان ذلك سببا فى حرمانهم من قبول الرحمة الكبرى باجابة دعوى خاتم النبيين . هذا هو معنى اللعن . وقد ذكرت معه علته ليعلم أنه جرى على سنة الله تعالى فى الأسباب والمسببات ، فالله لم يظلمهم ، وانما ظلموا أنفسهم بالكفر الذى يستتبع الكفر ، والعصيان الذى يجر الى التمادى فى العصيان ، كما هى السنة فى أخلاق الانسان .

* * *

● **الايمان القليل :**

ولما ذكر اللعن معللا بالكفر الذى هو نتيجة تأثير أعمالهم السابقة فى أنفسهم ، وكان مما يخطر بالبال أن أولئك القوم لم يكونوا كافرين ،

---

(١٠٩) المائدة : ٦٤ . (١١٠) البقرة : ٨٨ .

بل مؤمنين بالله وبالكتاب والرسل ، استدرك فقال « **فقليلا ما يؤمنون** » •

وانما القلة فى الايمان باعتبار ما يؤمن به من أصول الدين وأحكام الشريعـــة ، وبالنســـبة الى اليقين فى الايمـــان ، وتحكيمـــه فى الفكر والوجدان •

ولقد كان القوم يؤمنون بالشريعة فى الجملة وكما تعطيه ظواهر الألفاظ ، ولكنهم لم يلبســـوها مفصلة تفصيلا ، ولم يفقهوا حكمهـــا وأسرارها ، فلم يكن لها سلطان على قلوبهم ، ولم تكن هى المحـــركة لارادتهم فى أعمالهم ، وانما كان يحركها الهوى والشهوة ، ويصرفها عامل اللذة ، فالايمان انما كان عندهم — قولا باللسان ، ورسماً يلوح فى الخيال ، تكذبه الأعمال ، وتطمسه السجايا الراســخة والخلال ، وهذا هو الايمان الذى لا قيمة له عند الله تعالى •

ومن العجب أن نرى آيات القرآن تبطله بالحجج القيمة ، والأساليب المؤثرة ، وأهل القرآن عن ذلك غافلون ، فقليلا ما يعتبرون ويتذكرون •

● **تعقيب :**

وأحب أن أضيف الى ما قاله الامام فى تفسير قول الكفار « **قلوبنا غلف** » ما قاله ابن كثير فى تفسيرها اذ يقول « قالوا عن قلوبهم انهـــا غلف ، يعنى انها ممتلئة بما سبق تحصيله من علوم فهى لا تتسع لمـــا أتاهم به محمد ﷺ •• وكأنها بامتلائها هذا مغلقة ومغلفة على ما فيها ، فلا يخلص اليها شىء ممـــا يقوله الرســـول كما فى قوله تعـــالى : « **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه** »(١١١) وعن حذيفـــة : قلب أغلف : معصـــوب عليه ، وذلك قلب الكـــافر ، ولهـــذا قال تعـــالى : « **بل لعنهم الله بكفـــرهم فقليلا ما يؤمنون** » أى ليس الأمر كمـــا ادعوا ، بل لقوبهم ملعونة « **بل طبع الله عليهـــا بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا** »(١١٢) أى ما آمن منهم الا قليل • والله أعلم •

* * *

(١١١) فصلت : ٥ .

(١١٢) النساء : ١٥٥ .

● **ما حدث لليهود يحدث لغيرهم :**

ان سبب ما نزل باليهود • اما هو عصيانهم واعتداؤهم حدود ما شرع الله لهم ، وسنن الله فى خلقه لا تتغير ، وأحكامه العادلة فيهم لا تتبـــدل •

لهذا جاء قوله تعالى : « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم** »(١١٣) بمنزلة الاستثناء من حكم الآية السابقة ، ليدل على أن الجزاء السابق ، وان حكى على أنه من خطأ اليهود خاصة ، لم يصبهم الا لجريمة قد تشمل الشعوب عامة ، وهى الفسوق عن أوامر الله ، وانتهاك حرماته ، فكل من أجرم كما أجرموا سقط عليه من غضب الله ما سقط عليهم ، وعلى أن الله جل شأنه لم يأخذهم بما أخذهم لأمر يختص بهم على أنهم من شعب اسرائيل أو من ملة يهود ، بل « **ذلك بما عصـــوا وكانوا يعتدون** »(١١٤) •

وأما أنساب الشعوب وما تدين به من دين وما تتخذه من ملة ، فكل ذلك لا أثر له فى رضا الله ولا غضبه ، ولا يتعلق به رفعة شأن قوم ولا ضعتهم ، بل عماد الفلاح ووسيلة الفوز بخيرى الدنيا والآخرة انما هو صدق الايمان بالله تعالى ، بأن يكون التصديق به سطوعا على النفس من مشرق البرهان ، أو جيشانا فى القلب من عين الوجدان ، فيكون الاعتقاد بوجوده وصفاته خاليا من شوب التشبيه والتمثيل ، واليقين فى نسبة الأفعال اليه خالصاً من وساوس الوهم والتخييل ، ويكون المؤمن قد ارتقى بايمانه مرتقى يشعر فيه بالجلال الالهى ، فاذا رفع بصره الى الجناب الأرفع أغضى هيبة ، وأطرق الى أرض العبودية خشوعا • واذا أطلق نظره فيما بين يديه ، مما سلطه الله عليه ، شعر فى نفسه عزة بالله ، ووجد فيها قوة تصرفه بالحق فيما يقع تحت قواه ، لا يعدو حداً ضرب له ، ولا يقف دون غاية قدر له أن يصل اليهـــا ، فيكون عبداً لله وحده ، سيداً لكل شىء بعده •

* * *

(١١٣) البقرة : ٦٢ •
(١١٤) البقرة : ٦١ .

● **ضلال الكتابيين فى الآية :**

سألنى أحد القساوسة فى دير بورن بولاية ميتشيجان : ألا تدل الآية « **ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى** » على أنهم جميعا لهم أجرهم ، وذلك هو استواء الأديان •

قلت له : لا •• فالقرآن يعرض طوائف ثلاثة لكل طائفة مداها الزمانى والمكانى • اليهود مداهم عصر موسى وعصور أنبيائهم حتى عصر عيسى • وعيسى مداه الزمانى عصره حتى يبعث محمد ﷺ ، ومحمد الى أن يرث الله الأرض ومن عليها لأن القرآن حدد أمد رسالته بعالمية الزمان والمكان « **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** »(١١٥) بخلاف أديان أهل الكتاب فمحدودة بعصر التنزيل الى أن يأتى رسول ينسخها برسالة جديدة ، وهى رسالة محدودة المكـــان ، فهى لأقوام منحصرين ، فاليهود لا يزالون يقررون هذا بحجة أنهم « دم ممتاز » أو « الشعب المختار » والانجيل يحدد نطاق النصرانية بقوم بنى اسرائيل لا غير فيقول : « انما بعثت لخراف بنى اسرائيل الضالة » وهذه الفقرة يؤكدها فى الاسلام قول الرسول ﷺ :

« وكان النبى يبعث فى قومه خاصة وبعثت الى الناس كافة » •

فمعنى الآية أن الذين آمنوا بالاسلام الذى جاء به محمد ﷺ من المسلمين أو الكتابيين ، والذين هادوا من أتباع موسى وأنبياء بنى اسرائيل قبل عيسى ، والذين آمنوا بعيسى من بنى اسرائيل ممن كانوا قبل مبعث محمد ﷺ من آمن منهم فى زمان رسالة نبيه قبل نسخها بما بعدها وأضـــاف الى ايمانه عملا صـــالحا ، فلهم أجـــرهم ولا خـــوف عليهم ولا يحزنون •

واليهود والنصارى اليوم يتنكرون لله فيرفضون التصديق بنبيه محمد ﷺ بينما نبوته ثابتة بالمعجزات التى لا تزال منها معجزة القرآن

---

(١١٥) الفرقان : ١ .

بدلائلها وأسرارها ، ولأنه كما أنهم سلموا بمبدأ بعث الله للرسل قبله عليهم أن يســلموا بمبعثــه .. « **قل ما كنت بدعا من الرســل** »(١١٦) « **وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل** »(١١٧) .. فالايمان بالرسل كظاهرة من ظاهرات رحمة الله تستوجب التصديق بأى رسول يأتى بالمعجزة الدالة على نبوته .

ومن ثم فان كتابيى اليوم ليسوا مؤمنين ولا أجر ولا أمان لهم فى الآخرة .. لأن ذلك لمن آمن منهم بمحمد بعد مبعثه ﷺ . وان أصل كل ضلال فى العالم انما يرجع الى الشرك بالله وتحريم ما لم يحرمه الله أو تحليل ما لم يحله سبحانه ، وان شر المعاصى وهى معصية ابليس لم تكن تكذيبا بل هى امتناع عن السجود والطاعة (١١٨) .

* * *

● **الاستخفاف بعذاب الآخرة :**

قال الله تعالى : « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون** »(١١٩) . وقال تعــالى : « **وقالوا لن تمسنا النــار الا أياما معدودة ، قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهــده ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون** »(١٢٠) .

روى جرير وغيره من المفسرين أن بعض اليهود قالوا ذلك ، وأن هذه الآيات المعدودات هى أربعون يوما . مدة عبادتهم العجل .

وقال الامام (١٢١) : انه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شىء . وليس

---

(١١٦) الأحقاف : ٩ . (١١٧) آل عمران : ١٤٤ .
(١١٨) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٤ ص ٢٣٥ .
(١١٩) آل عمران : ٢٣ ، ٢٤ . (١٢٠) البقرة : ٨٠ ، ٨١ .
(١٢١) المنار ج ٣ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

فى كتب اليهود التى فى أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد (١٢٢) ، فكل ما وعدت به على العمل بالكتاب هو الخير والخصب والسلطة فى الأرض وما أوعدت به هو سلب هذه النعم ، وتسليط الأمم عليهم • ولكن الاسلام بين لنا أن كل نبى جاء يدعو للايمان باليوم الآخر ، ووعد وأوعد ، فهذا هو الحق سواء أوجد فى كتبهم أم لم يوجد •

والجملة من الآية عبارة عن استسهال العقوبة والاستخفاف بها اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء (١٢٣) ، واعتماداً على مجرد الانتساب الى الدين • وكانوا يعتقدون أن ذلك كاف فى نجاتهم •

ومن استخف بوعيد الدين زاعما أنه خفيف فى نفسه ، أو أنه غير واقع بمن يستحقه حتما ، فانه تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم على ارتكاب المحارم بلا مبالاة ، ويتهاون فى الطاعات المحتمة « كالصلاة والصيام » •

● **تعقيب :**

أقول : ومن هؤلاء الأخيرين الذين يسرفون فى المعصية وفى الرجاء معاً فيقولون : ان أمة محمد على خير ، أو يفترى أحدهم الكذب فيقول : ان علياً كرم الله وجهه سيكون على الصراط ينتشل من يقع فى النار من أمة محمد ﷺ ، أو من يقول تعقيبا على قوله تعالى : « **ولسوف يعطيك ربك فترضى** »(١٢٤) : حاشاك يا محمد أن ترضى وفينا من يعذب أو يهان •

فان مثل هذه الأساطير فيها استخفاف بعدل الله ، وتزرع التواكل فى المسلمين •

---

(١٢٢) الوعد يكون بخير ، والوعيد : انذار بشر . ويقال : وعد بمكافأة وأوعد بعقوبة .

(١٢٣) أقول : ومثل هؤلاء الذين يعتمدون على قرابتهم لآل البيت ، أو لبعض الأولياء الصالحين ، أو على خدمتهم الأضرحتهم ، أو أنهم من سلالة خدم الأضرحة .. فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى عشيرته الأقربين يوما فقال : « يا فاطمة بنت محمد .. لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا عاتكة عمة محمد — صلى الله عليه وسلم — لا أغنى عنك من الله شيئا » . ثم قال لعشيرته : « ألا لا يأتينى الناس بالأعمال .. وتأتونى بالأحساب والأنساب » .

(١٢٤) الضحى : ٥ .

ومن استخفاف المعاصرين بوعيد الله للعصاة فى عصرنا هذا تأويل « مصطفى محمود » ما ورد من نعيم الجنة وعذاب النار بأنه من الأمور المعنوية فلا عذاب حسى يوم القيامة ، ولا حوار بين الكفار يوم القيامة بالصورة الحسية التى يحكيها القرآن •• وفى هذه الطائفة يقول الامام : ان من زعم أن عذاب الله غير واقع بمن يستحقه حتما بالصورة المذكورة فى القرآن ، تزول من نفسه حرمة الأموار والنواهى فيقدم على ارتكاب المحارم بلا مبالاة ، ويتهاون فى الطاعات الواجبة كالصلاة والصيام •

* * *

ثم قال الامام :

« وهكذا شأن الأمم عندما تفسق عن دينها وتنتهك حرماته ، ظهر فى اليهود ثم فى النصارى ، ثم فى المسلمين » اهـ •

وتحدثت سورة البقرة عن قول اليهود هذا وبينت عاقبته فقالت :

« بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون »(١٢٥) •

وقال الامام : ومن المفسرين من ترك **« سيئة »** فى الآية على اطلاقها ، فلم يؤولها بالشرك ، ولكنهم أولوا جزاءها فقالوا : ان المراد بالخلود طول المكث ، لأن المؤمن لا يخلد فى النار وان استغرقت المعاصى عمره ، وأحاطت الخطايا بنفسه ، فانهمك فيها طول حياته •

أولوا هذا التأويل هروبا من قول المعتزلة : ان أصحاب الكبـائر يخلدون فى النار ، وتأييداً لمذهبهم المخالف للمعتزلة ، والقرآن فوق المذاهب ، يرشد الى أن من تحيط به خطيئته لا يكون — أو — لا يبقى مؤمنا على حد قول السلف « المعاصى بريد الكفر » •

● **تعقيب :**

أقول : والقرآن لا يرشـد الى ما قاله المعتزلة ورجحـه الامام محمـد عبده ، فالقرآن ذكر خلودهم فى النار ، ولم يذكر خروجهم من

---

(١٢٥) البقرة : ٨١ •

الايمان ، وانما وقع الوهم من ربط الخلود فى النار بالكفر ، بينما لم يربط القرآن بين الأمرين دائما •

ويجوز أن يكون الخلود فى جهنم على ظاهر اللفظ ولكنه خلود فى عذاب النار الذى يختلف فى الدرجة من واحد لآخر ، فالمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، والكفار فى جهنم وبئس المصير •• ثم الذين لهم صفة اسلام ولكنهم قتلوا عمداً من يحرم قتله ولم يتوبوا ، أو أحاطت بهم خطيئاتهم فلم يتوبوا ، يكونون خالدين فى النار خلوداً أشبه بخلود أبى طالب فى جهنم ، يخفف عنه العذاب مع خلوده بأن يعـذب فى رضراض من النار تقع قدمه على جمرة من النار يغلى منها دماغه ، ويحمل حديث : « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من ايمان » محمولا على غير من قرر القرآن خلودهم فى النار من المسرفين فى المعاصى والكبائر •

وقـد قال مجـاهد فى الآية : **« من كسب سـيئة وأحاطت به خطيئته »**(١٢٦) هى الذنوب تحيط بالقلب ، وفى الحـديث الصحيح : « اذا أذنب العبد نكت فى قلبه نكتة سـوداء » والذى يغشى القلب يسمى « رينـا » و « طبعا » و « ختما » و « قفلا » ونحـو ذلك من تعبيرات القرآن ووصفه لهم ، فهذا ما أصر عليه ، واحاطة الخطيئة احداقها به فلا يمكنه الخروج ، وهذا هو البسل بما كسبت نفسـه ، أى تحبس عما فيه نجاتها فى الدارين ، فان المعاصى قيد وحبس لصاحبها عن الجولان فى فضاء التوحيد ، وعن جنى ثمار الأعمال الصالحة •

وليس صحيحا ما رجحه ابن تيمية من أن المراد بـ **« سيئة »** فى الآية خصوص الشرك وذلك لأنه عطف عليها بقوله **« وأحاطت به خطيئته »** وذلك لأمرين :

الأول : أنه ليس بعد الشرك ذنب كما يقولون ، بمعنى أن خلود المشرك لا يحتاج الى وصف شركه بأنه يصحبه اغراق فى الخطايا •

الثانى : أن العطف بالواو ، ومما هو معلوم أن العطف بالواو كثيرا ما يقع لبيان صفات الواحد وأجزائه ، وحتى مع القول بأنه يقتضى

المغايرة فذلك لبيان أن الخلود فى النار لمن انتسب للاسلام يقع لتوافر شيئين :

١ — أنه يكسب السيئة عمداً .. فلا يقع منه خطأ .. دون قصد أو اضطرار فهو خطأ لم يتجانف فيه اثما .

٢ — أنه أسرف فى الخطايا فلم يكن معه من الحسنات ما يذهب الله به عنه السيئات .

وقول ابن تيمية : « ان قوله « سـيئة » نكرة ، وليس المراد جنس السيئات »(١٣٦) لا يثبت أن المراد بـ « سيئة » هو الشرك لا غير لأنه من البدهيات فى النحو أن النكرة تعم ، فهى لا يمكن أن يكون المراد بهـا خصوص الشرك ، فقد تكون السـيئة شركا أو قتلا أو خائنـة الأعين أو ما تخفى الصدور .

* * *

ومن الناس من يكتفى بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمه بأنه غير معصوم .

ولا ريب أن من هذا رأيه يكون فى تصوره أن الصدق واتبـاع الحق انما هو من شأن طائفة معدودة من البشر ، وهم الأنبياء عليهم السلام ، وكل من عداهم فليس من شأنه أن يثبت على عمل صالح . ويكتفى بهذه التكأة فى تسلية نفسه وتجريئها على الجرائم .

وكفى بهذا حمقا ، فليس يلزم من كون غير النبى ليس معصوما أن يكون الف مأثم ، وحلف جرائم ، وخدن عظائم ، ولو لزم أن يكون الناس هكذا ، لكانت الشرائع عبثا ، والتهذيب لغوا ، ولفسـدت الأرض وخرب العمران .

وهل يصح فى حكم العقل أن يقال : ان الشرائع والحـدود ، وضروب الوعد والوعيد ، لم ينعم الله بتشريعها الا لأجل المعصومين ؟ وهل يحتاج المعصوم الى وعد أو وعيد ؟ وما فائدتهمـا بالنسبة له ؟

(١٣٦) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ١٤ ص ٤٨ — ٤٩ .

وقـــد أيقن بتوفيق الله له ، وأنه لا يأتى أمـــراً يخالف ما أمره به ، ولا يقترف شيئًا مما نهى عنه ؟ •

ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب فى الوعيد ولا الزجر ، مع أنهم أحق النـــاس بالردع ، وأحوجهم الى التخـــويف من ســـــوء العاقبة (١٢٧) ؟

* * *

● **الاستعانة على الشيطان بالصبر والصلاة :**

قال تعالى : « **واستعينوا بالصبر والصلاة ، وانها لكبيرة الا على الخاشعين • الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم اليه راجعون** »(١٢٨) •

قال الامام : الاستعانة بالصبر تكون بالالتفات الى الأسباب التى تأفك الناس وتصرفهم عن صراط الشريعة كاتباع الشهوات ، والولوع باللذات ، والبعد عن المؤلـــات ، ثم بالقياس بينها وبين ما رغب الله فيه • أو أوعد بالعقاب على فعله بملاحظة أن ما أوعد الله تعالى به أولى بأن يتقى ، وما وعد به أولى بأن يرجى ويطلب •

وضرب الأستاذ مثلا لمن يفقدون الصبر فيقعون فى الخسران مثلا • صاحب الحاجة يهزه الطيش والتسرع الى قضاء حاجته ، فيكذب لاعتقاد أن حاجته تقضى بالكذب ، وأنه بالصدق يفوته طلبه ، فيقترف جريمة الكذب لهذا الاعتقاد •

ومتى اقترفه مرة هان عليه ، فيعود اليه ، فيكون كذابا ، ومتى عرف بذلك ضاعت الثقة به ، وفسد حاله ، وأصبح يجد الحاجة الى الصدق أشد مما كان منها الى الكذب كما فى الحديث (١٢٩) : « ولا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا » •

---

(١٢٧) المنار جـ ١ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ •
(١٢٨) البقرة : ٤٥ ، ٤٦ •
(١٢٩) رواه الشيخان عن ابن مسعود •

واذا ذكر مثل هـذا الرجل أو تذكر من تلقاء نفسه الوعيد على الكذب ، وما يجلبه لصاحبه من مقت الله وغضبه ، يسبق الى ذهنه المكفرات . كالاستغفار قبل النوم مائة مرة ، وقول كذا كذا مرة ، فلا يبقى للوعيد أثر مع هذه المكفرات ، اذ يذعن بأن ذنبه يغفر لا محالة ، وينسى سبب المغفرة الحقيقى وهو التوبة النصوح والرجوع الى الله تعالى ، وأن العفو عن غير التائب الأواب الى الله تعالى ، مجهـول بالنسبة الى علمنا ، وان كان جائزا عقلا ، فاننا لم نطلع على ما فى علم الله تعالى فنعلم أننا ممن يعفو عنهم .

وكيف نترك ما جاء عن الله فى كتابه وعلى لسان نبيه من النصوص القاطعة الدالة على أن لعنة الله مسجلة على الكاذبين ، وهى بعمومها لا تدع لوهم مجالا فى نزول سخط الله بالكاذب ، ثم نخترع لأنفسنا تعلة نتوكأ عليها فى ارتكاب هذه الجريرة ، ونسندها الى سعة عفو الله ، أو الى مجمل من القول لا يبينه الا تلك النصوص القاطعة ؟ !

ان هذا الا خيال ، أو تصوير خيال ، أو فقد للايمان بصحة تلك النصوص القاطعة . نعوذ بالله .

وقـد تابع الامام المودودى الشيخ محمـد عبده فى هـذا المعنى بايجاز [١٣٠] .

● **تعقيب :**

وقد عالج القرآن قضية افساد الشيطان عقائد الناس وسلوكهم بابرازه فى صورة العدو التقليدى الدائم الذى أفسد حياتنا وحياة من قبلنا وعقيدتهم فقال : **((ان الشيطان للانسان عدو مبين))**[١٣١] ، وقال : **((ألم أعهد اليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، انه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى ، هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيرا ، أفلم تكونوا تعقلون))**[١٣٢] .. وقال عن تحدى الشيطان لبنى آدم :

(١٣٠) تفهيم القرآن : ١/٧٠ . (١٣١) يوسف : ٥ .
(١٣٢) يس : ٦٠ ـ ٦٢ .

« **وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا** »(١٣٣) فهو يسخرهم لاتباعه ويسلطهم على اخوانهم وأخواتهم من بنى آدم .

وقد جاءت الآية « **واستعينوا بالصبر والصلاة** »(١٣٤) عقب قوله سبحانه « **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** »(١٣٥) فهى اذن تعليم للدعاة واجب التجمل بالصبر ، والاستعانة بالله فى الصلاة حيث نتذكر فيها « **اياك نعبد واياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم**»(١٣٦) . ؟!

قال ابن تيمية (١٣٧) : جاء فى الحديث : ينبغى لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به ، فقيها فيما ينهى عنه ، رفيقا فيما يأمر به ، رفيقا فيما ينهى عنه ، حليما فيما يأمر به ، حليما فيما ينهى عنه .

فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر، والرفق عند الأمر ليسلك أقرب الطرق الى تحصيل المقصود ، والحلم بعد الأمر ليصبر على أذى المأمور المنهى [من الناس] فانه كثيرا ما يحصل له الأذى بذلك ، ولهذا قال تعالى : « **وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك** »(١٣٨)، وفى أول المدثر وهى من أول ما نزل من القرآن : « **ولربك فاصبر** »(١٣٩) وقال سبحانه فى المزمل : « **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا** »(١٤٠) — « **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا** »(١٤١) — « **واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا** »(١٤٢) — « **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت** »(١٤٣) .

وقد جمع الله بين التقوى والصبر على الأذى فى آية أخرى كما جمع بين الصبر والصلاة هنا ، لأن الصلاة أبرز مظاهر التقوى . فقال سبحانه : « **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا**

---

(١٣٣) النساء : ١١٨ .
(١٣٤) البقرة : ٤٥ .
(١٣٥) البقرة : ٤٤ .
(١٣٦) الفاتحة : ٥ ، ٦ .
(١٣٧) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ١٥ .
(١٣٨) لقمان : ١٧ .
(١٣٩) المدثر : ٧ .
(١٤٠) المزمل : ١٠ .
(١٤١) الأنعام : ٣٤ .
(١٤٢) الطور : ٤٨ .
(١٤٣) القلم : ٤٨ .

الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »(١٤٤) .

فالتقوى تتضمن طاعة الله ومنها الصلاة ، ومنها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر يتناول الصبر على المصائب التى منها الأذى الصادر من المـأمور المنهى للآمر الناهى (الداعية) .

لكن للآمر الناهى أن يدفع عن نفسه ما يضره كما يدفع الانسان عن نفسه الصائل (الحيوان المفترس) فاذا أراد المـأمور (بالمعروف) المنهى (عن المنكر) ضربه أو أخذ ماله ، ونحو ذلك ، وهو قادر على دفعه فله دفعه عنه ، بخلاف ما اذا وقع الأذى (من العاصى) وتاب منه ، فان هذا مقام الصبر والحلم ، والمثل الأعلى فى هذا الباب نبينا محمد ﷺ فقد كان لا ينتقم من أجل نفسه ، ففى الصحيحين عن عائشة قالت : « ما ضرب رسـول الله ﷺ بيده خادما له ، ولا امرأة ، ولا دابة ، ولا شيئا قط الا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا نيل منه فانتقم لنفسه الا أن تنتهك محارم الله ، فاذا انتهكت محارم الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله » .

وفى القرآن الكريم **« فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره »**(١٤٥) ثم أعقبهـا بقوله **« وأقيمـوا الصـلاة وآتوا الزكـاة »**(١٤٦) .

قال ابن تيمية : أما الصبر فانه مأمور به مطلقا ، فلا ينسخ ، وأما العفو والصفح فانه جعل الى غاية ، وهو أن **« يأتى الله بأمره »**(١٤٧) .. فلمـا أتى بأمـره ، بتمكين الرسـول ونصره — صـار قـادرا على الجهـاد لأولئك . والزامهم بالمعـروف ونهيهم عن المنكـر — صار يجب عليه من العمل باليد فى ذلك ما كان عاجزا عنه ، وهو مأمور بالصبر فى ذلك كما كان مأمورا بالصبر أولا .

(١٤٤) آل عمران : ١٨٦ .
(١٤٥) البقرة : ١٠٩ .
(١٤٦) البقرة : ٤٣ .
(١٤٧) والأمر ما دام مغيا بغاية لا يسمى ما يأتى بعد بلوغ الغاية ناسخا فكل من الحكم للحالين محكم .

ولأن المقصود بالجهاد أن تكون كلمة الله هى العليا ، فان من أسلم من الكفار أو تاب من البغاة عن تأول ، لم يضمنوا أو يغرموا ما أتلفوه للمسلمين من الدماء والأموال .

قال ابن تيمية : والكفار اذا أسلموا — وبأيديهم ما غنموه من أموال المسلمين — كان ملكا لهم عند جمهور العلماء كمالك وأبى حنيفة وأحمد ، وهو الذى مضت به سنة رسـول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين . ولا ينبغى للآمر الناهى « الداعية » أن يقتصر من المأمور « بالمعروف » المنهى « عن المنكر » اذا هو تاب توبة صادقة ، فانه بتوبته سقط عنه حق الله ، كما يسقط عن الكافر — اذا أسلم — حقوق الله ، كما ثبت فى الصحيح : « الاسلام يهدم ما كان قبله ، والتوبة تهدم ما كان قبلها » .

« فالمأمور المنهى : ان كان مستحلا لأذى الآمر الناهى — أى معتقدا ذلك — كأهل البدع والأهواء الذين يعتقدون أنهم على حق ، وأن الآمر الناهى لهم معتد عليهم ، فاذا تابوا لم يعاقبوا بما اعتدوا به على الآمر الناهى من أهل السنة .

ولهذا كان جمهور العلماء كأبى حنيفة ومالك وأحمد — فى أصح الروايتين ، والشافعى فى أحد القولين — على أن أهل البغى المتأولين ، لا يضـمنون ما أتلفوه على أهـل العـدل بالتأويل ، كمـا لا يضمن أهـل العـدل ما أتلفـوه على أهـل البغى بالتـأويل ، باتفاق العلماء .. وكذلك أصح قولى العلماء فى المرتدين ، فان المرتد والباغى المتأول ، والمبتدع كل هؤلاء يعتقد أحدهم أنه على حق ، فيفعل ما يفعله متأولا ، فاذا تاب غفر له ما سلف من فعله وهـذا بخلاف من يعتقد أن ما يفعله بغى وعدوان فانه يضمن ما أتلفه باتفاق »(١٤٨) .

أقول : أما ان كان ما استولى عليه من الآمر الناهى « الداعية » لا يزال موجودا فالواجب رده اليه ، وكذلك يستحب للكافر أن يرد ما لديه من أموال أو متاع لم يتلف لأصحابه ان عرفوا . كما ينبغى للمسلم أن يرد للكافر اذا أسلم ما كان سلبه أو غنمه قبل اسلامه .

---

(١٤٨) مجموع فتاوى ابن تيمية : ج ١٥ ص ١٧٠ — ١٧٢ .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : « لكن الانسان تزين له نفسه أن عفوه عن ظالمه يجريه عليه ، وليس كذلك • ففى الحديث الصحيح : « ثلاث ان كنت لحالفاً عليهن : ما زاد الله عبدا بعفو الا عزا ، وما نقصت صدقة من مال ، وما تواضع أحد لله الا رفعه الله » •• وفى الآية الكريمة : **« والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون »**(١٤٩) قال ابراهيم النخعى : كانوا يكرهون أن يستذلوا ، فاذا قدروا عفوا •قال تعالى **«هم ينتصرون»** يمدحهم بأن فيهم همة الانتصار للحق والحمية له ، ليسوا بمنزلة الذين يعفون عجزا وذلا ، بل هذا مما يذم به الرجل ، والممدوح العفو مع القــدرة ، والقيام لمــا يجب من نصر الحق ، لا مع اهمــال حق الله وحق العباد (١٥٠) • **« وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله »**(١٥١) •

* * *

---

(١٤٩) الشورى : ٤٩ .

(١٥٠) المرجع السابق ص ١٧٤ •

(١٥١) الشورى : ٤٠ •

الفصل الثاني

ضلال العقيدة والفهم

- عبرة التاريخ فى حياة الأمم وهلاكها .
- اسباب حفظ الملك .
- الاحتكام لغير ما انزل الله .
- معايير صلاحية المرء للحكم .
- صورة من التضليل للمسلمين .
- الاختلاف فى الدين .
- اخذ التاريخ عن بنى اسرائيل وامثالهم .
- مجاراة اهل الباطل .
- موالاة الكفار ومعاملتهم .
- التوسل بالأنبياء والأولياء .
- الاسراف فى الرجاء .
- المتشابه والمراد بتأويله .
- الضلال بالمثل .
- السحر .

عبرة التـــاريخ

فى حياة الأمم وهلاكها

● **الترابط التاريخى والاجتماعى للأمم :**

قال تعالى : « **وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** »[1] .

بمراجعة ما نقلناه عن الامام محمد عبده فى الفصل المــاضى على ما كتبه الامام المودودى فى تفسيره نفس الآيات نجدهما ملتقيين على نفس المعانى غير أن المودودى تابع الجمهور فى تفسير المثلين « **مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً** »[2] و « **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد** »[3] فجعلهما فى المنافقين . الأول منافق لم يدخل شىء من الايمان قلبه . والثانى ليس كافراً تماما بل فى قلبه شك .

وفيما يلى من الكتاب سنعرض الى ما كتبه أبو الأعلى فنضيف منه الى ما قاله الامام محمد عبده ما قد يخالفه فيه أو يكون مزيداً عليه . لنعرف مدى ارتباط الفكر الاسلامى بين العاملين للاسلام فى جيلين .. فماذا قال الامامان : المودودى ومحمد عبده ؟

قال أستاذنا المودودى رحمه الله [4] : لقد كان ذلك امتحانا يبين ما اذا كانت شخصيتهم من تبر خالص أم من معدن خسيس . وهل سيعترفون لله بجميل صنعه . ويحمدونه على عظيم نعمائه بعد خروجهم الذى تم باعجاز خارق أم لا ؟

وقال الأستاذ الامام فى هذه الآية ما مثاله [5] :

خاطب القرآن الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ من اليهود بما كان لآبائهم ، لأن الانعام على أمة بعنوان أنها « أمة كذا » هو انعام شامل

---

(1) البقرة : ٤٩ .
(2) البقرة : ١٧ .
(3) البقرة : ١٩ .
(4) تفهيم القرآن : ١/٧٢ .
(5) تفسير المنار للآية ..

للأمة ، من أصابه ذلك الانعام ومن لم يصبه ، ويصح الامتنان به على اللاحقين منهم والسابقين ، كما يصح الفخر به منهم أجمعين .

ولأن ما وصل الى مجتمع يكون له أثر في مجموع الأفراد ، لا سيما اذا كان الواصل من نقمة أو نعمة مسبباً عن عمل الأمة شراً أو خيراً ، ويكون لذلك أثر في الأمة يورثه السلف الخلف ، ما بقيت الأمة .

وأنواع القبائح التي ذكر بهـا اليهود في القرآن كانت لشعب اسرائيل ، لأن الجرائم التي كان البلاء عقوبة عليها انما كانت من مجموع الشعب ، من حيث هو شعب اسرائيل .

ثم ان الله تعالى كان يتوب على الشعب بعد كل بلاء ، ويفيض عليه النعم ، فتكون العقوبة تربية وتعليما تفيد المعتبرين بها نعمة وسعادة .

ان الروابط بين الأمم وجماعاتها كالروابط الحيوية بين أعضـاء الشخص الواحد بلا فرق ، تعثر الرجل فتخدش أو توثأ[٦] ، والألم يلم بالشخص كله من حيث هو شخص حي بحياة واحدة تستوى فيها رجله وسائر أعضائه .

علمنا الله تعالى هذا بما قص علينا من أخبار الأمم ، وأنعم على أمتنا بهذا القرآن ، فكان لهم به نعم لا تحصى .

منها أنهم كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته اخوانا .

ومنها أنهم كانوا مستضعفين فمكن لهم في الأرض وأورثهم أرض الشعوب القوية وديارهم وجعل لهم السلطان عليهم .

ومنها أنه جعلهم أمة وسطا لا تفريط عندها ولا افراط ، ليكونوا شهداء على الناس الذين غلوا وأفرطوا ، والذين قصروا وفرطوا . ثم لما كفرت بأنعم الله أنزل بها ألوانا من البلاء والنقم بعنوان الأمة [٧] .

فان التتار انما نكلوا بها وتبروا ما علوا تتبيرا ، ثم زحف عليها

---

(٦) الوثأ : اصابة في اللحم لا تبلغ العظم .
(٧) أي بوصفها أمة .

الغربيون أيام حروب الصليب وجاسوا خلال الديار ، لأنها « الأمة الاســلامية » •

● **تعقيب :**

أقول : ومصداق قول الشيخ فى عصر الذين جاءوا من بعده بنحو قرن من الزمان هو ما نجده من زحف اسرائيل فى صلف واستعلاء فى جميع اتجاهاتها تنكل بمن تشاء من العرب : تحتل سينا ، فاذا وقع معها صلح على أن تخرج •• فلا توقعه الا لتسكت المتصالحين ، وتضرب اخوتهم فى لبنان ، وتثبت أقدامها فى الجولان • وتبقى لها فى سينا « مسمار جحا » فتستبقى معها قطعة من الأرض المصرية ليستمر شبح الاذلال لمصر ، والعجز عن اجلائها واضحا لكل من تحدثه نفسه بشر وسوء لاسرائيل « **ولا يزال الذين كفــروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحــل قريبــا من دراهم حتى يأتى وعــد الله ، ان الله لا يخلف الميعاد** »(٨) •

* * *

يقول الامام : ثم ان الفتن لا تزال تحل بديارها ، وتنقصها من أطرافها وسوط عذاب الله يصب عليها بعنوان « الأمة الاسلامية » ، وقد مرت عليها قرون وهى لا تعتبر بما مضى ، ولا تتربى بما حضر ، بل جهلت المــاضى فحارت فى الحاضر ، لا تعرف سببه ولا الخروج منه •

ويعتذرون بالقضاء والقدر عن معرفة الأسباب ، ويكلون اليهما النجاة منه أو البقاء فيه •

● **تعقيب :**

أقول : ثم خلف من بعدهم خلف لا يعتذرون بشىء ، لأنهم على درجة عالية من الوقاحة والتبجح ، ولا يؤمنون بالقضاء والقدر •

* * *

---

(٨) الرعــد : ٣١ •

ثم قال : ان هذه الأمة أمة واحدة ، وان اختلفت ديارها ، وتعددت أجناسها ، ولا يمكن أن تعرف حقيقتها الا بعد معرفة تاريخها الماضي .

كان سلفنا — رضي الله تعالى عنهم — يضبطون أحوال من قبلهم من أمور الدين والدنيا بكل اعتناء ودقة ، حتى كانوا يروون البيت من الشعر ، أو النكتة بين العاشق ومعشوقته بالأسانيد المتصلة .

وليست هذه المبالغة مما يؤخذ عليهم ، فان الأمة انما تكون أمة بدينها ولغتها وأخلاقها وعاداتها ، فاذا لم يحفظ خلفها عن سلفها هذه المقومات بحفظ تاريخها ، تكون عرضة للتغير بتأثير حوادث الزمان ، وتقلبات شئون الاجتماع مع جهل المتأخر بما كان عليه المتقدم ، وبكيفية حدوث التغيير الضار ، للجهل بالتاريخ .

بهذا تفعل فواعل الكون بالأمة الجاهلة أفاعيلها حتى تقلب كيانها ، وتقطع عرى الربط العامة بين أفرادها ، فلا يكون لهم عمل الا للمصلحة الشخصية ولا حفاظ لأمة الا بالمصلحة العامة ، فاذا أهملت تكون من الهالكين .

عنيت أمتنا بالتاريخ عناية لم تسبقها به أمة ، فلم تكتف بضبط الوقائع وتلقيها بالرواية كالسنة النبوية ، بل تفننت فيها ، فصنفت في تاريخ الأشخاص ، كما صنفت في تاريخ البلاد والشعوب ، ثم نوعت تاريخ الأشخاص : فجعلت لكل طبقة تاريخا ، فنرى في المكاتب طبقات المفسرين ، وطبقات المحدثين ، وطبقات النحويين ، وطبقات الأطباء ، وطبقات الشعراء الى غير ذلك .

ثم اهتدى بعضهم الى استنباط قواعد العمران وأصول الاجتماع من التاريخ ، فصنف ابن خلدون في ذلك مقدمة تاريخه ، ولو لم تنقطع بنا سلسلة العلم من ذلك التاريخ لكنا أتممنا ما بدأ به سلفنا ، ولكننا تركناه وسبقنا غيرنا الى اتمامه واستثماره ، فالتاريخ هو المرشد الأكبر للأمم العزيزة اليوم الى ما هي فيه من سعة العمران وعزة السلطان .

وكان القرآن هو المرشد الأول للمسلمين الى العناية بالتاريخ

ومعرفة سنن الله فى الأمم منه ، وكان الاعتقاد بوجوب حفظ السنة وسيرة السلف هو المرشد الثانى الى ذلك ، فلما صار الدين يؤخذ من غير الكتاب والسنة أهمل التاريخ ، بل صار ممقوتا عند أكثر المشتغلين بعلم الدين ، فان وجد من يلتفت اليه فانما يكون متبعا فى ذلك سنة قوم آخرين .

* * *

● **ما درس التاريخ للعمل الاسلامى الآن ؟**

والواقع أن الذين يمارسون دورهم فى الحركة الاسلامية انما يصنعون التاريخ الحديث للدعوة الاسلامية ، وهم أقدر على فهم تاريخ الحركة الاسلامية فى مسارها منذ فجر البعثة المحمدية الى العصر الحديث .. ممن يدرسون بعقولهم التاريخ دون دخول فى العمل الاسلامى وأنواع الجهاد من حركة النفور القلبى من المعصية ، وحركة العشق لهذا الدين والحب البالغ لأهله — الى المشنقة أو بريق السيوف وقذف القنابل وقصف المدافع ... من مواجهة المظالم ومتاعب الفرقة وتجميع الصف الى لقاء أعداء الله ، الى النصر الى الحفاظ على ثمار النصر والغاية منه وهى الدعوة الى الله .. لقد مر دعاة الاخوان مثلا بالتشريد ومر بخاطرهم عند تمام المحاصرة سؤال : الى أين يارب ؟ ومن يدفننى فى غربتى .. فضحكت لهم الآية تؤنسهم فى غربتهم « **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله** »(٩) .

وقد سجنوا فى الطور .. فلما سقط الطاغية الذى سجنهم عبروا طور سيناء على الفلك .. فعاشوا لحظة تاريخية مع القرآن ذات مذاق لا يدركه الا أهله فقالوا مقالة نوح التى علمها اياه ربه « **فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** »(*) .

---

(٩) النساء : ١٠٠ .　　(*) المؤمنون : ٢٨ .

وكم من أحـــداث لن يعيشـــون حركة التـــاريخ ويســــهمون فى صياغتها .. هم وحدهم الذين يستطيعون بها تفسير أحداث متشابهه يضطرب فى تفسيرها فلاسفة التاريخ .

هذا ومن جانب آخر .. ان صناع تاريخ الدعوة الاسلامية المعاصرة هم أحوج الناس الى سبر أغوار التاريخ ، والوقوف على نواحيه لتأمل كل ما يجرى فى شوارعه وأزقته ومساراته **« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »**(*) .

* * *

ونعود الى تفسير الآية فنقول :

أول من دخل مصر من بنى اسرائيل هو يوسف عليه السلام ، وانضم اليه بعد ذلك اخوته ونما نسله ، فلما رآهم الحكام المصريون يزدادون نسلا خافوا أن يقووا بالكثرة ويغلبوهم على بلادهم ، فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم ، لأن من سنة الله فى الخلق أن قوام الشعوب والقبائل وحفظ الأجناس انما يكون بالذكور .

وقال مفسرنا « الجلال » تبعا لغيره : ان سبب التعذيب وتقتيل الأبناء — دون البنات — هو أن بعض الكهنة أخبر فرعون بأن سيولد من بنى اسرائيل ولد ينزع منه ملكه ، ويكون على يديه هلكه .

قال الامام : وليس لهذا القول ســـند صحيح ، ولا يعـــرف فى التاريخ .

وان ما قلناه — أى فساد بنى اسرائيل ، وجرائمهم ، والنفعية — هو الذى يعرفه بنو اسرائيل ، ويتناقلونه فى كتبهم المعروفة ، المقدسة وغير المقدسة ، وهو المعقول فى نفسه أيضا .

* * *

(*) يوسف : ١١١ .

« أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانهـا لا تعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »(*) .

يقول الامام فى أضواء الآية مع شيخه : أهلك الله شعوبا ، ولا يزال عدل الله يبدل قوما بقوم ، ويأتى لكل حين بأناس آخرين ، وعين لكل حادث سببا **« ولا يظلم ربك أحداً »**(١٠) . أمر الله عباده بالسير فى الأرض : **« قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين »**(١١) ليريهم قضاءه الحق فيمن سلف ومن خلف فيطيعوه .

فمن نظر فى أحوال الشعوب ، أدرك سر أمر الله فى قوله : **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا »**(١٢) وسر نهيه فى قوله : **« ولا تفرقوا » : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »**(١٣) أى جاهكم وعظمتكم وعلو كلمتكم .

* * *

● **الخبراء الأجانب :**

ان الله يجعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغى الثقة به ، سببا فى اختلال الأمر وفساد الحال . فمن وثق فى عمله بمن ليس منه فى شيء ولا تجمعه معه جامعة حقيقية (الاسلام) ، وليس فى طبعه ما يبعثه على رعاية مصلحته أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد فى جلب منفعته ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ويسوء مآله ، فمن لم يرزأ بعمى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهى الله تعالى فى قوله : **« لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم**

(*) الحج : ٤٦ .
(١٠) الكهف : ٤٩ .
(١١) الأنعام : ١١ .
(١٢) آل عمران : ١٠٣ .
(١٣) الأنفال : ٤٦ .

بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق »[١٤] وقوله : « **لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر »**[١٥] .

من الناموس الثابت أن الشفقة والمرحمة والحمية والنعرة على الملك والرعية ، انما تكون لمن له فى الأمة أصل راسخ ، ان الملتحم مع الأمة بعلاقة الجنس أو المشرب يراعى نسبته اليها ونسبتها اليه ، ويراها لا تخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه فى تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحريمه ، هذا الى ما يعلمه كل واحد من الأمة أن ما تناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبهـــا من الأرزاء يصيبه . فعلى ولى الدولة ألا يكل شيئا من عمله الا الى أحد رجلين :

١ — اما رجل يتصل به فى جنسية سالمة من الضعف والتمزيق ، موقرة ، لم توهن رابطتها اختلافات المشارب والأديان .

٢ — واما رجل يجتمع معه فى دين قامت جامعته مقام الجنسية ، بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها ، كالدين الاسلامى الذى حل عند المسلمين — وان اختلفت شعوبهم — محل كل رابطة نسبية .

أما الأجانب فى جنس أو دين ، فمثلهم فى المملكة كمثل الأجير فى بناء بيت لا يهمه الا استيفاء أجرته ، ثم لا يبالى : أسلم البيت أو دكته الزلازل .. هذا اذا صدقوا فى أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر ، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذى هو خادم فيها ، ولا يمسه شىء مما يمسها من الضعة لأنه منفصل عنها ، اذا فقد العيش فيها فارقها وارتد الى منبته ، فلا يجد فى قلبه ما يبعثه على الحذر مما يفسد الملك ، أو الحرص الزائد على ما يعلى شأن البلاد ، هذه حالهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا براءتهم من أغراض أخر ، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم ، فراراً من الفقر ، وضربوا

---

(١٤) المتحنة : ١ . (١٥) آل عمران : ١١٨ .

فى أرض غيرهم طلبا للعيش من أى طريق ، وسـواء راعوا الذمـة أو خانوا .. أو لو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم ، يمهدون لها طريق السيادة .

ومن تتبع التاريخ رأى أن الدول فى نموها وبسطتها ما كانت مصونة الا برجال منها ، وما كان شىء من أعمالها بيد أجنبى عنها ، وما سقطت فى هوة الانحطاط الا عند دخول العنصر الأجنبى فيها ، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية فى أعمالها . فان ذلك كان — فى كل دولة — آية الخراب والدمار ، وبخاصة اذا كان بين الغرباء وبين الدولة التى يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم من أزمان طويلة .

* * *

● **أثر الأجانب فى أخلاق الوطنيين :**

ثم قال الامام محمد عبده وشيخه: نعم: كما يحصل الفساد فى بعض الأخلاق والسجايا الطبعية لسبب العوارض الخارجية ، كذلك يحصل الضعف والفتور فى حمية أبناء الدين أو الأمة ، اذا كان ولى الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها ، وفى هذه الحال يقدمون منافعهم الخاصـة على فرائضهم العامة ، فيقع الخلل والفساد فى نظام الأمة ، ولكن ضرره أخف من الضرر الذى يتسبب عن تسـلم الأجانب هامات الأمور فى البلاد ، لأن صـاحب اللحمة فى الأمة ، وان مرضت أخلاقه ، بحكم الفطرة — ان أساء فى عمله مرة رجع الى الاحسان أخرى ، وان ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجتذبه آونة بعد آونة لمراعاتها والالتفات اليها ، ويميله الى المتصلين معه بتلك العلائق وان بعدوا .

ثم قال الامامان محمد عبده والأفغانى : ألا أيها الأمراء العظام ، ما لكم وللأجانب عنكم : « **هاأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم** »[١٦] قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة فى أمرهم « **ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها** »[١٧] سارعوا الى أبناء أوطانكم واخوان

---

(١٦) آل عمران : ١١٩ .   (١٧) آل عمران : ١٢٠ .

دينكم وملتكم ، وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير .

* * *

● **الشورى :**

قال الامامان محمد عبده والأفغانى : قد أمر الله تعالى نبيه — وهو المعصوم من الخطأ — تعليما لنا وارشاداً فقال : **« وشاورهم فى الأمر »**(١٨) . وقال فيما امتدح به المؤمنين **« وأمرهم شورى بينهم »**(١٩) .. وما أوتى الانسان من العلم الا قليلا ، ولا يمكن لانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها ، فأرشده الله للاستعانة بغيره من بنى جنسه **« وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا »**(٢٠) .. هذا ما يحكم به العقل فى المصالح الخاصة ، فكيف لو كان الشخص راعى أمة ، لا شك أنه يكون أشد افتقارا الى المشورة ممن يكون سعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور ، على مقدار سعة سلطانه .

* * *

● **اعداد القوة :**

ان الحرص المودع فى طباع البشر يحرك الشعوب للسيطرة على غيرها للاستئثار بخيرات المغلوبين ، لذا كان على كل من بهم قوام الملك أن يستعدوا لدفع طوارىء العدوان ، فلو فرطوا فى اعداد لوازم الدفاع — بأى وجه كان — لألقوا بأنفسهم فى مهاوى الأخطار ، وهذا هو سر الافصاح والابهام فى قوله تعالى : **« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »**(٢١) . أمر باعداد القوة (مفصحا) ووكلها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب ما يقتضيه الزمان وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم . هذا أمر الله ينبه الغافل والذاهل . **« فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا »**(٢٢) ؟

* * *

---

(١٨) آل عمران : ١٥٩ .
(١٩) الشورى : ٣٨ .
(٢٠) الحجرات : ١٣ .
(٢١) الأنفال : ٦٠ .
(٢٢) النساء : ٧٨ .

● **وضع كل شىء وشخص فى موضعه :**

ان تفويض الأعمال للقادرين على أدائها ، ووضع الأمـور فى نصابها مما يحفظ النظام الداخلى من الخلل ، ويشفى نفوس الأمة من العلل • وهذا هو العدل المـأمور به على لسان الشرع فى قوله تعـالى : « **ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها** »(٢٣) وقوله : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** »(٢٤) • العدل هو الحكمة التى امتن الله بهـا على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال : « **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا** »(٢٥) هى مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية فهو الحكم العـــدل •

كما أن الجور عن الاعتدال فى كل جزء من أجزاء العالم يوجب اضمحلاله ، كذلك الجور فى الجمعيات البشرية يسبب دمارها • انه لم ينهدم ملك الا لشقاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتخال العنصر الأجنبى ، أو استبداد فى الرأى ، واهمال فى اعداد القوة والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الأعمال لمن لا يحسن أداءها • ووضع الأشياء فى غير مواضعها فيكون جور فى الحكم ، واختلال فى النظم وفى كل ذلك حيد عن سنن الله فيحصل غضبه بالخاطئين ، وهو أحكم الحاكمين • « **ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم** »(٢٦) •

* * *

---

(٢٣) النساء : ٥٨ .
(٢٤) النحل : ٩٠ .
(٢٥) البقرة : ٢٦٩ .
(٢٦) الأنفال : ٥٣ •

الاحتكام لغير ما أنزل الله

قال الله تعالى : ((**ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيداً • واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**))(٢٧) ثم يقول ((**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما**))(٢٨) •

وقال سبحانه : ((**ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا • أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا**))(٢٩) •

وقال سبحانه : ((**أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون • أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون**))(٣٠) •

وظاهرة الخزى فى الدنيا والهزيمة والحرمان من النصر لكافة الشعوب المنتمية للاسلام ولا تطبق الشريعة تطبيقا كاملة فيها عبرة لمن كان له قلب ، وهى ظاهرة تدل على صدق أخبار القرآن ووعيده وعلى أنه كتاب علام الغيوب • أليس من الخزى أن بضعة ملايين من شذاذ الآفاق ، ممن طردتهم الشعوب ، تكون دويلة اسرائيل وتسخر من كافة الشعوب العربية والاسلامية مجتمعة وتحدث من المذابح فى دير ياسين

---

(٢٧) النساء : ٦٠ ، ٦١ . (٢٨) النساء : ٦٥ .

(٢٩) النساء : ١٥٠ ، ١٥١ . (٣٠) البقرة : ٨٥ ، ٨٦ .

وصبرا وشاتيلا وغيرها ما أصبح حديث الغادى والرائح .. ثم نحن لازلنا نعرض عن حكم الكتاب الكريم ونحن نزعم أننا به مؤمنون .

قال الله سبحانه فى أمثالنا : « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** »[٣١] . ولئن كانت هذه الآية نزلت فى اليهود أساسا لنأخذ منها العبرة فقد نزل فى الذين يزعمون الاسلام ولما تخالط بشاشته قلوبهم : « **لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ، وما أولئك بالمؤمنين . واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين** »[٣٢] أى يأخذون من الاسلام ما وافق أهواءهم فقط « **أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، بل أولئك هم الظالمون . انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وأولئك هم المفلحون** »[٣٣] .

* * *

● **كيف انحرف الناس عن الدين الى السياسة ؟**

كان علمــاء العراق فى العصر العباسى الذين تولوا القضاء كثيرا ما يخالفون النصوص ، فاذا قيل لهم : فعل رسول الله كذا فى هــذا الموقف .. قالوا : هذه سياسة .. ويقال : نعم .. هى سياسة مشروعة لنا على الناس أن ينقادوا لها ، فالجهل بالدين هو السبب الأول .. وفى الصحيح « أن بنى اسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ، كلما مات نبى قام نبى ، وانه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء يكثرون » قالوا : فما تأمرنا ؟ قال : « أوفوا ببيعة الأول فالأول ، وأعطوهم حقهم ، فان الله سائلهم عما استرعاهم » .. فلما صارت الخلافة فى ولد العباس واحتاجوا الى سياسة الناس وتقلد لهم القضاء من تقلده من فقهاء العراق ولم يكن ما معهم من

(٣١) آل عمران : ٢٣ .
(٣٢) النور : ٤٦ — ٤٩ .
(٣٣) النور : ٥٠ ، ٥١ .

العلم كافيا فى السياسة العادلة ، احتاجوا حينئذ الى وضع ولاية المظالم وجعلوا ولاية حرب غير ولاية شرع ، وتعاظم الأمر فى كثير من أمصار المسلمين ، حتى صار يقال : الشرع والسياسة ، وهذا يدعو خصمه الى الشرع ، وهذا يدعو الى السياسة ، وظهر حاكم يحكم بالشرع وآخر بالسـياسية .

والسبب فى ذلك أن الذين انتسبوا الى الشرع قصروا فى معرفة السنة فصارت أمور كثيرة اذا حكموا فيها بغير السنة ضيعوا الحقوق وعطلوا الحدود ، حتى تسفك الدماء وتستباح الحرمات ، والذين انتسبوا الى السياسة صاروا يسوسون بنوع من الرأى من غير اعتصام بالكتاب والسنة ، وخيرهم الذين يحكم بلا هوى ، وتحرى العدل ، وكثير منهم يحكمون بالهوى ، ويحابون القوى ومن يرشوهم ونحو ذلك (٣٤) . ثم ظهر من يقول فى عصرنا : عدل الاسلام وحكمه .. هو العـدل والحكم الطبعى — يعنى بلا حاجة للكتـاب — وهى كلمـة حق يراد بهـا باطل .

حقا كما قال ابن تيمية : المقصود من القضاء وصول الحقوق الى أهلها وقطع المخاصمة ، فوصول الحقوق هو المصلحة ، وقطع المخاصمة ازالة المفسدة ، فهو من باب رفع الظلم والضرر (٣٥) ، ولكن كتاب الله انما أنزل ليفصل النزاع بين من يحسن الرد اليه ، ومعلوم باتفـاق المسلمين أنه يجب تحكيم الرسـول فى كل ما شجر بين الناس فى أمر دينهم ودنياهم ، فى أصول دينهم وفروعه ، ومن أضاف الى الشريعة ما ليس منها مثل أحاديث مفتراة ، أو تأول النصوص بخلاف مراد الله فهو نوع من التبديل . وكما قال ابن تيمية : الكتاب والعدل متلازمان ، وليس لأحد أن يحكم بين أحد من خلق الله الا بحكم الله ورسوله . سواء أكان الحكم فى شأن مدنى أو عسكرى (٣٦) ، ثم قال : ومتى ترك

(٣٤) مجموع فتاوى ابن تيمية جـ ٢٠ ص ٣٩١ — ٣٩٣ .
(٣٥) المرجع السابق جـ ٣٥ ص ٣٥٥ .
(٣٦) المرجع السابق جـ ٣٥ ص ٣٨٦ — ٤٠٨ .

العالم ما علمه من الكتـــاب والسنة واتبع حكم الحاكم المخالف لحكم الله ورسوله كان مرتدا (٣٧) •

* * *

قال الأستاذ الامام فى تفسير **« ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب »**(٣٨) انه مبين لقوله تعـــالى **« أوتوا الكتاب »** • وهو معنى **« لا يعلمون الكتاب الا أمانى »**(٣٩) •

فالنصيب عبارة عن تمسكهم بالألفاظ بتعظيمها ، وتعظيم ما تكتب فيه من ورق وجلد ، مع عدم العناية بالمعانى ، بفقهها والعمل بها •

ثم قال : ولك أن تقول : ان ما يحفظونه من الكتاب هو جزء من الكتاب الذى أوحاه الله اليهم • — أو قال الكتب — وقد فقدوا سائره وهم مع ذلك لا يقيمونه بحسن الفهم له والتزام العمل به •

ولا غرابة فى فقد بعض الكتاب • فالكتب الخمسة المنسوبة الى موسى عليه السلام التى يسمونها التوراة ، لا دليل على أنه هو الذى كتبها ولا هى محفوظة عنه ، بل قام الدليل — عند الباحثين من الأوروبيين — على أنها كتبت بعده بمئات من السنين — أراه قال خمسمائة سنة — •

وكذلك يقال فى سائر الكتب المنسوبة الى الأنبياء فى المجموع الذى يسمونه « الكتاب المقدس » •

أما قوله تعالى : **« ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون »**(٤٠) : فللتراخى الذى يفيده التعبير بكلمة **« ثم »** وجهان :

أحدهما : استبعاد توليهم ، لأنه خلاف الأصل الذى يكون عليه المؤمن • يعنى « الامام » أن توليهم خروج على الأصل •

ثانيهما : أنهم اذا دعوا ، الى حكم الكتاب يتولى ذلك الفريق بعد تردد وترو فى القبول وعدمه ، وكان من مقتضى الايمان ألا يتردد المؤمن

---

(٣٧) المرجع السابق ج ٣٥ ص ٣٧٢ — ٣٧٤ .
(٣٨) آل عمران : ٢٣ . (٣٩) البقرة : ٧٨ .
(٤٠) آل عمران : ٢٣ .

فى اجابة الدعوة الى حكم كتابه الذى هو أصل دينه ، يعنى الامام أنهم يفقدون الايمان الذى يدفع الى الاقدام على العمل بمقتضاه •

ثم قال : على أنهم لم يكتفوا بالتردد حتى تولوا بالفعل ، ولم يكن التولى عرضاً حدث لهم بعد أن كانوا مقبلين على الكتاب خاضعين لحكمه فى كل حال وآن ، بل هو وصف لهم لازم [٤١] ، بل اللازم لهم ما هو شر منه ، وهو الاعراض عن كتاب الله فى عامة أحوالهم •

« فجملة « **وهم معرضون** » ليست مؤكدة للتولى — كما قيل — بل هى مؤسسة لوصف الاعراض الذى هو أبلغ منه » • أى أقبح من مجرد « التولى » •

وانما قال سبحانه « **فريق منهم** » ، لأن هــذا الوصف ليس عاماً لكل فرد منهم بل كان منهم « **أمة يهــدون بالحق وبه يعدلون** »[٤٢] ، ومنهم الذين آمنوا بالنبى محمد ﷺ •

* * *

● **سبب نزول الآية :**

أخرج ابن أبى حاتم وابن المنزر عن عكرمة عن ابن عباس قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود فدعاهم الى الله فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال : على ملة ابراهيم ودينه • قالا : فان ابراهيم كان يهودياً • فقال لهما رسول الله ﷺ : فهلما الى التوراة فهى بيننا وبينكم • فأنزل الله « **ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون • ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودات ، وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون** »[٤٣] فكتاب الله الذى يدعون اليه هو التوراة على هذا الوجه الذى خرجه السيوطى فى لباب النقول وابن جرير فى تفسيره •

(٤١) أى وصف ملازم لوجود أسباب طبيعية فيهم تقتضيه .

(٤٢) الأعراف : ١٥٩ •

(٤٣) آل عمران : ٢٣ ، ٢٤ .

قال ابن جرير : وقيل بل ذلك الذى يدعون اليه هو القرآن ، وانما دعيت طائفة منهم الى رسول الله ﷺ ليحكم بينهم بالحق فأبته • روى ذلك عن قتادة وابن جريج ، ورجح الأول •

والمعنى على الرواية الأخيرة : ألم تر يامحمد الى هؤلاء الذين تعجب لعدم ايمانهم بك على وضوح ما جئت به • كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به اذا لم يوافق أهواءهم ؟

ووقائع الأحوال — فى عصر التنزيل تتفق مع كل من الروايتين :
فقد كانوا يتولون عن حكم التوراة اذا خالف أهواءهم كما يفعل أهل كل دين فى طور انحلال الدين وضعفه •

وكانوا ربما تحاكموا الى النبى ﷺ عازمين على قبول حكمه ، حتى اذا كان على غير ما أحبوا خالفوه : كما فعلوا يوم زنى بعض أشرافهم وحكموه فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم ، فتولوا وأعرضوا عن قبول حكمه ، لأنهم انما فزعوا اليه ليخفف عنهم •

وليس للمودودى ما يخالف أو يزيد فى تفسير الآية (٤٤) •

* * *

● **اقامة خليفة للمسلمين :**

قال أبو الأعلى : غاية الدين الحقيقية اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة (٤٥) ، وهو بهذا يلتقى مع الامام محمد عبده •

حين كان الامام فى بيروت عام ١٨٨١ قال : ان من ضلال الأمة أن تتهاون فى نصب امام للمسلمين يقيم حدود الله فيها ، ويجمعهم على شريعته •• وقال ما نصه :

ان المحافظة على الدولة العلية العثمانية — ثالثة العقائد — بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكافلة

---

(٤٤) تفهيم القرآن ٢٠٧/١ ، ٢٠٨ .
(٤٥) الأسس الأخلاقية ص ٢٢ .

لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان فى سواها ، وأنا على هذه العقيدة والحمد لله ، عليها نحيا وعليها نموت •

ثم يؤكد هذه الحقيقة فى حديث له مع السيد رشـــيد رضا بعد انتصار الترك فى حرب اليونان عام ١٨٩٧ قائلا :

ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها ، وان كان أكثرهم يحبها •

وأنا أيضاً أكره السلطان •• ولكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً ، فانها سياج فى الجملة ، واذا سقط نبقى نحن المسلمين كاليهود ، بل أقل من اليهود ، فان اليهود عندهم شىء يحافظون عليه ، ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم ، وهو المـــال ، ونحن لم يبق عندنا شىء ، فقدنا كل شىء(٤٦) •

* * *

● **معايير صلاحية الفرد للحكم :**

تحدث القرآن عن سر تفضيل طالوت على غيره من معاصريه فى تولى السلطة فقال **« قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المـــال ، قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء »**(٤٧) •

قال الامام(٤٨) : فسروا اصطفاء الله تعالى هنا بوحيه لذلك النبى أن يجعل طالوت ملكا عليهم • ولعله لو كان هـــذا هو المراد لقـــال : « اصطفاه لكم » ، كما قال **« اصطفى لكم الدين »**(*) •

والمتبادر عندى أن معناه • فضل الله طالوت واختاره عليكم بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك ، ولا ينافى هذا كون اختياره كان بوحى من الله ، لأن هذه الأمور هى بيان لأســـباب الاختيار ، وهى أربعـــة :

---

(٤٦) فتحى عبد العزيز : « الخمينى ... الحل الاسلامى البديل » .
(٤٧) البقرة : ٢٤٧ .
(٤٨) تفسير المنار ج ٢ ص ٣٧٨ وما بعدها .
(*) البقرة : ١٣٢ .

(١) الاستعداد الفطرى •

(٢) السعة فى العلم الذى يكون به التدبير •

(٣) بسطة الجسم المعبر بها عن صحته وكمال قواه المستلزم ذلك لصحة الفكر ، على قاعدة « العقل السليم فى الجسم السليم » ، وللشجاعة والقدرة على المدافعة ، وللهيبة والوقار •

(٤) توفيق الله تعالى بتسخير الأسباب له ، وهو ما يعبر عنه بقوله « **والله يؤتى ملكه من يشاء** » •

والاستعداد هو الركن الأول فى المرتبة فلذلك قدمه •

والعلم بحال الأمة ومواضع قوتها وضعفها ، وجودة الفكر فى تدبير شئونها هو الركن الثانى فى المرتبة ، فكم من عالم بحال زمانه غير مستعد للسلطة ، اتخذه من هو مستعد لها سراجاً يستضىء برأيه فى تأسيس مملكتـه أو سياستها ، ولم ينهض بـه رأيه فى أن يكون هو السـيد الزعيم فيها •

وكمال الجسم فى قواه وروائه هو الركن الثالث فى المرتبة ، وهو فى الناس أكثر من سابقيه •

وأما المـال فليس بركن من أركان تأسيس الملك ، لأن المزايا الثلاث اذا وجدت سهل على صاحبها الاتيان بالمـال • وانا لنعرف فى الناس من أسس دولته وهو فقير أمى ، ولكن استعداده ومعرفته بحال الأمة التى سادها ، وشجاعته ، كانت كافية للاستيلاء عليهـا ، والاستعانة بأهل العلم والادارة والشجعان على تمكين سلطته بها ، وقد قدم الأركان الثلاثة على الرابع ، لأنها تتعلق بمواهب الرجل الذى اختير ملكا فأنكر القوم اختياره ، فهى المقصودة بالجواب •

وأما توفيق الله تعالى بتسخير الأسباب التى لا عمل له فيها لسعيه فليس من مواهبه ومزاياه فتتقدم فى أسباب اختياره ، وانما تذكر تتمة للفائدة وبياناً للحقيقة ، ولذلك ذكرت قاعدة عامة لا وصفاً له •

ولله در الشاعر العربى حيث قال فى صـفات الجدير بالاختيار لزعامة الأمة وقيادتها :

فقلدوا أمـركم لله دركمــو ... رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعاً
لا مترفاً ان رخاء العيش ساعده ... ولا اذا عض مكروه به خشـعا

(ومنها) :

وليس يشـغله مال يثمـره ... عنـكم ، ولا ولد يبغى له الرفعا

* * *

● **صورة من التضليل للمسلمين :**

قال المفسرون : ان اليهود دعوا معاذاً وحذيفة وعماراً الى دينهم فأنزل الله « **ودت طائفـة من أهل الكتـاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم** »(٤٩) .

قال الامام : ولا شك أنهم كانوا أشد الناس حرصاً على اضلال المؤمنين ، سواء دعوا بعض الصحابة الى دينهم أو لا ، وليس الاضلال خاصاً بالدعوة ، بل كانوا يلقون ضروباً من الشك فى النفوس ليصدوها عن الاسلام ، من أغربها ما فى الآية : « **وقالت طائفة من أهل الكتـاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهـار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** »(٥٠) .

وكان النزاع بين الفريقين مستمرا ، وهو ما لابد منه فى وقت الدعوة وقـد قال تعالى فى بيـان حال هـذه الطائفة المضلة « **وما يضـلون الا أنفسهم** »(٥١) .

قال الامام : معناه أنهم يتوجهون الى الاضلال واشتغالهم به ، وينصرفون عن النظـر فى طرق الهـداية وما أوتيه النبى ﷺ من الآيات البينات الدالة على كونه نبياً هادياً ، فهم يعبثون بعقولهم ويفسدون فطرتهم (الشخصية) باختيارهم(٥٢) .

---

(٤٩) آل عمران : ٦٩ . (٥٠) آل عمران : ٧٢ .
(٥١) آل عمران : ٦٩ .
(٥٢) انظر تفسير ذلك فى المصطلحات الأربعة بين الامامين المودودى ومحمد عبده فى بيان حكم الردة — وتفهيم القرآن ١/٢٢٤ — ٢٢٥ .

● **تعقيب :**

وفى عصرنا الحديث وجدت وســائل للاضلال كثيرة عن أجهزة الاعلام ، صحافة واذاعة وتلفازاً وما يســمى بالفنون : رقصا ودعارة مغلفة بالفن والتمثيل ، وبالكتابة • والأندية الاجتماعية كالروتارى والمحافل الماسونية وجيوش التنصير التى تســمى « التبشير » والاستشراق • فهم يكذبون على الله والرسول بما يفترونه « **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون** »(٥٣) •• وهذا منهج المضلين فى كل العصور ضرره يقع عليهم فمن حفر لأخيه حفرة وقع فيها ، وبيان ذلك فى الآية التى بعدها « **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد** »(٥٤) • وهم حريصون على أن يجتذبوا الى دائرتهم المسلمين « **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** »(٥٥) وبلغة العصر : « التقارب بين الأديان » •

والتجربة التاريخية تقرر أنه لمـا صار بين المأمون وملوك المشركين مودة ، وقرب المتفلسفة ، حصل استيلاء للجهمية والرافضة ، وامتحنت الأمة وأئمتها كأحمد بن حنبل والبويطى من أصحاب الشافعى وغيرهما • وظهرت الخرمية من الفرق الشاذة ، وعرب من كتب الأوائل ما انتشرت بســببه مقالات الصابئين • فكلما ظهر شىء من الكفر والنفاق ظهرت البدع بين المســلمين •• ولهذا لمـا كانت البدع فى القرون الهجــرية الثلاثة الأولى مقموعة ، كانت الشريعة أعز وأظهر ، وكان القيام بجهاد أعداء الدين من الكافرين والمنافقين أعظم •• فلما قوى ما قوى من حال المشركين وأهل الكتاب ، كان من أثر ذلك تقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة وذلك بنوع رأى يحسبه صاحبه عقلا وعدلا ، وانما هو جهل وظلم ، اذ التسوية بين المؤمن والمنافق ، والمسلم والكافر أعظم الظلم ، وطلب الهدى عند أهل الضلال أعظم الجهل »(*) •

٭ ٭ ٭

---

(٥٣) النحل : ٢٥ .   (٥٤) النحل : ٢٦ .
(٥٥) النساء : ٨٩ .
(*) مجموع فتاوى ابن تيمية ج ٤ ص ٢٠ — ٢١ .

● **الاختلاف بسبب الشهوات :**

فى هذه الأيام نجد المسلمين وقد مزقهم الشيطان وصنفهم فرقا متحاربة وقد أوقع بينهم العداوة والبغضاء ، فهولاء شيعة وأولئك سنة ، ثم قسم الشيعة أقساما ، وأهل السنة أقساما سميت مذاهب ، وداخل كل مذهب عدة اتجاهات ، كل اتجاه يقذف الآخرين بالابتداع أو بالغفلة وباسم العمل للاسلام اليوم وجدت جماعات تلبس مسوح الدعوة الى العبادات أو الى السنة . وتسعة أعشار جهودها قائم فى طعن غيرهم من العاملين للاسلام ليشغلوهم عن الدعوة بالرد عليهم — حتى تستدير ظهورنا لأعداء الاسلام .. بمعركة داخلية يغتبط بها غير المسلمين ويفرح بها العلمانيون والطغاة . واذا استثنينا الذين أقحمهم الكفار والطواغيت المتسلطة على المسلمين — فان البقية تعوق مسيرة الاسلام وتعصى ربها وهى لا تدرى بسبب شهوة الشهرة بالعلم والتدين ، أو الرغبة فى سلطان روحى على الآخرين ..

وقد اعتبر الامام الافتتان بزينة الحياة الدنيا سبيلا لكفر نعمة ادراك هدى الله ، ففى الآيتين (٢١١ ، ٢١٢) من البقرة : **« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فان الله شديد العقاب . زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة »** .

يقول الامام (٥٦) : فى الآية **« زين للذين كفروا الحياة الدنيا » :**

هذا بيان معلل لما قبله من الوعيد لمن يبدل نعمة الله كفراً ، ولا سيما نعمة آيات الله تعالى فى هداية الله الى وحدة الأمة . فالكفر فيها هو كفر النعمة ، لا انكار وجود الله تعالى ، ولا الشرك به كما زعم الجلال وغيره .

---

(٥٦) تفسير المنار جـ ٢ ص ٢١٥ — ٢١٧ .

وسببه الافتتان بزينة الحياة الدنيا الزائلة وايثارها على حيـــاة الآخرة الباقيـــة •

والمقام مقام الأمر بالاتفاق فى الدين ، والأخذ بجميع أحكـــامه وشرائعه ، والنهى عن التفرق فيها ، والمسلمون هم المخاطبون بالوعيد على التفرق واتباع خطوات الشيطان • فبعد أن أمرنا الله تعالى ونهانا وتوعد من يزل عن سبيله منا — بعد ما جاءنا من البينات — ذكرنا بحال من سبقنا من أهل الكتاب الذين نزل بهم عذاب التفرق والخلاف فى الدنيا ولم يمنعه عنهم أنهم منتمون الى نبى مرسل وعندهم شريعـــة الهية ، ذلك أنهم لم يجتمعوا على الكتاب ، لاختلاف أئمتهم وأحبارهم فى التأويل والتأليف ، وكان كل فريق منهم يعتذر عن تركه العمل بالتوراة بأنه متبع لبعض الأحبار الذين هم أعلم منه بها •

بعد هذا كله يسأل سائل : كيف يختلف الناس فى دينهم ويتفرقون شيعاً بعد مجىء البينات المـــانعة من ذلك ؟

والجواب فى هذه الآية ، وملخصه : أن حب الدنيا والغرور بزينتها يصرفان جميع قوى النفس الى التفانى فى طلبها ، وبذلك تنصرف عن النظر الصحيح فى آيات الحق وبيناته •

أما الرؤساء فانهم ينصرفون الى حب الامتياز والشهرة والاستعلاء على الأقران ، ولا يكون ذلك الا بالخلاف وانتصار كل رئيس لمذهبـــه بالجدل والتأويل •

وأما المرءوسون فان كل فريق منهم ينتمى الى رئيس يعتز به وبقاده فى دينه ولا يستمع قولا لمخالفه ، ويربط كلا منهمـــا بالآخر الاشتراك فى المصالح الدنيوية • فحب الدنيا هو علة العلل ورأس كل خطيئـــــة •

وما ذكرناه هنا قاض بأن يختص « الذين كفروا » فى الآية بمن جاءتهم بينات تجمع كلمتهم ، ففصموا بالخلاف عروتها ، ومزقوا بالتفرق نسيج وحدتها ، وذلك كفر بهذه النعمة وتبديل لها بالنقمة •

ويدلك على أن الكلام لا يزال فى مسألة الخلاف والوفاق فى الدين الآية التالية لهذه ، فانها مبينة لأصل الخلاف فى الدين منذ بعث الله النبيين « **كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه** »(٥٧) .

وجملة « **زين للذين كفروا الحيـــاة الدنيـــا** » : **فى معنى قوله تعـــالى** : « **انا جعلنـــا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** »(٥٨) ابتلاهم فغرت أقواما زينتها : فانصرفت همتهم الى الاستمتاع باذاتها ، وانحصرت أفكارهم فى استنباط الوسائل لشهواتها ، ومسابقة طلاب المـــال والجاه عند أربابهـــا ، والحق ينعى عليهم اسرافهم فى أمرهم ، ويطالبهم بحقوق عليهم لغيرهم .

والتطلع والدعوة الى الحيـــاة الأخرى تزعزع من ســـكونهم الى لهوهم ، وتغض شيئاً من تعاليمهم فى زهوهم ، وتقف بهم دون شأوهم . ومن لم يطلب الحق من طريقه باخلاص وانصاف ، لا يجده ولا يتفق مع أهله ، وأنى للمفتونين بالزينة الاخلاص والانصاف ؟ !

● **تعقيب :**

وقال ابن تيمية : تجد أكثر الناس يجزمون بما لا يجزم به ، وذلك لنوع من الهوى ، كما قال تعالى : « **وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم** »(٥٩) وقال : « **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** »(٦٠) . ولهذا تجد اليهود يصممون على باطلهم ، لمـــا فى نفوسهم من الكبر والحسد والقسوة وغير ذلك من الأهواء ، وأما النصارى فأعظم ضلالا منهم ، وان كانوا — فى العادة والأخلاق أقل منهم شراً — فليسوا جازمين بغالب ضلالهم ، بل عند الاعتبار تجد من ترك الهوى من الطائفتين ونظر — نوع نظر — تبين له الاسلام حقا (٦١) .

(٥٧) البقرة : ٢١٣ . (٥٨) الكهف : ٧ .
(٥٩) الأنعام : ١١٩ . (٦٠) القصص : ٥٠ .
(٦١) مجموع الفتاوى ج ٤ ص ٣٠ .

وليضمن الباحثون فى الاسلام طريق الصواب عليهم أن يتسلحوا بذكر الله حتى يخلصوا من الهوى وأن يحسنوا النظر بقواعد الفكر والمنطق وأصوله ، معتبرين الكتاب والسنة أصل كل هدى .

* * *

● **الأخذ ببعض النصوص :**

قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين . فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** »(٦٢) .

السلم : المسالمة والانقياد والتسليم ، فيطلق على الصلح والسلام ، كما يطلق على دين الاسلام . والى هذا الأخير اتجه الامامان فى تفسيره .

وقالا فى تفسير « **كافة** » انه حال من السلم . أى فى جميع شرائعه . قال السيد رشيد رضا : وهاك ما كتبته بعد حضور تفسير شيخنا للآية :

الآية تفيد أخذ الاسلام بجملته لا أن يأخذ كل واحد بكلمة أو سنة ويجعلها حجة على الآخر ، وان أدت الى ترك ما يخالفها من النصوص والسنن . وحملها على النسخ أو المسخ بالتأويل ، أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل .

والسبب فى بقاء المغلب لسلطان الخلاف والنزاع : فشو الجهل ، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التى اليها ينتسبون ، وبجاهها يعيشون ويكرمون ، وتأييد الأمراء والسلاطين لهم استعانة بهم على اخضاع العامة ، وقطع طريق الاستقلال العقلى والنفسى على الأمة ، لأن هذا أعون لهم على الاستبداد ، وأشد تمكيناً لهم مما يهوون من الفساد والافساد ، اذ اتفاق كلمة علماء الأمة واجتماعها على أن الحق كذا بدليل

---

(٦٢) البقرة : ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

كذا ، ملزم للحاكم باتباعهم فيه ، لأن الخواص اذا اتحدوا تبعهم العوام وهذه هى الوسيلة الفريدة لابطال استبداد الحكام .

وهذا التفسير مؤيد بالنص على الذين « **جعلوا القرآن عضين** »[٦٣] ، والانكار على الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، أى يعملون ببعضه على أنه دين ، ويتركون بعضاً بتأويل أو غير تأويل ، كشأن من لم يصدق بأنه من الله .

فوجوب أخذ القرآن والدين بجملته ، وفهم هدايته من مجموع ما ثبت عمن جاء به ﷺ أمر مقرر فى ذاته ، سواء فسرت به الآية أو لا ، لأن الآيتين اللتين أشرنا اليهما آنفاً فى جعل القرآن عضين ، وفى الايمان ببعضه والكفر ببعض ، وما فى معناهما من النصوص تثبته .

والوجه الثانى فى تفسير «السلم» — وهو المسالمة والوفاق — يتوقف على الوجه الأول ، أى أخذ الدين بجملته . لأنه أمر برفع الشقاق والتنازع ، وبالاعتصام بحبل الوحدة ، ولا يرتفع الشىء الا برفع أسبابه ولا يستقر الا بتحقق وسائله .

وقال الأستاذ الامام : هذه الآيات حجة لعلماء الأصول القائلين بأن الحق واحد لا يتعدد ، وياليت أصحاب هذا الأصل فرضوا على أنفسهم الاجتماع لكل خلاف يعرض لهم ، والبحث عن وجه الحق فيه بلا تعصب ولا مراء ، حتى اذا ما ظهر أجمعوا عليه ، واذا هو لم يظهر لبعضهم ثابر على تطلابه باخلاص لا يعادى فيه أحداً ، ولا يجعله ذريعة لتفريق الكلمة .

طريق الحق هو الوحدة والاسلام ، وطريق الشيطان هى مثارات التفرق والخصام يزينها الشيطان .

فقد كانت يهود أمة واحدة مجتمعة على كتاب واحد ، هو صراط الله فسول لهم الشيطان فتفرقوا وجعلوا لهم مذاهب وطرقاً . وأضافوا الى الكتاب ما أضافوا وحرفوا من كلمه ما حرفوا . واتبعوا السبل فتفرقت بهم عن سبيل الله حتى حل بهم الهلاك ومزقوا كل ممزق ، وكذلك

---

(٦٣) الحجر : ٩١ .

فعل غيرهم • كأنهم رأوا دينهم ناقصاً فكملوه ، وقليلا فكثروه ، وواحداً فعددوه • وسهلا فصعبوه ، فثقل عليهم بذلك فوضعوه — أى تركوه — ، فذهب الله بوحدتهم حتى لم تغن عنهم كثرتهم ، وسلط عليهم الأعداء ، وأنزل بهم البلاء **« سنة الله التى قد خلت فى عباده »**(٦٤) •

● **تعقيب :**

أقول و **« من أضل ممن هو فى شقاق بعيد »**(٦٥) **« ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، ان الله لا يهدى القوم الظالمين »**(٦٦) •

* * *

ثم قال فى بيان تهديد الله للمختلفين بقوله : **« فان زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم »**(٦٧) : « انه ذكر من صفاته ما هو دليل العقاب ، وهو ما لا مطمع فى زواله ، فالآية مبينة أن العقوبات على ترك تعاليم الله من آثار صفاته القديمة التى لا يلحقها تغيير ، ولا تؤثر فيها الحوادث بتبديل ولا تحريف » •

● **تعقيب :**

أقول : ويؤكد القرآن ضلال الذين يزلون بعد ما جاءهم الهدى والبينات وأن عقابه سيحل بهم فى كثير من الآيات ، فهو حينا يصور الذين لا يعملون بما علموه بأنهم حيوانات من مستوى هابط **« ان هم الا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »**(٦٨) و **« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً »**(٦٩) **« أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »**(٧٠) •

* * *

● **أخذ التاريخ عن بنى اسرائيل وأمثالهم :**

ان هذا وما نسميه الاسرائيليات من عوامل تفرقة الأمة فكرياً وقد قال الأستاذ الامام عند ذكر طالوت فى سورة البقرة : « هو الذى

---

(٦٤) غافر : ٨٥ •
(٦٥) فصلت : ٥٢ •
(٦٦) القصص : ٥٠ •
(٦٧) البقرة : ٢٠٩ •
(٦٨) الفرقان : ٤٤ •
(٦٩) الجمعة : ٥ •
(٧٠) الأعراف : ١٧٩ •

يسمونه « شاول » ، وقد سماه الله طالوت ، فهو طالوت ، أى أننـــا لا نعبأ بما فى كتبهم •

ويظن كثير من الناس — الآن — كما ظن كثير ممن قبلهم — أن القصص التى جاءت فى القرآن يجب أن تتفق مع ما جاء فى كتب بنى اسرائيل المعروفة عند النصارى بالعهد العتيق أو كتب التاريخ القديمة وليس القرآن تاريخاً ولا قصصاً • وانما هو هداية وموعظة ، فلا يذكر قصة لبيان تاريخ حدوثها ، ولا لأجل التفكه بها أو الاحاطة بتفصيلها وانما يذكر ما يذكره لأجل العبرة وبيان سنن الاجتماع ، فيكتفى من القصة بموضوع العبرة ومحل الفائدة ، ولا يأتى بجزئياتها التى ربما تشغل عن العبرة •

* * *

● **اقتداء الغرب بالقرآن فى منهجه التاريخى :**

وقد اهتدى بعض المؤرخين الراقين فى هذه الأزمنة الى الاقتداء بهذا ، فصار أهل المنزلة العالية منهم يذكرون من وقائع التـــاريخ ما يستنبطون منه الأحكام الاجتماعية ، وهو الأمور الكلية ، ولا يحفلون بالجزئيات ، لمـــا يقع فيها من الخلاف الذى يذهب بالثقة ، ولمـــا فى قراءتها من الاسراف فى الزمن ، والاضاعة للعمر بغير فائدة توازيه •

وبهذه الطريقة يمكن ايداع ما عرف من تاريخ العالم فى مجلد واحد يوثق به ، ويستفاد منه •

ان محاولة جعلّ قصص القرآن ككتب التاريخ بادخال ما يروون فيها على أنه بيان لها هى مخالفة لسنته • وصرف للقلوب عن موعظته ، واضاعة لمقصده وحكمته ، فالواجب أن نفهم ما فيه ، ونعمل أفكارنا فى استخراج العبر منه ، ونزع نفوسنا عما ذمه وقبحه ، ونحملها على التحلى بما استحسنه ومدحه •

واذا ورد فى كتب أهل الملل أو المؤرخين ما يخالف بعض هـــذه القصص ، فعلينا أن نجزم بأن ما أوحاه الله الى نبيه ، ونقل الينـــا

بالتواتر الصحيح هو الحق ، وخبره هو الصادق ، وما خالفه هو الباطل وناقله مخطىء أو كاذب ، فلا نعده شبهة على القرآن ، ولا نكلف أنفسنا الجواب عنه ، فان حال التاريخ قبل الاسلام كانت مشتبهة الأعلام ، حالكة الظلام ، فلا رواية يوثق بها للمعرفة التامة بسيرة رجال سندها ، ولا تواتر يعتد به بالأولى ، وانما انتقل العالم بعد نزول القرآن من حال الى حال ، فكـانت بداية تاريخ جـديد للبشر ، كـان يجب عليهم — لو أنصفوا — أن يؤرخوا به أجمعين » •

وأبو الأعلى — بالرغم من تسليمه بما قاله الامام محمد عبده — فانه كثيراً ما ينقل من كتب أهل الكتاب ، مع النقد له •

* * *

مجاراة أهل الباطل

قال تعالى : « **واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** »(٧١) « **واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** »(٧٢) ٠

هكذا ذم الله الذين يلغون عقولهم ويجمدون على ما كان عليـــه الضالون قبلهم ٠٠ هؤلاء الذين ارتضوا أن يكونوا أذنابا فى الفكـــر والعقيدة والسلوك : يحدثنا الامام محمد عبده عنهم فيقول :

من شر ما يمزق الأمة أن تسود فيها البدعة فيسكت عن محاربتهـــا العلماء وذوو الجاه ، فتتكاثر كما لو كانت حقا حتى تبدو كأنها الدين الحق ٠

وفى حديث القرآن عن تغيير القبلة « **ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك** »(٧٣) ثم يقول : « **ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم انك اذن لمن الظالمين** »(٧٤) ٠

ويعلق الامام على هذا قائلا :

« هذا الخطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاما عند الله تعالى هو أشد وعيد لغيره ممن يتبع الهوى ويحاول استرضاء الناس بمجاراتهم على ما هم عليه من الباطل ، فانه أفرده الله تعالى بالخطاب مع أن المراد به أمته ، اذ يستحيل أن يتبع هو أهواءهم ٠ أو أن يجاريهم على شىء نهاه الله عنه ، ليتنبه الغافل ويعلم المؤمنون أن اتباع أهواء الناس ـ ولو لغرض صحيح ـ هو من الظلم العظيم الذى يقطع طريق الحق ، ويردى الناس فى مهاوى الباطل ، كأنه يقول : ان هذا ذنب عظيم

(٧١) البقرة : ١٧٠ .
(٧٢) المـائدة : ١٠٤ .
(٧٣) البقرة : ١٤٥ .
(٧٤) البقرة : ١٤٥ .

لايتسامح فيه مع أحد ، حتى لو فرض وقوعه من أكرم الناس على الله تعالى تسجل عليه الظلم ، وجعله من أهله الذين صار وصفاً لازماً لهم **« وما للظالمين من أنصار »**(٧٥) — فكيف حال من ليس له ما يقارب مكانته عند ربه (٧٦) ؟ .

نقرأ هذا التشديد ولا نزدجر عن اتباع أهواء الناس ومجاراتهم على بدعهم وضلالاتهم ، حتى انك ترى الذين يشكون من هذه البدع والأهواء ويعترفون ببعدها عن الدين يجارون أهلها عليها ، ويمازجونهم فيها ، واذا قيل لهم فى ذلك قالوا : ماذا نعمل ؟ « ما فى اليد حيلة » — « آخر زمان .. » وأمثال هذه الكلمات هى جيوش الباطل تؤيده وتمكنه فى الأرض حتى يحل بأهله البلاء ويكونوا من الهالكين .

ويعقب رشيد رضا قائلا : فلا يكبرن عليك أن تحكم على كل من يسمون أنفسهم أو يسميهم الحكام « كبار العلماء » بأنهم من الظالمين ، اذا اتبعوا أهواء العامة أو شهوات الأمراء والسلاطين (٧٧) .

● **تعقيبات :**

أقول : ان القرآن ليعرض الى تكوين الشخصية المستقلة غير الضالة الضائعة التى تجرى تبعا لأهواء الآخرين من أهل الباطل ، فيقول الله لنبيه معلما أمته كيف يتحدون الباطل ، ولا ينصاعون له ولو اتخذ صفة الجماهيرية ، **« قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت اذن وما أنا من المهتدين »**(٧٨) **« وما كنت متخذ المضلين عضداً »**(٧٩) وكما قال الرسول ﷺ : « نحن لا ننتصر بمشرك على مشرك » .

وينعى القرآن على قوم آخرين حياة التبعية للضالين من الكفار والفساق بنهى صريح اذ يقول سبحانه : **« ولا تتبعوا أهواء قوم قد**

---

(٧٥) البقرة : ٢٧٠ .

(٧٦) انظر فصل « الأنداد » من كتابنا « المصطلحات الأربعة بين الامامين المودودى ومحمد عبده » .

(٧٧) المنار جـ ٢ ص ١٧ ط . التراث للجميع .

(٧٨) الأنعام : ٥٦ .

(٧٩) الكهف : ٥١ .

ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل »[٨٠] **« قال يا هارون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا • الا تتبعن ، أفعصيت أمرى »**[٨١] •

ويبين أن نهاية قيادة الضالين لمن يتبعونهم لا تثمر الا ضلالا وندامة ، **« وأضل فرعون قومه وما هدى »**[٨٢] **« وما أضلنا الا المجرمون »**[٨٣] •

ويبين أن الضالين يروجون الى ضلالتهم ، ويهتمون بالاعلان عنها وتزيينها لغيرهم ، كما نراه واضحا فى الشيوعيين ودور الملاهى •• وكل أسباب ودعاة المذاهب الهدامة ، والنظم الاستبدادية التى لم يكن لقيامها أصل الا شهوة التسلط ، فهم منحرفون ، ويريدون أن ينحرف الناس معهم لكيلا يظهروا وحدهم بالمظهر الشائه الشائن ، كما قال الله سبحانه فيهم : **« يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل • والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً »**[٨٤] **« ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون »**[٨٥]

بل ان أمل الضالين فى اضلال الآخرين ليخايلهم حتى انهم ليطمعون فى اضلال الأتقياء والأنبياء •

« ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم ، وما يضرونك من شىء »[٨٦] •

ان حركة اضلال السذج والمهتدين ، حركة قوية تناهض الحركة الاسلامية وحركات الاصلاح جميعا ، وبين كل الطبقات والطوائف ، وهى حركة طبعية ، اذ أنها عمل الشيطان ، ووظيفته ، وتحقيق وعــده وقســمه **« قال فبعــزتك لأغوينهم أجمعــين • الا عبــادك منهم المخلصين »**[٨٧] فلا غرابة اذن فى أن يكون الضالون كثرة تمتحن رجولة المؤمن ، وصدق ايمان المؤمنة بمواجهتهم : **« وان تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، ان يتبعون الا الظن وان هم الا يخرصون »**[٨٨]

---

(٨٠) المــائدة : ٧٧ .
(٨١) طه : ٩٢ ، ٩٣ .
(٨٢) طه : ٧٩ .
(٨٣) الشعراء : ٩٩ .
(٨٤) النساء : ٤٤ ، ٤٥ .
(٨٥) آل عمران : ٦٩ .
(٨٦) النساء : ١١٣ •
(٨٧) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣
(٨٨) الأنعام : ١١٦ .

فهذه الكثرة لا تعدو أن تكون تجمعا غير قائم على علم ويقين وحق ، بل على أوهام وتخمين ، فهو باطل زاهق يجب أن يزول ... وهو حتما زاهق كما قال سبحانه : **« ان الباطل كان زهوقا »**(٨٩) .. وكما قال الامام حسن البنا : دولة الباطل ساعة ، والحق الى قيام الساعة .

وان الله ليربط هؤلاء الذين يضلون الناس ومسلكهم المعوج بحب الشهوات وتأليهها ، وتلك طبيعة مجتمعات الفكر المادية والاعوجاج ، ومقاومة الهدى والرشاد : **« وويل للكافرين من عذاب شديد . الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد »**(٩٠) .

وهكذا الظلم ، انما هو شهوة استعلاء تنتاب فرداً طاغية ، أو أمة متغطرسة ، لا يكون ذلك منها الا عند فقد الايمان فى قلوب أفرادها ، فلو كان عندهم يقين ما بغوا فى الأرض ، ولا ظلموا العباد ...

ولهذا كان الظلم مصاحبا للكفر بالله والآخرة .. فان الله فى جدله للكفار يقول : **« هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين »**(٩١) فهم مع الحجة القرآنية الواضحة ، ومع أنهم موقنون بأنه لا يوجد أحد يخلق مثل خلق الله ، فانهم يظلون على كفرهم وضلالهم المبين لهم ، لأنهم لا يحترمون منطق الحق وبرهانه ، ولا يستجيبون الا لمنطق شهوة الاستعلاء والبغى ، ولهذا كان ختام الآية **« بل الظالمون فى ضلال مبين »** .

بل ان القرآن ليذكر الانصراف عن الآيات والبراهين الدالة على الحق ، ويعتبر ضلالهم هذا عقوبة للمتكبرين وأهل الغى والأهواء الذين سكروا بأهوائهم فكانوا من الغافلين عن الحقائق المضيئة من حولهم ، فيقول الله سبحانه : **« سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد**

---

(٨٩) الاسراء : ٨١ .
(٩٠) ابراهيم : ٢ ، ٣ .
(٩١) لقمان : ١١ .

لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين »(٩٢) ٠

ويؤكد أن الضلال عقوبة ، والطاعة نعمة ، قول سيدنا موسى عليه السلام بشأن فرعون وجنوده : « ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينــة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم »(٩٣) « وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ٠ انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا »(٩٤) ٠

* * *

● **مصير التبعية :**

يحذرنا الاسلام شر التبعية لغير دينه ، ويعرض علينــا صورة مستقبل الذين ينتهجون فى عقيدتهم وسلوكهم اتجاها تبعيا تقليديا ، فالتبعية تفقد الفرد شخصيته ، والأمة هويتها ، وتنتهى بالمتبع للضالين الى أسوأ مصير : « قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النــار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ٠ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العــذاب بما كنتم تكســبون »(٩٥) « وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ، قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص »(٩٦) ثم يذكر الله تبرأ الشيطان منهم ومن شركهم به فيقول : « وقال الشيطان لمــا قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ،

---

(٩٢) الأعراف : ١٤٦ ٠
(٩٣) يونس : ٨٨ ٠
(٩٤) نوح : ٢٦ ، ٢٧ ٠
(٩٥) الأعراف : ٣٨ ، ٣٩ ٠
(٩٦) ابراهيم : ٢١ ٠

ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، انى كفرت بما أشركتموني من قبل »(٩٧) .

ويذكر موقف الكفار الغاضب ممن أضلوهم ووسيلة اضلالهم « **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »**(٩٨) ثم يبين ندم الذين استجابوا لهم « **وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والانس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين »**(٩٩) .. ويبين قيمة الصداقة التى بين الضالين يوم القيامة فيقول « **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين »**(١٠٠) .

ان التبعية دون وعى تقود حتما الى الهلاك والجحيم : « **ثم ان مرجعهم لالى الجحيم . انهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين »**(١٠١) .

ويحدثنا الحق سبحانه عن خيبة الكفار والمحاربين لهدى السماء فى النهاية ، مهما سايرتهم رياح النصر بعض الوقت : « **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم »**(١٠٢) بينما يصلح شأن المؤمنين « **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم »**(١٠٣) ثم يبين لماذا يفشل الباطل وينتصر الحق ويصلح الله حال أهله فيقول : « **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم »**(١٠٤) .

ثم يؤكد هذه الحقيقة مرة ثانية فيقول عن ارتباط الخيبة بالكفر ، والنصر بالايمان : « **يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم »**(١٠٥) .

---

(٩٧) ابراهيم : ٢٢ .
(٩٨) فصلت : ٢٦ .
(٩٩) فصلت : ٢٩ .
(١٠٠) الزخرف : ٦٧ .
(١٠١) الصافات : ٦٨ — ٧١ .
(١٠٢) محمد : ١ .
(١٠٣) محمد : ٢ .
(١٠٤) محمد : ٣ .
(١٠٥) محمد : ٧ — ٩ .

● **التبعية لتوقى شر الأمراء :**

سألنى سائل : ألا ترى أن من حسن السياسة والكياسة أن ننضم الى الحزب الحاكم ، لنتقى شره ، وربما كسبنا خيره ؟ فتذكرت قول ابن الجوزى رحمه الله :

العجب ممن له مسكة من عقل ، أو عنده قليل من دين ، كيف يؤثر مخالطتهم ، أو العمل معهم ، فانه بالمخالطة لهم أو العمل معهم يكون — قطعا — خائفا من عزل ، أو قتل ، أو سم ، ولا يمكنه أن يعمل الا بمقتضى أوامرهم ، فان أمروا بما لا يجوز لم يقدر أن يراجع ، فيكون قد باع دينه قطعا بدنياه ، ومنعه الخوف من القيام بأمر الله ، فضاعت عليه آخرته ، ولم يبق بيده الا عاجل التعظيم ، وأن يقال بين يديه « بسم الله » وأن ينفذ أوامره ، وذلك بعيد من السلامة فى باب الدين ، وما يلتذ به منه فى الدنيا ممزوج بخوف العزل والقتل »(١٠٦) .

* * *

● **عقوبة المضلين :**

ومن عدل الله أنه جعل الثواب مضاعفا من الحسنات لمن دعوا الى الخير ، ومضاعفا من العقاب **لمن دعوا الى المعصية** ، وفى الحديث . « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة » وفى الحديث أيضا : « من دعا الى خير فله مثل أجر فاعله » — وتناول القرآن بالذكر من يضلون الناس ويصرفونهم عن القرآن عقيدة ومنهج حياة : **« واذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين . ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون »**(١٠٧) . **« وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء ، وانهم لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم ، وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون »**(١٠٨) .

* * *

(١٠٦) صيد الخاطر ص ٤٥٣ .
(١٠٧) النحل : ٢٤ ، ٢٥ .
(١٠٨) العنكبوت : ١٢ ، ١٣ .

موالاة الكفار ومعاملتهم

قال تعالى : « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن يتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، والى الله المصير** »(١٠٩) .

قال الامام : بعد أن نزلت الآية : « **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء** »(١١٠) الخ ... وهى تنبه النبى والمؤمنين الى الالتجاء اليه سبحانه ، معترفين أن بيده الملك والعز ومجامع الخير ، والسلطان المطلق فى تصريف الكون ، يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، جاءت الآية « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** » ، لتبين أنه اذا كانت العزة والقوة له — عز شأنه — فمن الجهل والغرور أن يعتز بغيره من دونه ، وأن يلتجأ الى غير جنابه ، أو يذل المؤمن فى غير بابه .

وقد نطقت السير بأن بعض الذين كانوا يدخلون فى الاسلام كان يقع منهم — قبل الاطمئنان بالايمان — اغترار بعزة الكافرين وقوة شوكتهم ، فيوالونهم ويركنون اليهم ، وهذا أمر طبيعى فى البشر .

وقد ذكروا فى سبب نزول الآية : أنها نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول — زعيم المنافقين — . وقيل نزلت فى جماعة من الصحابة كانوا يوالون بعض اليهود .

ومهما يكن من سبب فى نزولها فانا نعلم أن من طبيعة الاجتماع فى كل دعوة أن يوجد فى المستجيبين لها القوى والضعيف . على أن مظاهر القوة والعزة تغر بعض الصادقين ، وتؤثر فى نفوس بعض المخلصين ، فما بالك بغيرهم ! ولذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الأولياء من الكافرين .

---

(١٠٩) آل عمران : ٢٨ .

(١١٠) آل عمران : ٢٦ .

قال الامام : وفى اللغة : **الأولياء** : الأنصار .

والاتخاذ : **يفيد معنى الاصطناع** . وهو عبـــارة عن مكاشفتهم بالأسرار الخاصة **بمصلحة الدين** .

وقوله : **« من دون المؤمنين »** : قيد فى الاتخـــاذ . أى لا يتخـــذ المؤمنون الكافرين أولياء وأنصاراً فى شىء تقدم فيه مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، أى كما فعل حاطب بن أبى بلتعة — رضى الله عنه — لأن فى هذا اختياراً لهم وتفضيلا على المؤمنين ، بل فيه اعانة للكفر على الايمان ، ولو بطريق اللزوم ، ومن شأن هذا ألا يصـــدر من مؤمن ، ولو كان فيه مصلحة خاصة له ، لذلك هم عمر — رضى الله عنه — بقتل حاطب ، وسماه منافقا ، لولا أن نهاه ﷺ عن ذلك ، وذكره بأنه من أهل بـــدر .

وقد ورد بمعنى هذه الآية آيات أخرى . قال تعالى : **« لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخـــر يوادون من حاد الله ورســـوله ولو كانوا آباءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم »**(١١١) .

فالموادة مشاركة فى الأعمال ، فان كانت فى شأن من شئون المؤمنين من حيث هم مؤمنون ، وشأن من شئون الكافرين من حيث هم كافرون ، فالممنوع منها ما يكون فيه خذلان لدينك ، وايذاء لأهله ، أو اضاعة لمصالحهم ، وأما ما عدا ذلك كالتجارة وغيرها من ضروب المعـــاملات الدنيوية فلا تدخل فى ذلك النفى ، لأنها ليست معاملة فى محادة الله ورسوله . أى فى معاداتهما ومقاومة دينهما .

أقول : الا فى حال المحاربة فالمقاطعة واجبة . اذ فى تبادل السلع معهم ما يزيد ثروتهم وقوتهم .

« ومن يفعل ذلك » أى من يتخذ الكافرين أولياء وأنصاراً من دون المؤمنين فيما يخالف مصلحتهم من حيث هم مؤمنون **« فليس من الله**

---

(١١١) المجادلة : ٢٢ .

فى شىء » أى فليس من ولايـــة الله فى شىء • قاله البيضـــــاوى وغــــيره •

وولاية الله : من العبد طاعته ونصر دينــه ، ومن الله مثوبتــه ورضوانه •

وقال الأستاذ الامام : معنى العبارة « **فليس من الله فى شىء** » أنه يكون بينه وبين الله غاية البعد • أى تنقطع صلة الايمان بينه وبين الله تعـــالى • أى فيكـــون من الكـــافرين كمـــا قال فى آية أخـــرى : « **ومن يتولهم منكم فانه منهم** »[١١٢] •

أو معناه : فيكون عدوا لله •

● **تعقيب :**

ومن هنا يتضح أن من الضلالة الادعاء بأن كسب القوت من العمل فى مجتمع جاهلى • أو كافر • أو فاسق لمجرد كفره — أو فسقه — حرام ، بل هو مباح ما دام هذا لا يكون مفوتاً لمصالح المسلمين •

* * *

---

(١١٢) المـــائدة : ٥١ •

وفى قوله تعـالى : « **الا أن تتقوا منهم تقاة** » : استثنـاء من أعم الأحوال « **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء** »(١١٣) أى ان ترك موالاة الكافرين على المؤمنين حتم فى كل حال الا فى حال الخوف من شيء تتقونه منهم • فلكم حينئذ أن توالوهم بقدر ما يتقى به ذلك الشيء ، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح •

وهذه الموالاة تكون صورية ، لأنها للمؤمنين ، لا عليهم •

والظاهر أن الاستثناء منقطع — أى أن المستثنى الذى بعد كلمة « الا » ليس من جنس المستثنى منه — الذى قبل أداة الاستثناء •

فيكون المعنى حينئذ : ليس لكم أن توالوهم على المؤمنين ، ولكن لكم أن تتقوا ضررهم بموالاتهم •

ولم يخرج الامام المودودى عن هذا المضمون (١١٤) •

واذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر ، فجوازها لأجل منفعة المسلمين يكون أولى ، وعلى هذا يجوز لحكام المسلمين أن يحالفوا الدول غير المسلمة لأجل فائدة المؤمنين بدفع الضر أو جلب المنفعة ، وليس لهم أن يوالوهم فى شيء يضر بالمسلمين وان لم يكونوا من رعيتهم •• **أقول** : « ولحكام المسلمين شروط معروفة منها الورع والعدالة وبيعة أهل الحل والعقد ، والفهم المتكامل للاسلام ، والا لم يكن تصرفه عن المسلمين مشروعا واجب النفاذ على رعية تتسلط عليها » •

وهذه الموالاة لا تختص بوقت الضعف ، بل هى جائزة فى كل وقت ، اذ أنهـا تدور مع دفع الضرر أو جلب المنفعـة ، والا فانه : « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** »(١١٥) •

---

(١١٣) آل عمران : ٢٨ . (١١٤) تفهيم القرآن : ١/٢٠٩ .
(١١٥) النساء : ١٤١ .

وينقل عن الخوارج أنهم منعوا التقية فى الدين مطلقاً ، لأن الدين لا يقدم عليه شىء •

ويرد عليهم بقوله تعالى : « **من كفر بالله من بعد ايمانه الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله** »(١١٦) •

وينقل عن الشيعة أن التقية عندهم أصل من أصول الدين جرى عليه أئمتهم •

وأما المداراة فيما لا يهدم حقاً ولا يبنى باطلا فهى كياسة مستحبة يقتضيها أدب المجالسة ما لم تنته الى حد النفاق ، ويستقبح فيها الدهان والاختلاق •

وتكون مؤكدة فى خطاب السفهاء ، تصونا من سفههم ، واتقاء لفحشهم •

وفى حديث أبى الدرداء : « انا لنكشر فى وجوه قوم وان قلوبنا لتلعنهم » • والكشر هو التبسم ، ولا يجهل أحد أن الانة القول أو التبسم هما من أدب المجلس : ينبغى بذلهما لكل جليس ، ولا يعدان من النفاق ، ولا ينافيان أمر الله لنبيه بالاغلاظ على الكافرين ، لأنه ورد فى مقام الجهاد لدفع ايذاء الكفار والمنافقين • وحماية الدعوة وبيان حقيقتها • وقد كان ﷺ أحسن الناس أدباً فى مجلسه وحديثه •

* * *

---

(١١٦) النحل : ١٠٦ •

التوسل بالأنبياء والأولياء

جاء خطاب الى الامام يقول فيه مرسله : سألنى جمع من الناس عن حقيقة ما يعتقدونه بألسنتهم من التوسل بجاه النبى ﷺ ، والتوسل بأوليائه ، معتقدين أن النبى أو الولى يستميل ارادة الله تعالى عما هى عليه ، كما هو المعروف للناس من معنى الشفاعة والجاه عند الحكام • وأن التوسل بهم الى الله تعالى كالتوسل بأكابر الناس الى الحكام •

فقلت : ان قياس التوسل الى الله تعالى على التوسل بالحكام محال • وأن النبى ﷺ وان كان أعظم الناس وأقربهم الى الله فليس له من الأمر شىء ، وانما هو مبلغ عن الله تعالى ، ولا يتوسل اليه تعالى الا بالعمل بما جاء على لسانه ﷺ ، واتباع ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون من هديه وسنته • وهذا هو اعتقادى فان كنتم ترون فيه خطأ فأرجو بيانه •

وأجاب الامام بما يتفق مع الأستاذ المودودى قائلا بعد البسملة والحوقلة (١١٧) :

« اعتقادك هذا هو الاعتقاد الصحيح : ولا يشوبه شوب من الخطأ ، وهو ما يجب على كل مسلم يؤمن بما جاء به محمد ﷺ أن يعتقده ، فان الأساس الذى يثبت عليه رسالة النبى محمد ﷺ هو هذا المعنى من التوحيد كما قاله الله له «قل هو الله أحد • الله الصمد»(١١٨) • والصمد هو الذى يقصد فى الحاجات ، ويتوجه اليه المربوبون فى معونتهم على ما يطلبون • وامدادهم بالقوة فيما تضعف عنه قواهم •

والاتيان بالخبر على هذه الصورة يفيد الحصر • كما هو معروف عند أهل اللغة(١١٩) ، فلا صمد الا هو • وقد أرشدنا الى وجوب القصد اليه

---

(١١٧) الحوقلة : قوله : لا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

(١١٨) الاخلاص : ١ ، ٢ .

(١١٩) أى جملة مكونة من مبتدأ وخبر ، ومعرفة الطرفين : « الله الصمد » فكل منهما معرف بأل ..

وحده بأصرح عبارة فى قوله : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان** »(١٢٠) .

وقد قال الشيخ محيى الدين بن العربى شيخ الصوفية [ص ٢٢٦ من الجزء الرابع من فتوحاته] عند الكلام على هذه الآية : « ان الله تعالى لم يترك لعبده حجة عليه ، بل لله الحجة البالغة ، فلا يتوسل اليه بغيره ، فان التوسل انما هو طلب القرب منه : وقد أخبرنا الله أنه قريب وخبره صدق » ا هـ ملخصاً .

على أن الذين يزعمون جواز شىء مما عليه العامة اليوم فى هذا الشأن انما يتكلمون فيه بالمبهمات ، ويسلكون طرقاً من التأويل لا تنطبق على ما فى نفوس الناس ، ويفسرون الجاه والواسطة بما لا أثر له فى مخيلات المعتقدين ، فأى حالة تدعوهم الى ذلك ؟ وبين أيديهم القرون الثلاثة الأولى ، ولم يكن فيها شىء من هذا التوسل ، ولا ما يشبهه بوجه من الوجوه ، وكتب السنة والسير بين أيدينا شاهدة بذلك . فكل ما حدث بعد ذلك فأقل أوصافه أنه بدعة فى الدين ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار ، وأسوأ البدع ما كان فيه شبهة الاشراك بالله وسوء الظن به ، كهذه البدع التى نحن بصدد الكلام فيها .

وكأن هؤلاء الزاعمين يظنون أن فى ذلك تعظيما لقدر النبى ﷺ أو الأنبياء والأولياء ، مع أن أفضل التعظيم للأنبياء هو الوقوف عند ما جاءوا به ، واتقاء الزيادة عليهم فيما شرعوه باذن ربهم(١٢١) ، وتعظيم الأولياء يكون باختيار ما اختاروه لأنفسهم .

وظن هؤلاء الزاعمين أن الأنبياء والأولياء يفرحون باطرائهم وتنظيم المدائح وعزوها اليهم ، وتفخيم الألفاظ عند ذكرهم ، واختراع شئون لهم مع الله لم ترد فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله ، ولا رضيها

---

(١٢٠) البقرة : ١٨٦ .

(١٢١) يعنى ما شرعه الله للناس على ألسنتهم فبلغوه عنه باذنه .

السلف الصالح — هذا الظن بالأنبياء والأولياء هو أسوأ الظن ، لأنهم شبهوهم فى ذلك بالجبارين من أهل الدنيا الذين غشيت أبصارهم ظلمات الجهل قبل لقاء الموت ، وليس يخطر بالبال أن جباراً لقى الموت وانكشف له الغطاء عن أمر ربه فيه ، يرضى أن يفخمه الناس بما لم يشرعه الله ، فكيف بالأنبياء والصديقين ؟ ! •

ان لفظ الجاه الذى يضيفونه الى الأنبياء والأولياء عند التوسل مفهومه العرفى هو السلطة ، وان شئت قلت : نفاذ الكلمة عند من يستعمل عليه ، أو لديه ، فيقال : فلان اغتصب مال فلان بجاهه • ويقال : فلان خلص فلاناً من عقوبة الذنب بجاهه لدى الأمير أو الوزير مثلا •

فزعم زاعم أن لفلان جاهاً عند الله — بهذا المعنى — اشراك جلى لا خفى ، وقلما يخطر ببال أحد من المتوسلين معنى اللفظ اللغوى ، وهو المنزلة والقدر •

على أنه لا معنى للتوسل بالقدر والمنزلة فى نفسها ، لأنها ليست شيئاً ينفع ، وانما يكون لذلك معنى لو أولت بصفة من صفات الله تعالى كالاجتباء ، ولا علاقة لها بالدعاء ، ولا يمكن لمتوسل أن يقصدها فى دعائه وان كان الألوسى المسكين بنى تجويز التوسل بجاه النبى ﷺ خاصة على ذلك التأويل ، وما حمله على هذا الا خوفه من ألسنة العامة وسباب الجهال ، وهو مما لا قيمة له عند العارفين •

فالتوسل بلفظ الجاه مبتدع بعد القرون الثلاث ، وفيه شبهة الشرك والعياذ بالله ، وشبهة العدول عما جاء به رسول الله ﷺ • فلم الاصرار على تحسين هذه البدعة ؟ •

● **تعقيب :**

وقد حسم الامام البنا ذلك النزاع بقوله : « ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة الى الله تبارك

وتعالى : والأولياء هم المذكورون فى قوله تعالى : ((**الذين آمنوا وكانوا يتقون**))(١٢٢) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع الاعتقاد أنهم — رضوان الله عليهم — لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرا فى حياتهم أو بعد مماتهم ، فضلا عن أن يهبوا شيئاً من ذلك لغيرهم •

وزيارة القبور أياً كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة ، ولكن الاستعانة بالمقبورين أياً كانوا ونداؤهم لذلك • وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد ، والنذر لهم وتشييد القبور وسترها واضاءتها والتمسح بها ، والحلف بغير الله ، وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها ، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذرائع •

وأما التوسل بالخلق ، وهو غير الطلب منهم والاستعانة بهم • فالطلب كأن تقول : « ياسيدى ادريس أو ياحسين اشف مريضى » •• هذا ما لا شك فى حظره ، والتوسل كأن تطلب من الله أساسا وتذكر مع طلبك كلمة : « بحق فلان من الصالحين » • وفى الصيغة الجائزة خلاف بين الفقهاء :

١ — قال بعضهم : شرط الجواز أن تقدم ذكر الله والطلب أولا فتقول : أسألك اللهم أن تعطينى كذا بحق آل البيت مثلا •

٢ — وقال آخرون : بل يكفى للجواز أن يذكر الطلب من الله أولا •

٣ — وقال آخرون : يكفى أن يذكر الطلب من الله حتى لو قدم التوسل فقال بحق آل البيت أسألك اللهم أن تعطينى كذا ، وهذا الخلاف هو الذى عناه الامام حسن البنا بقوله : « والدعاء اذا قرن بالتوسل الى الله بأحد من خلقه خلاف فرعى فى كيفية الدعاء • وليس من مسائل العقيدة » :

والامام البنا يلتقى مع مدرسة محمد بن عبد الوهاب فى التفرقة بين الطلب من الأولياء وبين الطلب من الله مع التوسل • خلافا لمن يجهلون

---

(١٢٢) يونس : ٦٣ .

مذهب ابن عبد الوهاب وينتسبون اليه ، أو ينسبون اليه القول بتكفير من قال بالتوسل مطلقا ، سواء مع الطلب من الله أو من قال بالطلب من المشايخ ، بلا تفرقة بين الحالين .. فالذى يذكر الله طالبا منه قد اتبع الحديث القائل : « اذا سألت فاسأل الله » بوجه من الوجوه .

على أن الامام البنا عندما يذكر أن المسألة خلاف بين الفقهاء ، فى كيفية التوسل لا يعنى أنه العمل الأمثل .. فانه لا يفعله ولا يوصى به .. وانما ينصح بالرفق فى الدعوة — رحمه الله — ، ويرى أن منع هـذه البدعة يكون بتقريب الناس من الله وتعريفهم به وبأسمائه الحسنى : عن طريق ما يعرضه القرآن من آلاء الله ودلائل عظمته وقهره ووحدانيته فى الملك والخلق والعطاء والمنع والشفاء والموت والحياة . والقرب ممن يدعـوه . حتى يستشـعر العبد حقيقـة ما يقرأه فى آيـة الكرسى « **من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه** »(١٢٣) فاذا به يختصر الطريق الى ربه ويمزق ما يجعله بينه وبين مولاه من الحجب — حجب الوسـطاء والشفعاء .. فاذا ما ارتقى فى صدق العبودية والتوحيد ، واستشعر القرب انفتح له باب الرجاء واليقين بمن يرجوه وضل عنه من كان يدعوهم من قبل ، حيث يستشعر أن كل من عدا الله عبد محتاج .. وأن المعطى الوهاب الرحمن الرحيم الفرد الصمد هو الله الواحد الأحد .

* * *

● **الاستدلال بحديث الأعمى :**

يقول بعض الناس : ان لنا على ذلك حجة لا أبلغ منها وهى ما رواه الترمذى بسنده الى عثمان بن حنيف رضى الله عنه قال : ان رجلا ضرير البصر أتى النبى ﷺ فقال : ادع الله أن يعافينى . فقال : « ان شئت دعوت ، ان شئت صبرت فهو خير لك » قال : فادعه . قال : فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم انى أسألك وأتوجه اليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد .. انى توجهت بك الى

---

(١٢٣) البقرة : ٢٥٥ .

ربى ليقضى لى حاجتى هذه .. اللهم فشفعه فى » قال الترمذى : وهو حديث حسن صحيح غريب (١٢٤) .

ونقول : أولا : قد وصف الحديث بالغريب ، وهو ما رواه واحد ، ثم يكفى فى لزوم التحرز عن الأخذ به أن أهل القرون الثلاثة لم يقع منهم مثله ، وهم أعلم منا بما يجب الأخذ به من ذلك . ولا وجه لابتعادهم عن العمل به الا علمهم بأن ذلك من باب طلب الاشتراك فى الدعاء من الحى كما قال عمر رضى الله عنه فى حديث الاستسقاء : انا كنا نتوسل اليك بنبينا ﷺ فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبيك العباس فاسقنا . قال ذلك رضى الله عنه والعباس بجانبه يدعو الله تعالى . ولو كان التوسل ما يزعم هؤلاء الزاعمون لكان عمر يستسقى ويتوسل بالنبى ﷺ ، ولا يقول : كنا نستسقى بنبينا والآن نستسقى بعم نبيك .

وطلب الاشتراك فى الدعاء مشروع حتى من الاخ لأخيه ، بل ويكون من الأعلى للأدنى كما ورد فى الحديث ، وليس فيه ما يخشى منه ، فان الداعى ومن يشركه فى الدعاء شريك فى العبوديه ، لا وزير يتصرف فى ارادة الأمير كما يظنون « سبحان ربك رب العزة عما يصفون »(١٢٥) .

ثم المسألة داخلة فى باب العقائد لا فى باب الأعمال ، ذلك أن الأمر فيها يرجع الى هذا السؤال : هل يجوز أن نعتقد بأن واحداً سوى الله يكون واسطة بيننا وبين الله فى قضاء حاجاتنا أو لا يجوز ؟

---

(١٢٤) يقول السيد رشيد رضا : هذا الحديث له سند ضعيف فيه الشبهة ، وسند قوى خلاصة معناه : ان التوسل المراد منه هو الدعاء من الأعمى ودعاء النبى صلى الله عليه وسلم له .. والدعاء وطلبه مشروعان ، ومن دعا لغيره كان شفيعا له ، ومنه الدعاء للميت فى صلاة الجنازة ومن المأثور فيها : « وقد جئناك راغبين اليك شفعاء له » .

والأعمى طلب الدعاء من النبى صلى الله عليه وسلم فدعا له ، والدعاء شفاعة ، وهو دعا الله أن يقبل شفاعته فيه ، أى يقبل دعاءه له .. ولا يمكن الآن لأحد أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا له وشفع فيه ، فيسأل الله أن يقبل شفاعته له .. والكلام فى هـذا الحديث مفصل فى كتاب « التوسل والوسيلة » لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله .

(١٢٥) الصافات : ١٨٠ .

أما الكتاب فصريح فى أن تلك العقيدة من عقائد المشركين ، وقد نعاها عليهم فى قوله « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** »(١٢٦) .

وقد جاء فى السورة التى نقرأها كل يوم فى الصـلاة « **واياك نستعين** »(١٢٧) فلا استعانة الا به ، وقد صرح الكتاب بأن أحداً لا يملك للناس من الله نفعاً ولا ضراً ، وهذا هو التوحيد الذى كان أساس الرسالة المصطفوية كما بينا .

ثم البرهان العقلى يرشد الى أن الله فى أعماله لا يقاس بالحكام وأمثالهم فى التحول عن ارادتهم بما يتخذه أهل الجاه عندهم ، لتنزهه جل شأنه عن ذلك (١٢٨) .

ولو أراد مبتدع أن يدعو الى هذه العقيدة فعليه أن يقيم عليهـا الدليل الموصل الى اليقين ، اما بالمقدمات العقلية البرهانية ، أو بالأدلة السمعية المتواترة ، ولا يمكنه أن يتخذ حديثاً من حديث الآحاد دليلا على العقيدة مهما قوى سنده ، فان المعروف عند الأئمة قاطبة أن أحاديث الآحاد لا تفيد الا الظن « **ان الظن لا يغنى من الحق شيئاً** »(١٢٩) .

* * *

---

(١٢٦) يونس : ١٨ .   (١٢٧) الفاتحة : ٥ .

(١٢٨) هذا القياس هو تشبيه الله تعالى بالملوك الظالمين ، واذا كان تشبيهه تعالى بأعظم خلقه محظوراً ، فكيف تشبيهه بشرارهم « **ليس كمثله شىء** » (الشورى : ١١) — « **سبحانه وتعالى عما يشركون** » (يونس : ١٨) — (رشيد رضا) .

(١٢٩) يونس : ٣٦ .

● **اليأس ضلالة :**

قال تعالى : ((**ومن يقنط من رحمة ربه ألا الضالون**))[130] .

وقال : ((**انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون**))[131] .

ان الذى يفقد الرجاء فى الله لا يفقده الا اذا فقد اليقين فى قوله سبحانه : ((**ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**))[132] وفقد اليقين بقوله : ((**ان الله بالناس لرؤوف رحيم**))[133] وفقد اليقين بقوة الله البالغــة وانه ((**وما كان الله ليعجزه من شىء فى السـموات ولا فى الأرض**))[134] وانه على كــل شىء قــدير ، وأن شــعار المســلم « بسم الله الرحمن الرحيم » ليستوجب الأمل الدائم فى الله كلما ادلهم الأمر وأظلمت الدنيــا ، وبهــذا لا يقتله اليــأس .. كيف وشــعاره ((**لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم**))[135] وهو شعار يقتضى التوازن العاطفى للمسلم فى استقباله السراء والضراء ، ان اصابته سراء شكر وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

والأمة الناهضة تحتاج الأمل الواسع الفسيح ، وقد أمد القرآن أممه بهذا الشعور بأسلوب يخلق من الأمة الميتة أمة كلها حياة وهمة وأمل وعزم ، وحسبك أنه يجعل اليأس سبيلا الى الكفر والقنوط ، ومن مظاهر الضلال .

وان أضعف الأمم اذا سمعت قوله تعالى : ((**ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم**

---

(١٣٠) الحجر : ٥٦ .
(١٣١) يوسف : ٨٧ .
(١٣٢) محمد : ٦ .
(١٣٣) الحج : ٦٥ .
(١٣٤) فاطر : ٤٤ .
(١٣٥) الحديد : ٢٣ .

فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون»(١٣٦) . وقوله : « **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين . ان يمسسكم قرح فقد مس القــوم قرح مثله وتلك الأيام نداولهـا بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين** »(١٣٧) . وقوله تعالى : « **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، ما ظننتم أن يخرجوا ، وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيــدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** »(١٣٨) وقوله تعالى : « **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمـا يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ، ألا ان نصر الله قريب** »(١٣٩) .

ان أضعف الأمم اذا سمعت هذا البشير كله ، وقرأت ما اليه من قصص تطبيقية واقعية ، لابد أن تخرج بعد ذلك أقوى الأمم ايمانا وأرواحا ، ولابد أن ترى فى هذا الأمل ما يدفعها الى اقتحام المصاعب مهما اشتدت ، ومقارعة الحوادث مهما عظمت ، حتى تظفر بما تصبو اليه من كمال (١٤٠) .

والمؤمن حيى من الله الذى يدعوه ويرجوه ، فهو يحب أن يكون فى الموقف الذى يرضيه سبحانه ، فان زلت قدمه ندم واستغفر .. أما الرجل الذى مطعمه حرام وملبسه حرام .. ونما جســمه من حــرام فأنى يستجاب له ؟

ومن منطلق قوله تعالى : « **انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** »(١٤١) وقوله « **ومن يقنط من رحمة ربه الا الضالون** »(١٤٢) .

---

(١٣٦) القصص : ٥ ، ٦ . (١٣٧) آل عمران : ١٣٩ ، ١٤٠ .
(١٣٨) الحشر : ٢ . (١٣٩) البقرة : ٢١٤ .
(١٤٠) نحو النور — للامام حسن البنا : الاسلام والأمل .
(١٤١) يوسف : ٨٧ . (١٤٢) الحجر : ٥٦ .

قال الشيخ محمد عبده :

اختص الله الانسان بالميل الى علو المنزلة ، وآلاف مؤلفة من الناس فى الأجيال والأجناس المختلفة ألقوا بأنفسهم الى المهالك ، وماتوا دفاعا عن الشرف ، أو طلبا للكرامة والمجد ، وما أجل عناية الله بالانسان لا يعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل لذة دون الشرف فهى وسيلة اليه ، وما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة ، يبارك فيه مدبر الكون ، فيفيض خيره على بنى جلدته أجمعين •

ليس الأمل هى الأمنية والتشهى يعبر عنهما بليت لى كذا من المال والفضل مع الركون الى الراحة ، انما الأمل رجاء يتبعه عمل ، ويصحبه حمل النفس على المكاره ، حتى يرسخ فى مداركها أن الحياة لغو اذا لم تغذ بنيل الأرب ، فيكون بذل الروح أول خطوة يخطوها القاصد ، فضلا عن المال الذى لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون •

وكما كان الميل للرفعة أمراً فطريا ، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة ، غير أن ثبوتهما فى فطرة عموم البشر ، كان داعيا للمزاحمات والممانعات، فكل انسان طالب ومطلوب، حكمة من الله ليعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين •

* * *

● **كيف يتولد القنوط وحال القانطين ؟**

قال الشيخ الامام : كيف تسفل النفس حتى لا تطلب رفعة ؟ وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ؟ والأمل وحب الكرامة طبعيان فى الانسان ؟

بعد امعان النظر نجد السبب فى ذلك •• ظن الانسان أن جميع أعماله انما تصدر عن قدرته وارادته بالاستقلال • فاذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى، رجع الى قدرته فوجدها فانية وواهنة ، فيسكن الى عجزه ، فييأس ويقنط ، ويذل ويسفل ، اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التى تعاصت على قدرته ، فتسلب منه جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية

التى يمتاز بهـا الانسان عن الأنعام ، فيرضى بمـا ترضى به البهائم ، ويسلط الله على اليائسين من يكلفهم من العمل ما لا يطيقون ويأخـذ ثمرات كسبهم ، بل ان السائدين يشعرون بحكم البداهة أن هؤلاء القانطين أسقطوا أنفسـهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة ، وكفروا بنعمة الله فى تكوينهم على الشكل الانسانى ، وايداعهم ما أودع فى أفراد الانسان ، فيعاملهم أولئك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوان ولنا على ذلك شاهد العيان فى الأمم التى أدركها اليأس وسقطت فى أيدى الأجانب •

* * *

● **علاج القنوط :**

ان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التى هى أعلى من كل قوة ، فيركن اليها فى أعماله ، ولا يجد اليأس الى نفسه طريقا • وكلما أغلق فى وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب فلا يمل ، لاعتقاده أن فى قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعزاء ، ويلقى قيادهم الى الأذلاء ، فتشتد عزيمته ، ويدأب فيما كلفه الله من السـعى لنيل الكمال ، والفوز بما أعـده الله له من السـعادة فى الأولى والآخرة •

لهذا نقول : ان المسـلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد ﷺ ، أن يقنطوا من رحمة ربهم فى اعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم ايمانهم أن يرضخوا للذل ، ويتقاعدوا عن اعلاء كلمتهم وهى كلمة الله ، أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السـيادة العليا ؟ ماذا يبتغون من الحياة ان كانت فى ذل واهانة وفقر وشـقاء دائم بيد عـدو غاشم ؟ كيف يرضى المسـلمون بحياة يكتنفها كل هـذه التعاسات والمكدرات •• ؟(١٤٣) أينسون أنهم كانوا الأعلين فى الأرض ، وما طال على ذلك الزمان •• ولا محيت التواريخ •• ولا عفت الآثار ؟

---

(١٤٣) العروة الوثقى للأفغانى ومحمد عبده ، ص ١٢٠ — ١٢٦ — ط دار الكتاب العربى ببيروت سنة ١٣٨٩ هـ •

● **الحيـــاة فى الرجاء :**

أقول : المؤمن حيى من الله الذى يدعوه ويرجوه ، فهو يحب أن يكون فى المواقف التى ترضى عنه الله ، فان زلت قدمه ندم واستغفر .. أما الرجل الذى مطعمه حرام وملبسه حرام ، ونما جســمه من حرام فأنى يستجاب له .

وهكذا يصور القرآن المخطىء التائب والمخطىء السادر فى غوايته فيقــول : « **ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون . واخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون** »(١٤٤) .

* * *

● **الاسراف فى الرجاء :**

يقول الامام محمد عبــده :

كما أنه من الخطأ القول بأن المعصية تخرج المسلم من الاسلام الى الكفر . كذلك من الخطأ التهوين من أمر المعاصى ، وفى الكاذب الذى يتوهم أن ذنبه يسير تمحوه المكفرات ، كالاستغفار قبل النوم مائة مرة ، وقول كذا من الذكر بعد صــلاة الصبح كذا وكذا مرة . يقول الامام ما نصه (١٤٥) :

« وكيف نترك ما جاء عن الله فى كتابه وعلى لســان نبيه من النصوص القاطعة الدالة على أن سنة الله مســجلة على الكاذبين ، وهى بعمومها لا تدع لوهم مجالا فى نزول سخط الله بالكاذب ، ثم نخترع لأنفسنا تعلة نتوكأ عليها فى ارتكاب هذه الجريرة ، ونسندها الى سعة عفو الله ، أو الى مجمل من القول لا يبينه الا تلك النصوص القاطعة ؟ ان هذا الا خبال أو تصوير خيال ، أو فقد للايمان بصحة تلك النصوص القاطعة . نعوذ بالله .

* * *

---

(١٤٤) الأعراف : ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(١٤٥) تفسير المنار ج ١ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

● **الاعتذار بعــدم العصمة :**

ثم قال : ومن الناس من يكتفى بالاعتذار عن ذنوبه وجرائمه بأنه غير معصوم • وذكر بعض الشواهد عمن يظن أن لهم فى الدين قدم صدق ، وقال :

ان من هــذا رأيه يتصور أن الصدق واتباع الحق انما هو شأن طائفة معدودة من البشر ، وهم الأنبياء عليهم السلام ، وكل من عداهم فليس من شأنه أن يثبت على عمل صالح ، ويكتفى بهذه النتكأة فى تسلية نفســه وتجريئها على الجرائم •

وكفى بهذا حمقاً ، فليس يلزم من كون غير النبى ليس معصوماً أن يكون الف مآثم ، وحلف جرائم ، وخدن عظائم ، ولو لزم أن يكون الناس هكــذا •• لكانت الشرائع عبثاً ، والتهذيب لغوا ، ولفسدت الأرض وخرب العمران •

وهل يصح فى حكم العقل أن يقال : ان الشرائع والحدود وضروب الوعد والوعيد لم ينعم الله بتشريعها الا لأجل المعصومين ؟

وهل يحتاج المعصوم الى وعد أو وعيد ؟ وما فائدتهما بالنسبة اليه وقد أيقن بتوفيق الله له ، وأنه لا يأتى أمراً يخالف ما أمر به ، ولا يقترف شــيئاً مما نهى عنه ؟

ثم كيف لا يكون لغير المعصومين نصيب فى الوعيد ولا الزجر مع أنهم أحق الناس بالردع ، وأحوجهم الى التخويف من سوء العاقبة ؟

* * *

امتحان الله للمؤمنين

« ألم • أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون • ولقــد فتنــا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صــدقوا وليعلمن الكاذبين »(١٤٦) •

● **جهاد الكفار محل الايمان :**

فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية فى كل ملة وقطر تطالب كل شخص بصيانة وطنه ، وتوجب الموت فى مدافعة الباغين عليــه • والخائن من يدع قدما لعــدو تستقر على أرض الوطن وهو قادر على زلزلتها ، بفكر بيديه ، أو تدبير يأتيه لتعطيل حركته ، ومن لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون فى النصحية فقد خان • من سوف عمل اليوم الى الغد وتوانى فى تضليل كيد الأعداء بقول أو فعل فقد ارتكب خطيئة الخيانة •• محيت أسماء العظماء والملوك ولكن لم تمح أسماء الخائنين •

ثم قال(١٤٧) : ان كنتم تخافون من الموت أو الاذلال فهو الآن على بعد منكم ، أليس يؤخذ منكم الأبرياء بالشبه الباطلة ، ويهانون ويذلون وكثير منهم يقتلون ؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم وحركات دمائكم فى أبدانكم •• ثم لا يبقى على أحد منكم • وفى امكانكم أن تستعينوا الله •• فان شئتم فارحموا أنفســكم والا فأنتم ساقطون فيما منه تخافون • ياقوم يؤثر من كلام سلفكم : الشجاع محبب حتى لعدوه ، والجبان مبغض حتى لأبيه وأمه •• تعلمون أنه ما عز قوم بالخضوع ولا استهين شعب بالاباء •• فان قمتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر مما يصيب أعداءكم ، ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الخسار فهم يرهبونه : **« ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون »**(١٤٨) •

---

(١٤٦) العنكبوت : ١ — ٣ • (١٤٧) العروة الوثقى ص ١٩١ •
(١٤٨) النساء : ١٠٤ •

وقال الامامان : أغلب الناس يقول آمنا ، وللايمان آثار ، والله لا يعاملهم قبل أن يبتليهم أيهم أحسن عملا ، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ، ان المغتر بزعمه الايمان ولا يسهل عليه ايمانه احتمال المشاق وتجشم المصاعب فى سبيله ، ليس بمعزل عن المنافقين « **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين • انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** »(١٤٩) هذا قضاء الله فى الذين يستأذنون فى بذل أرواحهم وأموالهم فى أداء فريضة الايمان •• حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون •

ان للعقائد الراسخة آثار تظهر فى العزائم والأعمال ، وتأثيراً فى الأفكار والارادات ، لا يمكن للمعتقدين أن يزيحوها عن أنفسهم ما داموا معتقدين • وللايمان خواصه التى كان يمتاز بها المؤمنون فى الصدر الأول ، وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم •

نعم : ان دون ابتلاء الله خلع العادات ، وتحمل الصعوبات وبذل الأموال وبيع الأرواح ، كل خطر فهو تهلكة ينبغى البعد عنها الا فى الايمان ، فكل تهلكة فيه نجاة • وليس فى النفقة لأداء حق الايمان تبذير ، ولو أتى على كل ما فى أيدى المؤمنين ، وان الفرار من محنة الله فى الايمان مجلبة للخزى الأبدى ، ان الفرار من صدمة جيش الضلال وان بلغت أقصى ما يتصور موجب للشقاء السرمدى ، لا سعادة الا بالدين ، ودون حفظ الدين تتطاير الأعناق • كيف لا ؟ وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهواته ، ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه •• لن يكون المؤمن مؤمنا حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، لا يقبل الله فى صيانة الايمان عذرا ما دامت الرجل تمشى والعين تنظر واليد تعمل • ان من سنة الله أن يمتحن المؤمنين فى كل قرن فيدعوهم الى قوم أولى بأس شديد « **فان تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا ، وان**

---

(١٤٩) التوبة : ٤٤ ، ٤٥ .

تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما »(١٥٠) . فميزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة ، وهناك الجزاء الأوفى .. فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان ، القانعون منه برسم يلوح فى مخيلاتهم ، أن عدل الله يتركهم وما يظنون ، « **أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون** »(١٥١) .

***

● **التخلى عن الجبن :**

قال تعـالى : « **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشـيدة** »(١٥٢) .

وقال سبحانه : « **قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم** »(١٥٣) .

هـذه الحقيقة عندما يؤمن بها المسلمون صادقين يذهب عنهم الجبن ، وتتوجهم الشجاعة والهمم العالية .

« فما العلة فى اخلاد الجمهور الأعظم من بنى الانسان الى دنيات المنازل ، وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ، ويستفزهم اليه الميل الغريزى ، وبخاصة اذا كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده .

جاء فى العروة الوثقى : « الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بنـاءها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العاملين فسقطت صروحهم ، هو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويوطىء الظهور لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والاقدام ، ويجرعه مرارات الموت فى كل لحظة ، لم يبق له الا عين تبصر الأعداء ، ولا ترى الأحبـاء . هـذه حياته . أذ ـاع كل شىء فى القنـاعة بلا شىء . وهو يظن أنه أدرك البغية .

(١٥٠) الفتح : ١٦ .
(١٥١) التوبة : ١٢٦ .
(١٥٢) النساء : ٧٨ .
(١٥٣) الجمعة : ٨ .

ما هو الجبن ؟ انخذال فى النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها • وهو مرض من الأمراض الروحية ، يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركنا من أركان الحياة الطبعية • وكل أسبابه ترجع الى خوف الموت : « **وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت** »(١٥٤) • نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقياً للحياة — وهو الشجاعة والاقدام — سببا فى الفناء ، يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفا ، مع أن نظرة واحدة لما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، تكشف له أن تلك المخاوف انما هى أوهام • عن سبيل الله صدمته ، ومن كل خير حرمته •

الجبن فخ تنصبه صروف الدهر لتغتال به نفوس الانسان ، وتلتهم به الأمم ، هو حبالة الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله ، هو علة لكل رذيلة ، لا شقاء الا وهو مبدأه ، ولا فساد الا وهو جرثومته ، ولا كفر الا وهو باعثه وموجبه ، ممزق الجماعات ، ومقطع روابط الصلات هازم الجيوش ، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة •• ماذا يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب الوطنية • أليس هو الجبن ؟ ماذا يبسط أيدى الأدنياء لدنيئة الارتشاء ، أليس هو الجبن ؟ اذ أن خوف المرتشى من الفقر يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت وهو علة الجبن •• وهكذا القول فى الكذب والنفاق وسائر الأمراض الاجتماعية • الجبن عار على كل ذى فطرة انسانية سليمة ، وبخاصة الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤملون جزاء حسنا • ومقاما كريما • ذلك أن الجبن أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله •• لقد جعل الله حب الموت علامة الايمان وقال فى ذم من ليسوا بمؤمنين « **ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب** »(١٥٥) لم يكتف الكتاب الالهى بأن تقام

---

(١٥٤) لقمان : ٣٤ .   (١٥٥) النساء : ٧٧ .

الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدى ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون . بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى اعلاء كلمة الحق والعدل الالهى ، بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده .. لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسـلامى وبين الجبن فى قلب واحد . كيف يمكن هـذا ، وكل جزء من هـذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام . وان عماده الاخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله ، ولا يفيده التبـاطؤ عن أداء الفرائض زيادة فى الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه .. المؤمن من لا ينتظر بنفسه الا احـدى الحسنيين ، اما أن يعيش سيداً عزيزا ، واما أن يموت مقربا سعيدا ، ويلتحق بالكروبيين والملائكة المقربين — ومن يتوهم أنه يجمع بين الجبن والايمان بما جاء به محمد ﷺ فقد غش نفسه ، وغرر بعقله فكل آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه فى دعوى الايمان . ولو أن ورثة الأنبياء قاموا بالأمر والنهى زمنا قليلا ، ووعظوا الكافة بتبيين معانى القرآن الشريف ، واحيائها فى أنفس المؤمنين لرأينا لذلك أثرا فى الأمة يبقى ذكره أبد الدهر »(١٥٦) .

* * *

● **الانتماء للأنبياء :**

قال تعـالى : **« تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسئلون عما كانوا يعملون »(١٥٧) .**

قال الامام : جاءت هـذه الآية الكريمة بعـد الكلام عن وصية ابراهيم لبنيه . واسماعيل واسحاق لبنيهم ، استدراكا على ما عساه يقع فى أذهان ذرارى هؤلاء الأنبياء الكرام من أن هـذا السلف الذى له عند الله هـذه المكانة يشفع لهم ، فينجون ، ويسـعدون يوم القيامة

---

(١٥٦) العروة الوثقى ص ١٨٢ — ١٨٦ .

(١٥٧) البقرة : ١٣٤ .

بمجرد الانتساب اليهم ، فبين الله فى هـذه الآيات أن سنته فى عباده ألا يجزى أحد الا بكسبه وعمله ، ولا يسئل الا عن كسبه وعمله .

وقد بين فى سورة النجم أن هـذه القضية من أصول الدين العامة التى جاء بها الأنبياء من قبل « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وابراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخـرى . وأن ليس للانسـان الا ما سعى »(١٥٨) .

وبين فى آيات متعددة فى سور متفرقة أن المرسلين لم يرسلوا الا مبشرين ومنذرين . فمن آمن بهم وعمل بما يرشدون اليه كان ناجياً وان بعـد عنهم فى النسب ، ومن أعرض عن هديهم كان هالكا وان أدلى اليهم بأقرب سبب « قال يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمـل غير صـالح »(١٥٩) .

واذا لم تنتفع بهم ذرياتهم الذين لم يقتدوا بهم فكيف ينتفع بهم أولئك البعداء الذين ليس بينهم وبينهم صلة الا الأقوال الكاذبة التى يعبر عنهـا أهل هـذا العصر بالمحسـوبية ويقولون للمقبـورين : « المحسوب كالمنسوب » .

وما أحسن قول الامام الغزالى : اذا كان الجائع يشبع اذا أكل والده دونه ، والظمآن يروى بشرب والدم وان لم يشرب ، فالعاصى ينجو بصلاح والده ، ومادام الواقع أن البطن لا تشبع اذا شبع بطن آخر . فكذلك لا يغنى عمل الآباء الصالحين عن أبنائهم الطالحين .

* * *

---

(١٥٨) النجم : ٣٦ — ٣٩ .   (١٥٩) هود : ٤٦ .

المتشابه والمراد بتأويله

قال الله تعالى « **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا اله الا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب** »(١٦٠) .

اختلف المفسرون فى المراد من المتشابه وذكروا فى تفسيره عشرة أوجه ، معظمها كان له أثر فى اضطراب الأفكار واختلاف المفكرين فماذا قال الامام لاخراجنا من الظلمات ؟

● **الربط بين الآيتين :**

قال الامام فى تفسير آل عمران : قوله سبحانه « **هو الذى يصوركم** » الخ . رد لشبهة النصارى . فى ولادة عيسى من غير أب ، كيفما خلق ، وانما الاله هو الخالق الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه ، ولذلك صرح بعد هذا بكلمة التوحيد ، وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة . فقال « **لا اله الا هو العزيز الحكيم** »

ثم قال تعالى : « **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات** » وهذا رد لاستدلالهم ببعض آيات القرآن على تمييز عيسى على غيره من البشر . اذ ورد فيه أنه روح الله وكلمته ، فهو يقول : ان هذه الآيات من المتشابهات التى اشتبه عليكم معناها حتى حاولتم جعلها ناقضة للآيات المحكمة فى توحيد الله وتنزيهه .

(١٦٠) آل عمران : ٦ ، ٧ .

● **معنى المتشابه والمحكم :**

قال الأستاذ الامام فى معنى المتشابهات : التشابه انما يكون بين شيئين فأكثر ، وهو لا يفيد عدم فهم المعنى مطلقاً كما قال « الجلال » فى تفسير الجلالين .

ووصف التشابه فى هذه الآية هو للآيات باعتبار معانيها . أى انك اذا تأملت فى هــذه الآية تجد معانى متشابهة فى فهمها من اللفظ ، لا يجد الذهن مرجحاً لبعضها على البعض .

١ — وقالوا أيضاً : ان المتشابه ما كان اثبات المعنى فيه للفظ الدال عليه ونفيه عنه متساويان . فقد تشابه فيه النفى والاثبات . أى أن اللفظ يحتمل الأمر ونقيضه .

٢ — أو المتشابه . ما دل فيه اللفظ على شىء والعقل على خلافه ، فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح ، كالاستواء على العرش ، وكون عيسى روح الله وكلمته ، فهذا هو المتشابه الذى يقابله المحكم الذى لا ينفى العقل شــيئاً من ظاهر معناه .

أما كون المحكمات « **هن أم الكتاب** » . فمعناه أنهن أصله وعماده ، أو معظمه . وهذا ظاهر لكنه لا ينطبق الا على بعض الأقوال التى قالها المفسرون للمحكم والمتشابه .

ومعنى ذلك أن المحكمات هى الأصل الذى دعى الناس اليه ، ويمكنهم أن يفهموها ويهتــدوا بها ، وعنها يتفرع غيرها واليهــا يرجع ، فان اشتبه علينا شىء نرده اليها .

وليس المراد بالرد أن نؤوله . بل أن نؤمن بأنه من عند الله ، وأنه لا ينافى الأصل المحكم الذى هو أم الكتاب وأساس الدين الذى أمرنا أن نأخذ به على ظاهره الذى لا يحتمل غيره الا احتمالا مرجوحا .

مثال هذه المتشابهات قوله تعالى « **الرحمن على العرش استوى** »(١٦١) وقوله « **يد الله فوق أيديهم** »(١٦٢) وقوله تعالى « **وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه** »(١٦٣) هذا رأى جمهور المفسرين •

٣ — وذهب جمهـور عظيم منهم الى أنه لا متشابه فى القرآن الا أخبار الغيب المغيب • كصفة الآخرة وأحوالها من نعيم وعذاب •

* * *

● **أتباع المتشابه طلبا للفتنة :**

قال الله سبحانه : « **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** » •

قال الامام : معنى اتباعه ابتغاء الفتنـة أنهم يتبعونه بالانكار والتنفير ، استعانة بما فى أنفس الناس من انكار ما لم يصل اليه علمهم ولا يناله حسهم ، كالاحياء بعد الموت وشئون تلك الحياة الأخرى •

و « **ابتغاء الفتنة** » — على الوجه الأول • أى تفسير المتشابه بأنه الذى معانيه متشابهة ولا يجد الذهن مرجحا لبعضها — هو أن يتبع أهل الزيغ من المشركين والمجسمة مثل قوله تعالى : « **وروح منه** » فيأخذونه على ظاهره من غير نظر الى الأصل المحكم ، ليفتنوا الناس بدعوتهم الى أهوائهم ، ويختلبوهم بشبهتهم فيقولون : ان الله روح والمسيح روح منه ، فهو من جنسه ، وجنسه لا يتبعض فهو هو •

فالتأويل هنا بمعنى الارجاع • أى أنهم يرجعونه الى أهوائهم وتقاليدهم ، لا الى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد •

وأما « **ابتغاء تأويله** » : فهو أنهم يطبقونه على أحوال الناس فى الدنيا ، فيحولون خبر الاحياء بعد الموت ، وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها ، ويصرفونها الى معان من أحوال الناس فى الدنيا — يعنى

---

(١٦١) طه : ٥ . (١٦٢) الفتح : ١٠ .
(١٦٣) النساء : ١٧١ .

الامام أنهم يقيســـون أمور الغيب والآخرة ومنطقهـــا **بأمور الدنيـــا** ومنطقها — ليخرجوا الناس عن الدين بالمرة ، والقرآن مملوء بالرد عليهم كقوله تعالى : « **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة** »(١٦٤) .

* * *

● **ما حكمة وجود المتشابه فى القرآن ؟**

قال الامام : لم كان فى القرآن متشابه لا يعلمه الا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكما يستوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هاديا ، والمتشابه يحول دون الهداية بما يوقع اللبس فى العقائد ، ويفتح باب الفتنة لأهل التأويل ؟

وقد ذكر الرازى للعلماء خمسة أجوبة ، ولكن الامام محمد عبده رد اجاباتهم الى ثلاث :

١ — ان الله أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا فى التصديق به ، فانه لو كان كل ما ورد فى الكتاب معقولا واضحا لا شـــبهة فيه عند أحد من الأذكياء ولا من البلداء لمـــا كان فى الايمان شىء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله .

ومن المتشـــابه :

(ا) ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة .

(ب) أو ما خالف ظاهر لفظه المراد .

وورود المتشابه بالمعنى الأول فى القرآن ضرورى ، لأن من أركان الدين ومقاصد الوحى الاخبار بأحوال الآخرة ، فيجب الايمان بما جاء به الرسل من ذلك على أنه من الغيب ، كما تؤمن بالملائكة والجن .

ونقول : انه لا يعلم تأويل ذلك أى حقيقـــة ما تؤول اليه هـــذه الألفاظ الا الله ، والراسخون فى العلم وغيرهم فى هـــذا سواء ، وانما يعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحس والعقل ، فيقفون عند حدهم

---

(١٦٤) يس : ٧٩ .

ولا يتطاولون الى معرفة حقيقة ما يخبر به الرسل عن عالم الغيب . لأنهم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه ، وانما سبيله التسليم « **يقولون آمنا به كل من عند ربنا** » .

فعلى هذا يكون الوقف على لفظ الجلالة لازماً فى الآية « **وما يعلم تأويله الا الله** » وانمـا خص الراسخين بما ذكر ، لأنهم هم الذين يفرقون بين المرتبتين : ما يجول فى علمهم ، وما لا يجول فيه .

ومن المحال أن يخلو الكتاب من هذا النوع فيكون كله محكما بالمعنى الذى يقابل المتشابه .

ومن الشواهد على أن التأويل هنا « **وما يعلم تأويله** » بمعنى ما يؤول اليه الشيء وينطبق عليه ، لا بمعنى ما يفسر به قوله تعالى : « **يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق** »(١٦٥) .

فتبين مما قررناه أنه لا يقال على هذا : لمـاذا كان القرآن منه محكم ومنه متشابه ؟ لأن المتشابه بهذا المعنى من مقاصد الدين ، فلا يلتمس له سبب لأنه جاء على أصله — أى فى الوضع الطبيعى — .

وأما التفسير الثانى للمتشابه ، وهو كونه ليس قاصراً على أحوال الآخرة ، بل يتناول غيرها من صفات الله التى لا يجوز فى العقل أخذها على ظاهرها ، وصفات الأنبياء التى من هذا القبيل ، نحو قوله تعالى : « **وكلمته ألقاها الى مريم** »(١٦٦) فان هذا مما يمنع الدليل العقلى والدليل السمعى من حمله على ظاهره . فهـذا هو الذى يأتى الخلاف فى علم الراسخين بتأويله . هل يعلمون تأويله أولا يعلمون تأويله ؟ بناء على أن الوقف عند لفظ الجلالة « **وما يعلم تأويله الا الله** » أو أنه لا وقف وانما يعطف على لفظ الجلالة كلمة « **والراسخون فى العلم** » .

فالذين قالوا بنفى العلم بالمتشابه عن الراسخين فى العلم أجابوا

---

(١٦٥) الأعراف : ٥٣ . (١٦٦) النساء : ١٧١ .

بأن حكمة تخصيص الراسخين بالتسليم والتفويض **هى تمييزهم بين** الأمرين واعطاء كل حكمه كما تقدم آنفا •

وأما القائلون **بالاثبات** — **الذين يردون ما تشابه ظاهره من صفات** الله أو أنبيائه **الى** أم الكتاب **الذى هو** المحكم ، **ويأخذون من مجموع** المحكم ما يمكنهم **من** فهم المتشـــابه — **فهؤلاء يقولون** : انه ما خص الراسخين **بهذا** العلم **الا** لبيان منع غيرهم من الخوض فيه ، **فهذا خاص** بالراسخين **لا يجوز** تقليدهم فيه ، **وليس** لغيرهم التهجم عليه ، **وهذا** خاص بما لا يتعلق بعالم الغيب •

٢ — وقد **جعل** الله المتشابه **فى** القرآن — **وبخاصة على** التفسير **الثانى** — حافزاً لعقل **المؤمن الى** النظر كيلا يضعف فيموت ، فان السهل الجلى جداً **لا عمل** للعقل فيه ، والدين أعز شيء **على الانسان** ، فاذا لم يجد فيه مجالا للبحث يموت فيه ، واذا مات فيه لا يكون حياً بغيره ، فالعقل شيء واحد **اذا قوى** فى شيء **قوى فى** كل شيء ، **واذا** ضعف **فى** شيء ضعف **فى** كل شيء • ولذلك قال **« والراســـــخون فى العلم »** ولم يقل : والراسخون **فى الدين** ، **لأن** العلم أعم وأشمل ، فمن رحمته **تعالى أن جعل فى** الدين مجالا لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، فهو يبحث **أولا فى تمييز** المتشابه من غيره ، وهذا يستلزم البحث فى الأدلة الكونية والبراهين العقلية وطرق الخطاب ووجوه الدلالة ، ليصل الى فهمه ويهتدى **الى تأويله** •

وهـــذا الوجه **لا** يأتى الا على قول من عطف **« والراســـخون »** على لفظ الجلالة **« وما يعلم تأويله الا الله والراســـخون فى العلم »**

٣ — **ان الأنبيـــاء** بعثوا الى جميـــع الأصناف من عامة النـــاس الى خاصتهم ، سواء أكانت بعثتهم لأقوام خاصة كالأنبياء السالفين عليهم السلام ، أو لجميع البشر كنبينا ﷺ • فاذا كانت الدعوة الى الدين موجهة الى العالم والجاهل والذكى والبليد والمرأة والخادم ، وكان من المعانى ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف حقيقته وتشرح كنهه بحيث

يفهمه كل مخاطب عاميا كان أو خاصيا • ألا يكون فى ذلك من المعانى العالية والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعريض ، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه الى الله تعالى ، والوقوف عند حد المحكم • فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده ؟

مثال ذلك : اطلاق لفظ « كلمة الله » و « روح من الله » على عيسى • فالخاصة يفهمون من هذا ما لا يفهمه العامة ، ولذلك فتن النصارى بمثل هذا التعبير ، اذ لم يقفوا عند حد المحكم ، وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله جنس أو أم أو ولد • والمحكم عندنا فى هـذا قوله تعالى : « **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم ، خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** »(١٦٧) • وفى انجيل يوحنا كذلك ١٧ : ٣ : « وهـذه هى الحياة الأبـدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك • ويسوع المسـيح الذى أرسـلته » •

● **تعقيب :**

وأضيف الى هذا أن المسـيح وآدم ونحن البشر جميعا سواسية فى أننا كلمة الله « **انما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون** »(١٦٨) وقال سبحانه فى آدم « **ونفخت فيه من روحى** »(١٦٩) وفى البشر يقول الرسول ﷺ : « وان أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم ينفخ فيه الروح ويؤمر بكتب رزقه وأجله وشقى أو سعيد » •

❊ ❊ ❊

● **ظواهر أخرى للمتشابه :**

ثم أضاف الشيخ الى هـذا قائلا : « ومن المتشابه ما يحتمل معانى متعددة وينطبق على حالات مختلفة • لو أخذنا منها أى معنى وحمل على أية حالة لصح •

---

(١٦٧) آل عمران : ٥٩ • (١٦٨) يس : ٨٢ •
(١٦٩) الحجر : ٢٩ ، وسورة ص : ٧٢ •

ويوجد هذا النوع فى كلام جميع الأنبياء • وهو على حد قوله تعالى : **« وانا أو اياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين »**(١٧٠) •

ومن المتشابه ابهام القرآن لمواقيت الصلاة لحكمة ، وقد بين النبى ﷺ ذلك فى بلاد العرب المعتدلة بالأوقات الخمسة للصلوات الخمس ، وما كانت العرب تعلم أن فى الدنيا بلاداً لا يمكن تحديد هذه المواقيت فيها ، كالبلاد التى تشرق فيها الشمس نحو ساعتين ، لا يزيد نهار أهلها على ذلك • أشار القرآن الى مواقيت الصلاة بقوله : **« فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون • وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون »**(١٧١) •

وسبب هذا الابهام : أن القرآن دين عام ، لا خاص ببلاد العرب ونحوها ، فوجب أن يسهل الاهتداء به حيثما بلغ ، ومثل هذا الاجمال والابهام فى مواقيت الصلاة يجعل لعقول الراسخين فى العلم وسيلة للمراوحة فيه واستخراج الأحكام منه فى كل مكان بحسبه ، فأينما ظهرت الحقيقة وجدت لها حكما فى القرآن •

وهذا النوع من المتشابه من أجل نعم الله تعالى ، ولا سبيل الى الاعتراض على اشتمال الكتاب عليه(١٧٢) •

* * *

● رد المتشابه الى المحكم :

قال الامام فى قوله سبحانه : **« وما يذكر الا أولوا الألباب » :** « أى وما يعقل ذلك وما يفهم حكمته الا أرباب القلوب النيرة والعقول الكبيرة ، وانما وصف الراسخون بذلك لأنهم لم يكونوا راسخين الا بالتعقل والتدبر لجميع الآيات المحكمة التى هى الأصول والقواعد ، حتى اذا ما عرض المتشـــابه بعد ذلك يتسنى لهم أن يتذكروا تلك القواعد المحكمة ، وينظروا ما يناسب المتشـــابه منها فيردوه اليه •

(١٧٠) سبأ : ٢٤ . (١٧١) الروم : ١٧ ، ١٨ .
(١٧٢) المنار ج ٣ ص ١٣٧ — ١٤٢ .

● **تفسير الامام المودودى :**

ولم يختلف ما قاله المودودى عما قاله محمد عبده ، فهو يقول :

المراد بالآيات المحكمات ما لا مجال للشك فى تحـديد مفهومها « **هن أم الكتاب** » يعنى أنها تحقق الغرض الذى نزل من أجله القرآن • وفيها تقررت العبادات والعقائد •

« **وأخر متشابهات** » : أى يحتمل مفهومها الظن أو الاشـتباه كالأمور التى وراء الحواس والغيبيات ، حيث لا يوجد فى لغة البشر ما يصورها تماماً فى ذهن كل سامع ، فكان استخدام الألفاظ التى هى قريبة الشبه بالمراد بيانه فى مسائل ما وراء الطبيعة ، لدفع الانسـان قريباً من الحقيقة ، وفى سـبيل الوصول اليها تتعدد الأفهام بين القرب والبعد الذى قد يشتط فيبعد بصاحبه عن المحكم الذى يسلم به المؤمن ، ولا يتجاوزه ، فان وجد المؤمن فى المتشابه ما يبعث فى نفسـه الشك ترك البحث فيه ، لأنه — فى الأساس — مستقر الايمان بالمحكمات • وهى حسبه (١٧٣) •

* * *

● **المتشابه والفلسفة الاشراقية :**

يتضح مما قاله الامام أن كلا من المحكم والمتشابه يدرك بالعقل والنص • وزعم أحد شبابنا المعاصرين الدارسين فى أمريكا أن وسـائل المعرفة اما العقل واما النص واما اشراق القلب بالحقيقة الالهية ، وأن الوسيلة الأخيرة • وهى اشراق القلب بالحقيقة — أعلى مراتب المعرفة •

وهذا معنى دخل الى التصوف من فلسفة شيطانية ، لأنه لا ضابط يميز الواردات التى تدخل الى النفس أو القلب • ما هو رحمانى حق ، أو شيطانى باطل ، والشيطان يلبس الباطل ثوب الحق فلا يستبين من

---

(١٧٣) تفهيم القرآن ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ •

جوهر الباطل شيء . **« وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون »**(١٧٤) **« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً »**(١٧٥) .

ولهذا كان تعبيرا موفقا تسمية هـذا المعنى « تلبيس ابليس » ذلك الذى أطلقه ابن الجوزى على كتابه الذى يدور فى هذا المعنى .

وربما كان قول الامامية الاثنى عشرية بعصمة أئمتهم (١٧٦) ، وقولهم « ان لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرب ولا نبى مرسـل »(١٧٧) « لأن الأئمة لا نتصور فيهم السهو أو الغفلة ، ونعتقد فيهم الاحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين »(١٧٨) . ربما كان هذا القول ناشئا عن هذا الوهم المتكرى القائل بأن اشراق القلب بالحقيقة أعلا مراتب المعرفة .

ثم انه لو كانت المعرفة الاشراقية أعلى مراتب المعرفة لكانت معرفة الرسل لله وللحقيقة وأمور الدين عن طريقها ولم تكن عن طريق الوحى والتعليم ، ولكان نزول الوحى عبثا .. بينما المتفق عليه أن الأنبياء والمرسلين هم أفضل الناس معرفة بالله والدين ، وذلك بما أوتوا من الوحى ، ولذلك فهم — دون غيرهم — مصدر الدين والشرع ..

وقد كان للأنبياء اجتهادات منبثقة عن عقولهم الكبيرة ، واشراق قلوبهم النقية ، ومع هذا كله نزل الوحى بغير ما أشرقت به قلوبهم ، وانقدح به زناد عقولهم ، كما فى موضوعات أسرى بدر ، وقد نزل فيها **« ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض »**(١٧٩) . وكان النبى قد انبثقت رحمته ورؤيته السياسية لأخذ فداء أسرى بدر ، وكاذنه للمنافقين الذين اعتذروا عن الخروج للجهـاد فنزلت الآية : **« عفـا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صـدقوا وتعلم**

---

(١٧٤) النمل : ٢٤ . (١٧٥) الكهف : ١٠٤ .

(١٧٦) الصلاة لمهدى عسيفى ص ٢٣ — ٢٥ من الفقرة (أ) من المـادة الثانية بالفصل السادس .

(١٧٧) الحكومة الاسـلامية للامام الخومينى ص ٥٢ ط بـيروت ، او صفحة ١٦ توزيع جمعية الطلبة المسلمين .

(١٧٨) المصدر السابق ص ٢٧ . (١٧٩) الأنفال : ٦٧ .

الكاذبين »[١٨٠] ، وكرحمته لأئمة الكفر حين رجا أن يسلموا فآثرهم بوقته وجهده ، وفى هذا نزلت أوائل سورة « **عبس وتولى • أن جاءه الأعمى »**[١٨١] ومن أجل هذا كانت أعلا وسائل المعرفة التى ينبنى عليها التشريع هى ما كانت عن طريق الوحى •• وقد انتهى الوحى بانتقال الرسول محمد ﷺ الى الرفيق الأعلى •• واكتمال نزول شريعة الاسلام : « **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينـا »**[١٨٢] •ولهذا قال الله لنبيه : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق »**[١٨٣] وقال : « **اقرأ وربك الأكرم • الذى علم بالقلم • علم الانسـان ما لم يعلم »**[١٨٤] وقال : « **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما »**[١٨٥] وقد وقع فيما قاله بعض الشيعة الامامية بعض المنتسبين الى التصوف ، وبعض الفلاسفة الوثنيين قبل الاسلام وبعده •

وطلب ابراهيم من ربه البراهين الحسية ، كما عرض على قومه لاقناعهم براهين من هذا النوع — ففى الأول قال : « **رب أرنى كيف تحيى الموتى ، قال أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى »**[١٨٦] — وفى الثانى يقول القرآن فى محاجـة قومه : « **فلما جن عليه الليـل رأى كوكبا ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قـوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطـر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين »**[١٨٧] •

وقد حسم الامام البنا الأمر فى هذه القضية فقال :

« وللايمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة

---

(١٨٠) التوبة : ٤٣ ، وانظر الآيات من ٤٢ — ٥٠ •
(١٨١) عبس : ١ ، ٢ • (١٨٢) المـائدة : ٣ •
(١٨٣) العلق : ١ • (١٨٤) العلق : ٣ — ٥ •
(١٨٥) النساء : ١١٣ • (١٨٦) البقرة : ٢٦٠ •
(١٨٧) الأنعام : ٧٦ — ٧٩ •

يقذفهما الله فى قلب من يشاء من عباده ، ولكن الالهـام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية ، ولا تعتبر الا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه »(١٨٨) .

وهل فساد المسيحية أو اليهودية الا ثمرة الاذعان لأمثال يوحنا ومتى وبولس الذين زعموا أن نفوسهم أشرقت بما كتبوه من الأناجيل ، واعتبروا هذا أسمى درجات المعرفة المعصومة . فضلوا عن سبيل الله ، وأضلوا غيرهم ، وأحدثوا فجوة بين الحقيقة الالهيـة التى نزلت بهـا النصوص ، وبين ما زعموه وحيا أشرقت به قلوبهم .

وهل الا من هذا القبيل تلك الشعارات السياسية التى تنطلق حول الأوثان البشرية فيقال لها : « الزعيم الملهم » أو « الامام المعصوم » أو « الميكـادو » أو « نبى المورمون » ممن يطلق عليهم خصـومهم السياسيون وصف « الديكتاتور » الذى تشقى به الشعوب وتستعبد من دون الله أو مع الله ؟ !

* * *

---

(١٨٨) رسالة التعاليم : ٣ — فى الفهم .

● **ما المراد بالمثل ؟**

قال الامام محمد عبده : المثـل فى اللغة : الشبه ، والشبيه ، وضربه عبارة عن ايقاعه وبيـانه ، وهو فى الكلام أن يذكر لحـال من الأحوال ما يناسبها ويشابهها ، ويظهر من حسنها أو قبحها ما كان خفيا .

قال ابن تيمية : والقياس عند الفقهاء هو ضرب المثل ، ولهذا يسمون الصورة القياسية « الضرب » كما يقال للنوع الواحد ضرب ، لتآلفـه واتفاقه ، وضرب المثل لمـا كان جمعا بين علمين يطلب منهما علم ثالث — يعنى الحكم المستنبط من وجود علة مشتركة بين المقيس والمقيس عليه أو المثل ومضرب المثل — كان بمنزلة ضراب الفحل الذى يتولد عنـه الولد ، ولهذا يقسمون الضرب الى ناتج وعقيم ، كما ينقسم ضرب الفحل للأنثى — أى تلقيحه اياها — الى ناتج وعقيم ، وكل واحد من نوعى ضرب المثل — وهو القياس — تارة يراد به التصوير وتفهيم المعنى ، وتارة يراد به الدلالة على ثبوته والتصـديق به ، فقياس تصـور ، وقياس تصديق ، فتدبر هذا » .

وكثيرا ما يقصد كلاهما ، فان ضرب المثل يوضح صورة المقصود ، وحكمـه .

وضرب الأمثال فى المعانى نوعان هما نوعا القياس :

أحدهما : الأمثال المعينة التى يقاس فيها الفرع بأصل معين موجود ، أو مقدر ، وهى فى القرآن بضع وأربعـون مثلا ، كقـوله تعـالى : « **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** »(١٨٩) الى آخره ، وقوله : « **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة** »(١٩٠) ، وقوله : « **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن**

---

(١٨٩) البقرة : ١٧ .　　(١٩٠) البقرة : ٢٦٠ .

والذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً »(١٩١) •

[والصفوان الحجر الأملس الذى عليه تراب « **أصابه وابل** » **أى** مطر غزير • « **فتركه صلداً** » أملس نقيا من التراب] •

فان التمثيل بين الموصوفين الذين يذكرهم من المنافقين ، والمنفقين ، والمخلصين منهم والمرائين ، وبين ما يذكره سبحانه من تلك الأمثال هو من جنس قياس التمثيل •

وقوله « مثله كمثل كذا » تشبيه للمثل العلمى بالمثل العلمى ، لأنه هو الذى بتوسطه يحصل القياس ، فان المعتبر ينظر فى أحدهما فيتمثل فى علمه ، وينظر فى الآخر فيتمثل فى علمه ، ثم يعتبر أحد المثلين بالآخر ، فيجدهما سواء ، فيعلم أنهما سواء فى أنفسهما ، لاستوائهما فى العلم ، ولا يمكن اعتبار أحدهما بالآخر فى نفسه حتى يتمثل كل منهما فى العلم ، فان الحكم على الشىء فرع على تصوره ، ولهذا والله أعلم يقال : مثل هذا كمثل هذا « **مثلهم كمثل الذى استوقد** » • « **فمثله كمثل صفوان ..** » •

وبعض المواضع يذكر سبحانه الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريح بذكر الفرع ، كقوله « **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها اعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** »(١٩٢) فان هذا يحتاج الى تفكر ، ولهذا سأل عمر عنها من حضره من الصحابة فأجابه ابن عباس •

ونظير ذلك القصص فانها كلها أمثال هى أصول قياس واعتبار • قال تعالى : « **ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار** »(١٩٣) والاعتبار هو

---

(١٩١) البقرة : ٢٦٤ • (١٩٢) البقرة : ٢٦٦ •
(١٩٣) آل عمران : ١٣ •

القياس بعينه ، كما قال ابن عباس لما سئل عن دية الأصابع فقال : « هي سواء ، واعتبروا ذلك بالأسنان » أي قيسوها بها ، فان الأسنان مستوية الدية مع اختلاف المنافع ، فكذلك الأصابع .

ثانيهما : الأمثال الكلية : وهذه تكون القضايا الكلية التى تعلم وتقال هى مطابقة مماثلة لكل ما يندرج فيها ، وتسمى قياسا فى لغة السلف واصطلاح المنطقيين ، كما يسمى تمثيل الشيء المعين بشيء معين « قياس التمثيل » عند السلف والمناطقة .

وقد أشكل تسمية الأمثال الكلية « أمثالا » كما أشكل تسميتها «قياسا» حتى اعترض بعضهم فقال : «أين المثل المضروب فى قوله تعالى : **« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له »**(١٩٤) وكذلك اذا سمعوا قوله تعالى : **« ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل »**(١٩٥) يبقون حيارى لا يدرون ما هذه الأمثال ، وقد رأوا عدد ما فيه من تلك الأمثال المعينة بضعا وأربعين مثلا » .

ومعلوم أنه ليس كل ما يضرب مثلا يكون منه قياس منتج لحقيقة علمية ، ولهذا يقال : لا قياس عن قضيتين جزئيتين ، بل لابد أن تكون احداهما كلية ، ولا قياس أيضا عن سالبتين (١٩٦) بل لابد أن تكون احداهما موجبة .

ومما يجب أن يعلم أن غالب الأمثال المضروبة ، والأقيسة ، انما يكون الخفى فيها احدى القضيتين ، وأما الأخرى فجلية معلومة ، فضارب المثل وناصب القياس انما يحتاج أن يبين تلك القضية الخفية فيعلم بذلك المقصود لما قاربها فى الفعل من القضية السلبية ، والجلية هى الكبرى التى هى أعم .

فان الشيء كلما كان أعم كان أعرف فى العقل لكثرة مرور مفرداته

---

(١٩٤) الحج : ٧٣ . (١٩٥) الروم : ٥٨ ، الزمر : ٢٧ .

(١٩٦) السالبة جملة منفية مثل « لا شيء » ، أو « ليس كذا » .

فى العقل ، وخير الكلام ما قل ودل ، فلهذا كانت الأمثال المضروبة فى القرآن تحذف منها القضية الجلية ، لأن فى ذكرها تطويلا ، وكذلك ذكر النتيجة المقصودة بعد ذكر المقدمتين يعد تطويلا .

ويضل ويخطىء من يقول : ليس فى القرآن برهان تام . أو أن الطريقة الكلامية البرهانية فى أساليب البيان ليست فى القرآن الا قليلا .. وذلك لأن القرآن يقوم على الطريقة البرهانية المستقيمة .

وذلك أن مدار ضرب المثل ونصب القياس على العموم والخصوص والسلب والايجاب ، وذلك يجىء فى القرآن على أبلغ نظام .

والأمثـال منها ما يضرب من جهـة المعنى كالذى سبق ذكره ، وكالاستفهام الانكارى مثل : **« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم »**(١٩٧) . **« ضرب لكم مثلا من أنفسكم ، هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم »**(١٩٨) .

وهناك المثل المضروب عن نوع من الألفاظ فيستفاد منه التعبير كما يستفاد من اللغة ، لكن لا يستفاد منه الدليل على الحكم كأمثال القرآن ، كالمثل القائل : « قطعت جهيزة قول كل خطيب » .. وقد يكون المعنى فى هذا النوع من الأمثال باطلا .. أو وهما .

* * *

● **ضرب المثل بالبعوضة :**

قال الله تعالى : **« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهـذا مثلا يضل به كثيراً ويهـدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعـد ميثـاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسـدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون »**(١٩٩) .

---

(١٩٧) يس : ٧٨ . (١٩٨) الروم : ٢٨ .
(١٩٩) البقرة : ٢٦ ، ٢٧ .

● **ما وجه الاعتراض ؟**

قال الامام : لم يخـرج الكلام عن الموضـوع الأصـلى وهو « الكتاب الذى لا ريب فيه » وحال الناس فى الايمان به وعدم الايمان ولا فصل (٢٠٠) فى حالة هذا الوصل بين أن يكون الكلام رداً على اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت كما يروى عن ابن عباس — وهو ما جرى عليه المودودى فى تفهيم القرآن •

أو : رداً على المنافقين الذين أنكروا الأمثال فى الآيات السابقة بمستوقد النار ، والصيب من السماء ، زاعمين أنه لا يليق بالله ضرب الأمثال •

أو يكون المراد بالمثل القدوة تقريراً لنبوة النبى ﷺ •

وهـذا المعنى للمثل معروف ، وقد نطق به القـرآن فى قوله : **« ان هو الا عبـد أنعمنـا عليه وجعلنـاه مثلا لبنى اسرائيـل »**(٢٠١) فهذه الآية تهدينا الى فهم قوله تعالى : **« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما »** ،وأن المراد به دحض شبهة الذين أنكروا نبوة النبى ﷺ وصلاحيته لأن يكون مثلا يقتدى به ، وشبهتهم أنه بشر يأكل ويمشى فى الأسواق ، وهم المشركون ، ودحض شبهة الذين أنكروا أن يكون من العرب ، وهم اليهود •

أما على الأول (٢٠٢) فيقال : انه انما نص على نفى الاسـتحياء من ضرب أى مثـل • ولم يذكر ذلك هنـاك عند تمثيل الأوليـاء الذين اتخذوهم من دون الله بالذباب والعنكبوت ، لأن المقام هنا مقام ذكـر الاعتراض الموجه على القرآن ، فيكون هذا مقام رد شبه المكابرين عنه •

وأما على الثانى والثالث (٢٠٣) فهو أظهر •

---

(٢٠٠) أى ولا فرق •   (٢٠١) الزخرف : ٥٩ •

(٢٠٢) الأول : ضرب المثل بالمحقرات كالذباب والعنكبوت رداً على اليهـود •

(٢٠٣) الثانى : الرد على المنافقين فى انكار التمثيل بمستوقد النار والصيب من السماء ، والثالث : جعل النبى مثلا أو قدوة •

على أنه لا حاجة فى فهم الآية الى ما قالوه فى سببها ، فان لم تكن ردآ لمـا قيل ، فهى رد لمـا يقال أو يجول فى خواطر آهل المكابرة والجدال والمجاهدة والمحال •

والاستحياء : قال صاحب الكشاف : انه من الحياء • وهو انكسار فى النفس يلم بها اذا نسب اليها ، أو عرض لها فعل تعتقد قبحه ، وفى الحالة الثانية يكون مانعاً من الفعل الذى يعرض • يقال : فلان يستحى أن يفعل كذا • أى أن نفسه تنكسر فتنقبض عن فعله •

وقالوا : ان الحياء ضعف فى الحياة بما يصيب موضعها وهو الـ فمعنى عدم استحياء الله تعالى أنه لا يعرض له ذلك الانكسار والانفعال ، ولا يعتريه ذلك التأثر والضعف فيمتنع عن ضرب المثل ، بل هو يضرب من الأمثال الهادية والمطابقة لحال الممثل به ، ما يعلم أنه يجلى الحقائق ويؤثر فى القلوب •

ولكن صاحب الكشاف وغيره أرادوا أن يجعلوا الآية دليلا على اتصاف الله بالحياء فقالوا : ان النفى خاص — أى نفى الحياء خاص بموضوع محدد فى الآية — ، ومثله اذا ورد على شىء يدل على أن ذلك الشىء قابل للاتصاف بالمنفى • فمن لا قدرة له على شىء لا ينفى عنه • لا تقول : ان عينى لا تسمع وأذنى لا ترى — لأن العين لا قدرة لها على السمع ، والأذن لا قدرة لها على الرؤية ، ولهذا لا تقال هذه العبارة فى العرف — •

وقالوا : ان معنى نفى الاستحياء هو أن الله تعالى لا يرى من النقص أن يضرب مثلا ما ، بعوضة فما دونها ، لأنه خالق كل شىء ، وقد ورد فى الحديث نسبة الحياء الى الله تعالى (٢٠٤) •

والنافون نسبة الحياء اليه يؤولون ما ورد بأثره وغايته •

ولمـا كان المراد به بيان الأحوال كان قصة وحكاية ، واختير له

---

(٢٠٤) مروى عن يعلى بن أمية وعن سلمان الفارسى ، اخرجهما احمد وأبو داوود ، وأخرج النسـائى الأول والترمـذى وابن ماجه الروايتين وحسنوهما .

لفظ الضرب ، لأنه يأتى عند ارادة التأثير وهيج الانفعـال • كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره الى قلبه ، وينتهى الى أعماق نفسه ، ولكن فى الكلام قلبا ، اذ جعل المثل هو المضروب ، وانما هو مضروب به •

قال رشيد رضا : هذا هو الذى قاله الأستاذ ، وهو أبلغ فى المعنى من جعل الضرب للمثل كضرب القبة والخيمة أو ضرب النقود •

واذا كان الغرض التأثير فالبلاغة تقضى بأن تضرب الأمثال لما يراد تحقيره والتنفير عنه بحال الأشياء التى جرى العرف بتحقيرها • ولذلك قال بعضهم : ان المنكرين لم يروا فى القرآن شيئاً يعاب فتمحلوا بقولهم هذا •

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً : انه لدميم

وجـروا فى ذلك على عادة المتحـذلقين المتكيسـين (٢٠٥) ، اذ يتحامون (٢٠٦) ذكر الألفـاظ التى مدلولاتها حقيرة فى العرف • واذا اضطروا لذكرها شفعوها بما يشفع لها كقولهم : « أجلكم الله »(٢٠٧) •

واذا كان شأن المثل ما ذكرنا •• كان قوله تعالى : **« ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »** : مبينا لشأن من شئون كماله عز وجل ، وقاضـيا على الذين يتحامون ذكر البعوضـة وأمثالها بنقص العقل وخسران ميزان الفضل •

والمراد بما فوق البعوضة ما علاها وفاقها فى مرتبة الصغر ، ومنها النسم « الميكروبات » وكانوا يضربون المثل بمخ النملة •••• وفى كلام بلغائهم « أسمع من قراد ، وأطيش من فراشة وأعز من مخ البعوضة » •

ثم ذكر تعالى أن الناس فى ذلك فريقان :

(أ) « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » لأنه ليس نقصاً فى حد ذاته ، وقد جاء فى كلامه تعالى ، فهو ليس نقصاً فى جانبه وانما هو حق ، لأنه مبين للحق ، وسائق الى الأخذ به ، بما له من التأثير

---

(٢٠٥) أى المتكلفين للحذق ، والكيس : هو الظرف .
(٢٠٦) يتحاشون ويتركون .
(٢٠٧) ومثلها فى عصرنا كلمة « لامؤاخذة » .

فى النفس ، وذلك أن المعانى الكلية تعرض للذهن مجملة مبهمة فيصعب عليه أن يحيط بها وينفذ فيها فيستخرج سرها ، والمثل هو الذى يفصل اجمالها ، ويوضح ابهامها .

(ب) « **وأما الذين كفروا** » : فيجادلون فى الحق بعد ما تبين ، ويخرجون من الموضوع ويعرضون عن الحجة ، ويتبعون الكلم المفرد ، حتى اذا ظفروا بكلمة لا يستعذبها ذوق المتظرفين ، ولا تدور على ألسنة المتكلفين . أظهروا العجب منها ، وطفقوا يتساءلون عنها « **فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا** » . يذهب به جدله الى قياس رب العالمين بمتنطعى المتأدبين ، وينكر على ربه المثل والقياس . ولا ينكره على نفسه وعلى الناس .

قال تعالى فى جوابهم : « **يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً** » .

أى يضل بالمثل ، أو بالكلام الذى يضرب فيه المثل ... أولئك الذين يجعلون المثل شبهة على الانكار والريب « فى أنه كلام الله » .

ويهدى به الله الذين يقدرون الأشياء بغاياتها ، ويحكمون عليها بحسب فائدتها ، وأنفع الكلام ما جلى الحقائق وهدى الى أقصد الطرائق ، وساق النفوس بقوة التأثير الى حسن المصير « **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون** »(٢٠٨) .

« **وما يضل به الا الفاسقين** » : علة ضلالهم هى الفسوق . أى الخروج عن هداية الله فى سننه فى خلقه التى هداهم اليها بالعقل والمشاعر ، وبكتابه بالنسبة الى الذين أوتوه .

وليس المراد بالفاسقين ما هو معروف فى الاصطلاحات الشرعية وهم العصاة بما دون الكفر من المعاصى ، فانه لا يصح هنا . وتلك الاصطلاحات حادثة بعد التنزيل (٢٠٩) .

---

(٢٠٨) العنكبوت : ٤٣ .

(٢٠٩) يعنى الامام : أن المراد بالفاسقين هنا هم الجاحدون ومثيرو الريبة فى القرآن وما نزل به من الحقائق والموصوفون بقوله سبحانه بعد ذلك : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض** » (البقرة : ٢٧) ، وسيأتى

وقد كان التعبير بـ « يضل » مشعراً بأن المثل هو منشأ الاضلال والهداية بذاته • فنفى ذلك بهذه الجملة • ليبين أن منشأ الضلال — ليس المثل وانما الضلال — راسخ فيهم وفى أعمالهم وأحوالهم •

ثم ان الآية تشعر بأن المهتدين فى الكثرة كالضالين • مع أن هؤلاء أكثر ، وكأن الحكمة فى التسوية افادة أن المؤمنين المهتدين — على قلتهم — أجل فائدة وأكثر نفعاً وأعظم آثاراً من أولئك الكفار الفاسقين الضالين — على كثرتهم — لأن المؤمنين كما قيل :

* قليل اذا عدوا كثير اذا شدوا *

ولذلك جعل الواحد فى القتال بعشرة فى حالة القوة والعزيمة ، وباثنين فى حال الضعف •

قيل : هو ضعف البدن ، وقيل بل ضعف البصيرة •

وأما وجه تقديم الاضلال على الهداية — فى نص الآية — فلأن سببه ومنشأه من الكفر متقدم فى الوجود ، وانما جاءت الآيات المبينة الأمثال لاخراجهم مما كانوا فيه من ظلمات الباطل الى نور الحق • فزادت الفاسقين رجساً على رجسهم • لأن نور الفطرة قد انطفأ من نفوسهم بتماديهم فى نقض العهد ، وقطع الوصل ، والافساد فى الأرض •

وقد علم بما ذكر أن فى الآية « لفاً ونشراً »(٢١٠) غير مرتب • فان الضلال ذكر أولا ، وهو للفريق الثانى « **الذين كفروا** » ، والهدى ذكر آخراً وهو للفريق الأول « **الذين آمنوا** » •

وهذا مبنى على أن المراد بالمثل المثل الكلامى كما عليه الجمهور • أخذاً مما ورد فى أسباب النزول •

وتقدم عن بعضهم أن المراد بالمثل فى الآية القدوة الذى يؤتم به ويهتدى بهديه •

---

(٢١٠) مصطلح عند علماء البلاغة وقد شرح بعد ذلك فى نفس الفقرة •

ومحصل القول : أن الله تعالى خالق كل شيء ، فيجعل ما شاء من المنفعة والفائدة فيما شاء ، ومن شاء من خلقه ، ويضربه مثلا للناس يهتدون به ، وليس هذا نقصاً فى جانب الألوهية فيستحى من ضربها مثلا ، بل من الكمال والفضل أن يجعل فى المخلوقات الضعيفة والمحتقرة فى العرف — كالبعوض — فوائد ومنافع ، فكيف يستنكر أن يجعل من الانسان الخامل الذى كرمه وخلقه فى أحسن تقويم مثلا واماما يقتدى به قومه ويهتدون بهديه ؟

وبقية الكلام فى الآية على هذا الوجه فى معنى المثل هو نحو ما تقدم تقريره ، أو ظاهر منه أتم الظهور . فان الذين آمنوا يعلمون أن هذا الامام الذى نصبه للناس — مهما يكن ضعيفا قبل أن يقويه ببرهانه — هو الحق الذى ثبت تأييده من ربهم ، والكافرون يقولون : لم لم يبعث الى الناس من هو خير منه فى نظرهم ؟ وماذا يريد بأن يجعل لهم قدوة فى أضعفهم وأهونهم ؟ وهكذا تقول فى قوله « **يضل به كثيراً** » الخ .

وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوانات والاستفادة من خصالها وأعمالها ، ويحكى عن بعض كبار العباد أنه قال : تعلمت المراقبة من القط .

وعن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتاباً نحواً من ثلاثين مرة فلم يفهمه ، فيئس منه وتركه ، فرأى خنفسة تتسلق جداراً وتقع ، فعد عليها الوقوع فزاد على ثلاثين مرة ، ولم تيأس حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه والانتهاء الى حيث أرادت . فقال : لن أرضى أن تكون هذه الخنفساء أثبت منى وأقوى عزيمة ، فرجع الى الكتاب فقرأه حتى فهمه .

ويقال : ان « تيمورلنك » كانت تحدثه نفسه بالملك من أول نشأته ، على ما كان من فقره ومهانته ، فسرق مرة غنما — وكان لصا — ففطن له الراعى فرماه بسهمين أصابا كتفه ورجله فعطلاهما ، فآوى الى خربة وجعل يفكر فى مهانته ويوبخ نفسه على طمعها فى الملك ، ولكنه رأى

نملة تحمل تبنة وتصعد الى السقف ، وعندما تبلغه تقع ثم تعود ، وظلت على ذلك عامة الليل حتى نجحت فى الصباح • فقال فى نفسه : والله لا أرضى بأن أكون أضعف عزيمة من النملة ، وأصر على عزمه حتى صار ملكا ، وكان من أمره ما كان •

* * *

● **التهكم بالمثل :**

وأضيف الى ما قاله الامام صورة أخرى من الضلال بضرب المثل تشبيها للحق بالباطل كاتهام الرسل بأنهم بما أتوا به كالسحرة أو المجانين ، وفى القرآن الكـريم : « **انظر كيف ضربوا لك الأمثـال فضـلوا فلا يستطيعون سبيلا** »(٢١١) •

قال ابن كثير : أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفـار قريش : أبو سـفيان وأبو جهـل والأخنس بن شريق حين جاءوا يسـتمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم ، فقـالوا : انه رجل مسحور له رئى يأتيه بما استمعوه من الكلام الذى يتلوه • ولهـذا قال تعالى : « **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضـلوا فلا يسـتطيعون سبيلا** » أى فلا يهتدون الى الحق ولا يجدون اليه مخلصا •

وفى هذا نزل أيضا قوله تعالى فى سورة الفرقان : « **وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحوراً • انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضـلوا فلا يستطيعون سبيلا** »(٢١٢) وانما ضلوا بما قذفوه به من تهم فكـذبوه وقالوا عنه مرة انه ساحر ومرة انه مسحور « **فلا يستطيعون سبيلا** » وذلك أن كل من خرج عن الحق وطرق الهدى فانه ضال حيثما توجه لأن الحق واحد ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضا •

* * *

---

(٢١١) الاسراء : ٤٨ ، الفرقان : ٩ •
(٢١٢) الفرقان : ٨ ، ٩ •

● **صفات الضالين بالفسوق :**

ثم بين القرآن صفات هؤلاء الفاسقين فأبرز منها صفات ثلاث يضل بها الناس عن طريق الرشاد فقال : « **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون** »(٢١٣) •

جاء فى المنار : وصف الضالين بالفسوق ، ثم بين من حال فسوقهم :

١ — نقض العهد الموثق •

٢ — وقطع ما يجب أن يوصل •

٣ — والافســاد فى الأرض ، وسـجل بذلك عليهم الخسران وحصرهم فى مضيقه ، بحيث لا يسلم منه الا من رجع عن فسوقه •

● **تعقيب :**

أقول : وفى هـذا نزلت الآيات الأخرى فى بيـان الضـالين :

« **ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل** »(٢١٤) •

« **ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً** »(٢١٥) •

« **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا**»(٢١٦)

«**أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة** »(٢١٧) •

ومن الضلال والفسق : الردة بعدى الهدى للاسلام «**ومن يرتدد منكم عن دينـه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمـالهم** »(٢١٨) — ومن الضالين عبادة الأوثان — كالبوذيين اليوم — فهى ضلالة ومضلة لأن العوام وسطحيى التفكير يميلون الى ما يمثل لهم الاله والى ما يحسونه ويرونه ولهذا كانت الأوثان سببا فى ذاته الاضلال ، وفى مقالة لابراهيم عليه

---

(٢١٣) البقرة : ٢٧ •
(٢١٤) البقرة : ١٠٨ •
(٢١٥) النساء : ١١٦ •
(٢١٦) الأحزاب : ٣٦ •
(٢١٧) البقرة : ١٧٥ •
(٢١٨) البقرة : ٢١٧ •

السلام « **رب أنهن أضللن كثيراً من النـــاس** »(٢١٩) وقال ســبحانه : «**وجعل لله أنداداً ليضل عن ســبيله** »(٢٢٠) — « **وجعلوا لله أنـــداداً ليضلوا عن سبيله** »(٢٢١) .

ومن أنواع الضلالة التى ذكرها القرآن : الاضلال للناس باللهو من الحديث — قصه أو مسرحية أو أغنية أو مقالة — اذا كان شىء من هذا لغواً من القول وزوراً كما فى الحديث : « أن أحدكم ليقول الكلمة يضحــك بها النـــاس — وفى رواية : لا يلقى لها بالاً — يهوى بها فى جهنم سبعين خريفاً » .

وفى القرآن الكريم بيان أن هذا من الضلال حيث يقول الله سبحانه : « **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم** »(٢٢٢) .

ومن الضلالة الافساد فى الأرض بالنسىء : وهو أن يعلن النسأة فى موسم الحج أن شهراً من الأشهر الحرم التى اعتاد العرب تحريم القتال فيها — قد أحلوه واستبدلوا به شهراً آخر ، ففى النسىء تشجيع على الحرب والدمار ، قال تعالى : « **أنمـــا النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهـــدى القوم الكافرين** »(٢٢٣) .

ثم انه مظهر للاحتيال على الشريعة وجعلها تمضى مع تقديرنا الشخصى لمصالحنا وأهوائنا — بينما الشريعة للصالح العام الذى يعلو فوق المصالح والأهواء الشخصية .

وهو كذلك مظهر للكذب يستمرئه الناس ، والله يحب الصدق فى الأمر كله : فى الشهر الذى نقول انه من الأشهر الحرم أم لا ، وفى الابن أهو ابن حقيقة أم متبنى ، وفى الظهار — أى قول الرجل لزوجته :

---

(٢١٩) ابراهيم : ٣٦ . (٢٢٠) الزمر : ٨ .
(٢٢١) راجع فصل الأنداد فى كتابنا « المصطلحات الأربعة بين الامامين المودودى ومحمد عبده » — والآية من سورة ابراهيم : ٣٠ .
(٢٢٢) لقمان : ٦ . (٢٢٣) التوبة : ٣٧ .

أنت على كظهر أمي ، وكان هذا من صيغ الطلاق في الجاهلية فأنكر القرآن ذلك وقال : « **وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل** »[٢٢٤] ويقول : « **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ، ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم ، وانهم ليقولون منكراً من القول وزوراً** »[٢٢٥] .

ومن مظاهر الضلالة : البخل بحقوق الفقراء ، كمثل أصحاب الجنة — أى الحديقة — الذين بخلوا بحقوق الفقراء فخربها الله وهو مثل ضربه الله لكفار قريش وبخلائها حين تحدث عن الوليد بن المغيرة فقـال : « **مناع للخير معتد أثيم • عتل بعد ذلك زنيم • أن كان ذامال وبنين • اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** »[٢٢٦] • فهو يأخذ كل صفات اليهود ، منع الخير ، والعدوان الأثيم القاسى — والدعارة فهو ليس ابن حـرة شريفة — وهو يجعل المـال غايته فى الحيـاة ، وهو يبدل الحقائق والأخبار فيقول ان القرآن مجموعة أساطير — ثم ينذره القرآن بقتله بضرب وجهه يوم بدر « **سنسمه على الخرطوم** »[٢٢٧] ثم يذكر قصة الأشحاء بالخير فقال :

« **انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنـة اذ أقسـموا ليصرمنها مصبحين** »[٢٢٨] • **ولا يستثنون** [٢٢٩] • **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون • فأصبحت كالصريم** »[٢٣٠] •

ومن هـذا القبيل تبرير البخلاء لبخلهم « **واذا قيـل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين** »[٢٣١] •

---

(٢٢٤) الأحزاب : ٤ • (٢٢٥) المجادلة : ٢ .
(٢٢٦) القلم : ١٢ — ١٥ . (٢٢٧) القلم : ١٦ .
(٢٢٨) يعنى يجنون فواكهها فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الفقراء فيذهبون اليهم لأخذ الزكاة المفروضة .
(٢٢٩) أى لم يقولوا : ان شاء الله •
(٢٣٠) القلم : ١٧ — ٢٠ • (٢٣١) يس : ٤٧ .

ثم يذكر القرآن الدافع الى هذا البخل وعوامل الفساد وهو عدم الايمان بالآخرة فقال : **« ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين »**(٢٣٢) ويجيبهم القرآن من الواقع المشاهد ، وهو الموت الذى يرونه كل يوم يختطف الناس حولهم يأتيهم جملة عند نهاية العالم ٠

« ما ينظرون الا صـيحة واحـدة تأخذهم وهم يخصـمون ٠ فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون ٠ ونفخ فى الصـور فاذا هم من الأجداث (٢٣٣) **الى ربهم ينسلون ٠ قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا »**(٢٣٤) ٠

ولأن هذا هو شأن الله وحده ، فانه يعلن أن الصيحة بها يفنى العالم ، وأن الصيحة بها يحيا العالم مرة أخرى ٠٠ فان الأسبـاب ليست — فى حقيقتها — صانعة النتائج — الا أن يشاء الله ، وذلك كقوله تعالى : **« ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض الا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون »**(٢٣٥) ٠

* * *

● **كتمان الحقائق الدينية :**

ولقد أخذ الله الميثاق على الناس أن يبينوا للناس الحقيقة الدينية التى نزلها للرسل :

قال الله تعالى : **« ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعـد ما بينـاه للنـاس فى الكتـاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »**(٢٣٦) ٠

قال أبو العالية : نزلت هذه الآية فى أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شىء على صنيعهم ذلك ٠٠ فكما أن العالم الذى يبلغ رسالة ربه يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى المـاء ، والطـير فى الهواء ، فهؤلاء بخلاف العلمـاء ، فيلعنهم الله ويلعنهم

---

(٢٣٢) يس : ٤٨ ٠
(٢٣٣) الأجداث : القبور ٠
(٢٣٤) يس : ٤٩ — ٥٢ ٠
(٢٣٥) الزمر : ٦٨ ٠
(٢٣٦) البقرة : ١٥٩ ٠

اللاعنون ، وعن أبى هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : « من سئل عن علم فكتمه ألجمه يوم القيامة بلجـام من نار » ، وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحـداً شيئا : « **ان الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** » .

وفى القرآن آيات كثيرة تنذر بسوء عاقبة الذين يكتمون العلم النافع الهادى الى الآخرة عن الناس ، وبخاصة حين تكون الحقيقة الدينية لا تتفق وأهواءهم أو لا تتفق والسياسة العامة أو التقـاليد السائدة ، قال تعالى : « **الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبنـاءهم ، وان فريقـا منهم ليكتمـون الحق وهم يعلمـون** »(٢٣٧) أولئك الذين يتجرون بالفكر والثقافة والاعلام فيجعلون الدين فى خدمة السياسة الضالة ومذاهبها الاجتماعية الهدامة تحت شعار « الدين فى خدمة المجتمع » يعنون تطويع الدين لخدمة السلطات والنظم المتسلطة ، قال الله فى شـأنهم : « **ان الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتـاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم الا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم** »(٢٣٨) .. فاذا اقتضى الموقف حربا فى سبيل الله برروا جبنهم بأكاذيب يفتعلونها قال الله فيهم « **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما يكتمون** »(٢٣٩) .. واذا اقتضى العمل لدين الله بذلا كما هو حال المجاهدين فى أفغانستان وغيرها بخلوا بأموالهم .. وبرروا سياسة البخل ، وكتموا ما يعلمونه من الحق الواجب كما كتم اليهود ما يعلمونه عن الرسـول لهوى فى نفوسهم ، قال تعـالى : « **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا** »(٢٤٠) .

(٢٣٧) البقرة : ١٤٦ .
(٢٣٨) البقرة : ١٧٤ .
(٢٣٩) آل عمران : ١٦٧ .
(٢٤٠) النسـاء : ٣٧ .

والله يتهدد هؤلاء الذين يكتمون الحقيقة ، ويجعل صفة الكتمان هذه صفة للكفر ومعصية الرسول فيقول : « **يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا** »(٢٤١) .. ويجعل كتمان الحقيقة فى مجتمعات المسلمين ومؤتمراتهم كثيراً . أو معصية دافعها كفر باطن يظهر صاحبه الاسلام ، فيقول سبحانه : « **واذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون** »(٢٤٢) .

وارحمتاه لعلماء الاسلام اليوم فى محنتهم مع سفراء المسيخ الدجال .. « **فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** »(٢٤٣) .

وطوبى لمن آثروا الله والدار الآخرة ، فلم يكتموا كلمة حق وفى الحديث : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها فأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع » وفى الأثر : « سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ورجل قام الى امام جائر أمره ونهاه فقتله » وحقيقة هذا الأثر تصورها وتصدقها قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج .. وقصة الدعوة فى سيرة أولى العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

وعن الحسن البصرى ، فى قوله تعالى : «**ومما رزقناهم ينفقون**»(٢٤٤) قال : ان من أعظم النفقة نفقة العلم . وقال آخر : « نعمت العطية ، ونعمت الهدية ، الكلمة من الخير يسمعها الرجل فيهديها الى أخ له مسلم » وعن أبى الدرداء : « ما تصدق عبد بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها اخوانا له مؤمنين ، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها » .

* * *

● **العهـــد :**

ودل ذكر العهد والسكوت عما يفسره ، واطلاق ما أمر الله به أن يوصل بدون ما يفصله . على أن الله تعالى ما وصفهم الا بما هم

---

(٢٤١) النساء : ٤٢ .
(٢٤٢) المائدة : ٦١ .
(٢٤٣) البقرة : ٧٩ .
(٢٤٤) البقرة : ٣ .

متصفون به ، ولا حاجة الى بيان المجمل بالقول اذا كان الوجود قد تكفل ببيانه ، والواقع قد فسره بلسانه ، ويرشد الى فهم العهد الالهى ما قلناه فى معنى الفسوق .

فعهد الله تعالى : هو ما أخذهم به ، يمنحهم ما يفهمون به هذه السنن المعهودة للناس بالنظر والاعتبار ، والتجربة والاختبار ، أو بالعقل والحواس المرشدة اليها ، وهى عامة والحجة بها قائمة على كل من وهب نعمة العقل ، وبلغ سن الرشد سليم الحواس .

ونقضه : عبارة عن عدم استعمال تلك المواهب استعمالا صحيحاً ، حتى كأنهم فقدوها وخرجوا من حكمها . كما قال تعالى : **« لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون »**(٢٤٥) . وكما قال فيهم أيضاً : **« صم بكم عمى فهم لا يعقلون »**(٢٤٦) .

هذا هو القسم الأول من العهد الالهى وهو العام الشامل ، والأساس للقسم الثانى المكمل الذى هو الدين ، فالعهد فطرى خلقى ، ودينى شرعى ، فالمشركون نقضوا الأول ، وأهل الكتاب الذين لم يقوموا بحقه نقضوا الأول والثانى جميعا ، وأعنى بالناقضين من أنكر المثل من الفريقين .

وقد جرى « أبو الأعلى » على تفسير العهد بأمر الله لعباده بالطاعة والاذعان له منذ خلق آدم (٢٤٧) ولعله متأثر بحديث الذر الذى أورده الجمهور فى تفسير الآية **« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا بلى .. »**(٢٤٨) .

* * *

---

(٢٤٥) الأعراف : ١٧٩ .
(٢٤٦) البقرة : ١٧١ .
(٢٤٧) تفهيم القرآن : ٥٧/١ .
(٢٤٨) الأعراف : ١٧٢ .

● **والميثــاق :**

اسم لمـا يوثق به الشيء ويكون محكما يعسر نقضه •

والله تعالى قد وثق العهد الفطرى بجعل العقول — بعد الرشد — قابلة لادراك السنن الالهية فى الخلق ، ووثق العهد الدينى بما أيــد به الأنبياء من الآيات البينات والأحكام المحكمات • وقد وثق العهد الأول بالعهد الثانى أيضاً • فمن أنكر بعثة الرسل ولم يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله ، فاسق عن سننه فى تقويم البشرية وانمائها ، وابلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الانسانى الممكن لها •

أما المودودى فيقــول : « ميثــاقه » الموافقة على عهــد الله وتصديقه »(٢٤٩) •

● **تعقيب :**

وقــد لعن الله الذين نقضــوا عهــدهم ، فقــال عن اليهــود : **« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم »**(٢٥٠) وقال عن النصارى فى الآية بعدها **« ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيــامة ، وسوف ينبئهم الله بمـا كانوا يصنعون »**(٢٥١) •

فنقض العهد يصاحبه قســوة القلب لأن صــاحبه كافر فاجر ، ويصاحبه قول الزور ، وتحريف الكلم كهؤلاء السياسيين من النصــارى واليهود الذين يحرفون نصوص المعاهدات بعد ابرامها — ويتجاهلون من الشرائع ما لا يتفق مع أهوائهم •• وقد يستمر مخالفة الشرائع حتى

---

(٢٤٩) تفهيم القرآن : ٥٧/١ • (٢٥٠) المــائدة : ١٣ •
(٢٥١) المــائدة : ١٤ •

تنسى ، ثم مع نقض عهد الله وميثاقه تكون الخيانة والمؤامرات الوضيعة — ونتيجة تجنيب بعض شرائع الله عن الحياة الاجتماعية والشخصية يفقد الوازع الدينى وتقسو القلوب وتفشو الخيانة فتقع العداوة والبغضاء بين الأفراد والأسر والشعوب والطوائف .. وقد يظنون ما عليه سلوكا اجتماعيا طبيعيا كسائر الملاحدة .. فيرجعون الى الله بما هم عليه من ضلالة فينبئهم بما كانوا يصنعون .

* * *

« ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل »(٢٥٢) :

وهذا الأمر نوعان :

١ — أمر تكوين : وهو ما عليه الخلق من النظام والسنن المحكمة ، وقد سمى الله تعالى التكوين « أمرا » بما عبر عنه بقوله « كن »(٢٥٣) .

٢ — وأمر تشريع : وهو ما أوحاه الى أنبيائه ، وأمر الناس بالأخذ به .

● **تعقيب :**

وهذا يعنى أن الاحتكام لغير شرع الله ، أو الحكم بغير شرع الله قطع لصلتنا به وجفاء له سبحانه يستوجب سخطه .. ولهذا قال : **« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ، « الظالمون » ، « الفاسقون »**(٢٥٤) .

* * *

● **صور لأمر التكوين :**

الأمر التكوينى : ترتيب النتائج على المقدمات ، ووصل الأدلة بالمدلولات ، وافضاء الأسباب الى المسببات ، ومعرفة المنافع والمضار بالغايات ، فمن أنكر نبوة النبى بعد ما قام الدليل على صدقه ، أو أنكر

---

(٢٥٢) البقرة : ٢٧ .
(٢٥٣) يعنى أنها فعل أمر .
(٢٥٤) المائدة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ .

سلطان الله على عباده ما شهدت له بها آثاره فى خلقه ، فقد قطع ما أمر الله به أن يوصل بمقتضى التكوين الفطرى .

وكذلك من أنكر شيئاً مما علم أنه جاء به الرسول . لأنه ان كان من الأصول الاعتقادية ففيه القطع بين الدليل والمدلول ، وان كان من الأحكام العملية ففيه القطع بين المبادىء والغايات ، لأن كل ما أمر الدين به قطعا فهو نافع ، ومنفعته تثبتها التجربة والدليل ، وكل ما نهى عنه حتما فلابد أن تكون عاقبته مضرة .

فالذين ينقضون عهد الله بعد ميثاقه هم الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل بغايته . أما بالنسبة الى الايمان بالله تعالى وبالبنوة فيقطعون ما أمر به بمقتضى التكوين والنظام الفطرى .

وأما بالنسبة الى الأحكام فيقطعون ما أمر به فى كتبه أمر تشريع وتكليف .

وصلة الأرحام تدخل فى كل من القسمين .

ويفسر « أبو الأعلى » **« ما أمر الله به أن يوصل »** بكافة الروابط التى أمر الله الناس بانشائها منعاً للفوضى (٢٥٥) .

* * *

● **الافساد فى الأرض :**

« ويفسدون فى الأرض »(٢٥٦) :

قال الامام محمد عبده: وأى فساد أكبر من افساد من أهمل هداية العقل وهداية الدين ، وقطع الصلة بين المقدمات والنتائج ، وبين المطالب والأدلة والبراهين ؟

من كان هذا شأنه فهو فاسد فى نفسه . ووجـوده فى الأرض مفسد لأهلها ، لأن شره يتعدى ، كالأجرب يعدى السليم ، ولذلك ورد

(٢٥٥) تفهيم القرآن : ١/٥٧ . (٢٥٦) البقرة : ٢٧ .

فى السنة النهى عن قرناء السوء ، والمشاهدة والتجربة مؤيدة للسنة ومصدقة لها • خصوصاً اذا قعدوا فى سبيل الله يصدون عنها ويبغونها عوجاً ، فان افسادهم يكون أشد انتشاراً وأشمل خساراً •

ولـما كان افساد هؤلاء عاما للعقائد والأخلاق والأعمال لأن علته فقـد الهدايتين : هداية الفطرة وهداية الدين ، فحق عليهم الخسران وحصره فيهم (٢٥٧) بقوله « **أولئك هم الخاسرون** » •

أما خسرانهم فى الدنيا فهو ظاهر لأرباب البصائر الصـافية والفضائل السامية ، ولكنه يخفى على الأكثرين بالنسبة الى الأغنياء من أولئك الخاسرين ، يرونهم متمتعين بلذات الدنيا وشهواتها • فيحسبون أنهم مغبوطون (٢٥٨) سعداء بها ، فيكون هذا الحسبان من آلات الافساد ، ولو سبروا (٢٥٩) أغوارهم ، وبلوا (٢٦٠) أخبارهم لأدركوا أن ما هم فيه من ظلمة النفس وضيق العطن (٢٦١) ، وفساد الأخلاق • ينغص عليهم أكثر لذاتهم ، ويقذف بهم الى الافراط الذى يولد الأمراض الجسدية والنفسية ، ويثير فى نفوسهم كوامن الوساوس ، ويجعل عقولهم كالكرة تتقاذفها صوالجة الأوهام ، وأن حب الراحة يوقعهم فى تعب لا نهاية له : وهو تعب البطالة والكسـل أو العمل الاضطرارى ، ومن لا يذوق لذة العمل الاختيارى لا يذوق لذة الراحة الحقيقية • لأن الله تعالى لم يضع الرحة فى غير العمل ، وانما سعادة الدنيا بصحة الجسم والعقل وأدب النفس الذى يرشد اليه الدين • فمن فقد هذه الأشياء • فقد خسر الدنيا والآخرة • وذلك هو الخسران المبين •

---

(٢٥٧) يفهم الحصر من طريقة تركيب الجملة ، وهو الناشىء عن تعريف ركنى الجملة ، فالتعريف يفيد القصر والحصر كما يقول البلاغيون .

(٢٥٨) مغبوط : فرح وسعيد .

(٢٥٩) سبروا : غاصوا فى أعماقهم .

(٢٦٠) بلوا : عرفوا بعمق ووضوح .

(٢٦١) العطن : مبرك الابل حول المـاء ، ومربض الغنم — وهـذا كناية عن ضيق الأفق •

● **تعقيب :**

أقول : ومثل الآية التى عرض لها الامام فى تفسيره قال تعالى : **« والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »**(٢٦٢)

وفى الآية يستبين الربط بين نقض العهد الذى أخذه الله علينا وبين تقطيع صلة الأرحام والافساد فى الأرض •• وهـذا يعنى أن مدخل الاصلاح الاجتماعى والتخلص من الفساد الذى فى الأرض لا يكون الا بانماء الارتباط بالله حتى نذكره ذكر المحبين له ولأوامره ، فتنشأ الطاعات المستبصرة ، وان لعنة الله وغضبه من اساءاتنا يربطها لا بالمعاصى بل بالأصل الذى نشأت عنه وهو نقض الميثاق فقال سبحانه عن اليهود : **« فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ، ولا تزال تطلع على خائنة منهم»**(٢٦٣) •

فهؤلاء لما نقضوا الميثاق فقدوا الحياء من الله — بل فقدوا المعنى الانسانى الذى هو أثر روح الله التى نفخ بها فى آدم ، فنشأ نشوءاً طبيعا قسوة قلوبهم التى برهانه صدق الله فى ذكره ذلك عنهم — واضح وجلى فى مذابح اليهود فى دير ياسين عام ١٩٤٨ —ومذابحهم للفلسطينيين فى لبنان عام ١٩٨٢ • كما نشأ عن ذلك أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه ، حرفوا القرآن ويحرفون أى كلام حتى يلتئم مع مقاصدهم الخبيثة ، فى تفسـير المعاهدات التى يبرمونها مع الغير ، فى تفسـير الأخبار التى تنشرها أجهـزة الاعلام التى يسيطرون عليهـا فيضلون الناس بتعليقاتهم أو بما يحذفونه أو يضيفونه ، ثم انهم نسوا حظاً — أى نصيباً كبيرا — من تعاليم الله لموسى وأنبياء بنى اسرائيل — فمنهم العلمانيون ، ومنهم محترفو الدعارة ووسائل اللهو الحرام ومنهم المرابون والكذابون•• وهذه مظاهر من نسيان الدين أو تناسيه ناشئة عن الأصل العام وهو نقض الميثاق •• وهى مظاهر تستمر آثارها مادام العهد والميثاق الذى أخذه الله عليهم منقوضا ، وهـذا ما يشير اليه القرآن :

(٢٦٢) الرعد : ٢٥ .   (٢٦٣) المـائدة : ١٣ .

« ولا تزال تطلع على خائنة منهم الا قليلا منهم » .

وهــذا الذى أنزله الله عن حال اليهود .. انما أنزله ليعتبر به العالمون الذين بعث اليهم محمد ﷺ بالقرآن الكريم .

ومن الفساد الناشىء عن ضلال نقض الميثاق ، الارتياب فى الله والآخرة والكتاب **« كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »**(٢٦٤) الذين يجادلون فى الله بغير سلطان أتاهم .

قال الفيلسوف الفرنسى « جارودى » فى كتابه «ملف بنى اسرائيل»: وان التحريف للتوراة بدأ بعد العودة من بابل . أما بالنسبة للنصرانية فان التحريف بدأ باعلان « نيسيه » الذى حرروه سنة ٣٢٥ للميلاد ، ويتضمن فكرة أن المسيح ابن الله . وبالنسبة للكاثوليك أو الأرثوذكس أو البروتستانت فكلهم يؤمنون باعلان نيسيه ، وفكرة أن المسيح ابن الله التى لم ترد فى الانجيل ، ولكنها وضعت وضعاً ، وأقحمت عليه اقحاماً .

ولذلك فأنا أومن بأن محمداً (ﷺ) قد جاء بالملة الأولى — ملة ابراهيم — وهى أكثر صور العقيدة تكاملا ، فاليهود يكفرون بالمسيح وبمحمد عليهما السلام ، والنصارى بدورهم يكفرون بمحمد ﷺ ، ومحمد ﷺ يؤمن بابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام (٢٦٥) .

* * *

---

(٢٦٤) غافر : ٣٤ .

(٢٦٥) تحقيق صحفى مع جارودى الذى أعلن اسلامه فى ١١ شعبان ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢/٧/٢) وهو من مواليد ١٩١٣/٧/١٧ — الأمة العدد ٢٩ — فى جمادى الأولى ١٤٠٢ هـ — فبراير (شباط) ١٩٨٣ م .

الســـحر

قال تعالى : « **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ، وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس الســحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ، وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** »(٢٦٦) .

لقد جاء لفظ « السحر » ومشتقاته فى القرآن ستين مرة ، وفى تفسير الاية قال الامام :

بينا أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبـــار . لا بيـــان التاريخ .

ولا بد أن يأتى فى العبارة أو السياق وأسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح .

وقـــد يأتى فى الحكـــاية بالتعبـــيرات المستعملة عند المخـــاطبين ، أو المحكى عنهم ، وان لم تكن صحيحة فى نفسها ، كوله تعـــالى : « **كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** »(٢٦٧) .

وهـــذا الأسلوب مألوف . فاننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الافرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم ، ولا سيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ، ولا يعتقد أحـــد منهم شيئاً من تلك الخرافات الوثنية . ويقول أهل السواحل : غربت الشمس أو سقط قرص الشمس فى البحر أو فى المـــاء ، ولا يعتقدون ذلك ، وانما يعبرون به عن المرئى .

---

(٢٦٦) البقرة : ١٠٢ .   (٢٦٧) البقرة : ٢٧٥ .

وقد جاء ذكر السحر فى مواضع متعددة من القرآن ، وأكثره فى قصة موسى وفرعون ، وذكر هنا فى الكلام عن اليهود •

وقد وصف الله السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين ، فيريها ما ليس بكائن كائنا • فقال : ((**يخيل أليه من سحرهم أنها تسعى**))[٢٦٨] — والكلام فى حبال السحرة وعصيهم •

وفى هذه الآية التى نفسرها (آية البقرة : ١٠٢) أن السحر كان يؤخذ بالتعليم ، والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقـون لقب ســاحر على العــالم • كمـا يؤخـذ من قــوله تعــالى : ((**وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك**))[٢٦٩] •

ومجموع هذه النصوص يدل على أن السحر اما حيلة وشعوذة • واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون • فيسمون العمل بها سحراً • لخفاء سببه ولطف مأخذه ، ويمكن أن يعد منـه تأثير النفس الانسانية فى نفس أخرى لمثل هـذه العلة •

وقد قال المؤرخون : ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى •

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم وأسماء غريبة اشـتهر عند الناس أنها من أسـماء الشـياطين وملوك الجـان ، وأنهم يحضرون اذا دعوا بها ، ويكونون مسخرين للداعى •

ولمثل هذا الكلام تأثير فى اثارة الوهم • عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم أن الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره ، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير ، وليس فيه خاصية ، وانما تلك العقيدة الفاسدة تفعل فى النفس الواهمة ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير ارادته ، وهذا هو السبب فى اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب •

---

(٢٦٨) طه : ٦٦ •

(٢٦٩) الزخرف : ٤٩ •

قال الشيخ رشيد رضا : وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء فى حقيقة السحر وفى أحكامه ، وعده بعضهم من خوارق العادات ، وفرقوا بينه وبين المعجزة ، ولم يذكروا فى فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل •

قال الأستاذ الامام : « فى قوله تعالى : **« يعلمون الناس السحر »** وجهان :

أحدهما متصل بقـوله : **« ولكن الشـياطين كفـروا »** ، أى أن الشـياطين هم الذين يعلمون الناس السحر •

والثانى : وهو الأظهر • أنه متصل بالكلام عن اليهود ، وأن الكلام فى الشياطين قد انتهى عند القول بكفرهم •

وانتحال اليهود لتعليم السحر أمر كان مشهوراً فى زمن التنزيل ، ولا يزالون ينتحلون ذلك الى اليوم • أى ان فريقا من اليهـود نبذوا كتاب الله **« واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان »** •

وههنا يقـول القائل : بماذا اتبعوا أولئك الشياطين الذين كذبوا على سليمان عليه السلام فى رميه بالكفر ، وزعمهم أن السحر استخرج من كتبه التى كانت تحت كرسيه ؟

فأجاب على طريق الاستئناف البيانى : **« يعلمون الناس السحر »** الخ ، ونفى الكفر عن سليمان والصاقه بالشياطين الكاذبين ، ذكر بطريق الاعتراض (٢٧٠) ، فعلم أيضا أنهم اتبعوا الشياطين بهذه الفرية أيضا ، وانما كان القصد الى وصف اليهود بتعليم السحر • لأنه من السيئات التى كانوا متلبسين بها ويضرون بها الناس خداعا وتمويها وتلبيسا •

ثم قال : **« وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت »** فأجمل بهذه العبارة الوجيزة خبر قصة كانوا يتحدثون بها • كما أجمل فى ذكر تعليم

---

(٢٧٠) أى بالجملة الاعتراضية : **« وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا »** •

السحر ، فلم يذكر ما هو : أهو شعوذة وتخييل • أم خواص طبيعية وتأثيرات نفسية ؟

وهذا ضرب من الاعجاز فى الايجاز انفرد به القرآن ، يذكر الأمر المشهور بين الناس فى وقت من الأوقات لأجل الاعتبار به ، فينظمه فى أسلوب يمكن لكل أحد أن يقبله فيه ، مهما يكن اعتقاده لذلك الشىء فى تفصيله • ألا ترى كيف ذكر السحر هنا وفى مواضع أخرى بأساليب لا يستطيع أن ينكرها من يدعى أن السحر حيلة وشعوذة أو غير ذلك مما ذكرناه ، ولا يستطيع أن يردها من يدعى أنه من خوارق العادات ؟

والحكمة فى ذلك أن الله عز وجل قد وكل معرفة هذه الحقائق الكونية الى بحث الانسان واشتغاله بالعلم • لأنه من الأمور الكسبية • ولو بين مسائلها بالنص القاطع لجاءت مخالفة لعلم الناس واختبارهم فى كل جيل لم يرتق العلم فيه الى أعلى درجة ، ولكانت تلك المخالفة من أسباب الشك أو التكذيب • فاننا نرى من الناس من يطعن فى كتب الوحى لتفسير بعض تلك الأمور المجملة بما يتراءى لهم ، وان لم تكن نصا ولا ظاهرا فيه ، ويزعمون أن كتاب الدين جاء مخالفا للعلم ، وان كان ذلك الذى يطلقون عليه اسم العلم ظنيا أو فرضيا •

« **الملكين** » : قال الامام : لعل الله تعالى سماهما « ملكين » — بفتح اللام — حكاية لاعتقاد الناس فيهما ، ويجوز أن يكون اطلاق لفظ الملكين عليهما مجازاً كما قال بعض المفسرين •

ولعل التعبير عما أوتياه من العلم بالانزال : لأنه لم يكن يعرف له مأخذ غيرهما • يراد انهما ألهماه الهاماً ، واهتديا اليه من غير أستاذ ولا معلم ، ويصح أن يسمى هذا وحيا لخفاء منبعه ، وليس الوحى والهام الخواطر خاصا فى عرف اللغة ولا عرف القرآن بالأنبياء ، ولا بما يكون موضوعه خيراً أو حقاً • فقد قال تعالى : « **وأوحى ربك الى النحل** »(٢٧١) •

---

(٢٧١) النحل : ٦٨ .

وقال : « **وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه** »(٢٧٢) •

وقال : « **شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً** »(٢٧٣) •

ولكن جرى المودودى على أنهما ملكان حقيقة نزلا فتنة لبنى اسرائيل حتى يعلم مدى استجابتهم للشرع ، فلا يعلمون الناس السحر الضار (٢٧٤) •

ثم قال القرآن : « **وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر** »(٢٧٥) •

يقول الامام محمد عبده : أى أن ما عندنا هو أمر يبتلى به الله الناس ويختبرهم فلا تتعلم ما هو كفر ، فان أصر علماء • هذا ما عليه الجمهور ، واقتصر عليه الامام فى الدرس •

ويضيف صاحب المنار : « وقال البيضاوى : وما يعلمان أحدا حتى ينصحاه ويقولا له : انما نحن ابتلاء من الله • فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم وتوقى عمله ثبت على الايمان ، فلا تكفر باعتقاد جوازه والعمل به • وفيه دليل على أن تعلم السحر وما لا يجوز اتباعه غير محظور ، وانما المنع من اتباعه والعمل به » • ا هـ •

ويجوز أن يكون المعنى : انما نحن أولوا فتنة نبلوك ونختبرك أتشكر أم تكفر ، وننصح لك بألا تكفر • ولعلهما يقولان هذا للمحافظة على حسن اعتقاد الناس بفضلهما • اذ كانوا يقولون : هما ملكان ، واننا نسمع الدجاجلة الذين ينتحلون مثل هذا ويوهمون الناس أنهم روحانيون يقولون لمن يعلمونهم الكتابة للمحبة والبغض : نوصيك بألا تكتب هذا لجلب امرأة متزوجة الى حب رجل غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر ••• الخ •

---

(٢٧٢) القصص : ٧ • (٢٧٣) الانعام : ١١٢ •
(٢٧٤) تفهيم القرآن : ١/١٥ • (٢٧٥) البقرة : ١٠٢ •

وانمـا يقولون هـذا ليوهموا الناس أن علومهم الهية ، وأنهم صحيحو النية •

وقد كان اليهود يسندون سحرهم الى ملكين ببابل ، ونرى دجاجلة المسلمين من المغاربة وغيرهم يسندون خزعبلاتهم الى « دانيال النبى » •

وهذا المعنى يصح على القول بأن قوله . « **وما أنزل** » نفى بحسب توجيهنا •

وقال البيضاوى : ان معناه على وجه النفى : انما نحن مفتونون فلا تكن مثلنا •

* * *

● **ما يجب أن نعتقده فى السحر :**

قال تعالى : « وما هم بضارين به من أحـد الا باذن الله »(٢٧٦) أى أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التى ربط الله بها المسببات ، فهم يفعلون بها ما يوهمون الناس أنه فوق استعداد البشر ، وفوق ما منحوا من القوى والقدر ، فاذا اتفق أن أصيب أحد بضرر من أعمالهم فانما ذلك باذن الله • أى بسبب من الأسباب التى جرت العادة بأن تحصل المسببات من ضر ونفع عند حصولها باذن الله تعالى •

وهـذا الحكم التوحيدى هو المقصد الأول من مقاصد الدين ، فالقرآن لا يترك بيانه عند الحاجة ، وربما ترد فى القرآن قصـة مثل هذه القصـة لأجل بيان الحق فى مسألة اعتقادية كهذه المسألة ، لأن ايراد الأحكام فى سـياق الوقائع أوقع فى النفس ، وأعصى على التأويل والتحريف •

« ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم »(٢٧٦) • وقد صدق الله تعالى • فاننا نرى منتحلى السحر — وما فى معناه — أفقر الناس وأحقرهم • ومن عرف بايذاء الناس يمقته الناس ويكونون عليه •

---

(٢٧٦) البقرة : ١٠٢ .

● **النفاثات فى العقــد :**

قال الامام : المراد النمامون المقطعون لروابط الألفة ، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم (٢٧٧) ، وانما جاءت العبارة كما فى الآية ، لأن الله — جل شأنه — أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين اذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العــامة ، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها ، ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين •

والنميمة تشــبه أن تكون ضربا من السحر ، لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خفية كاذبة •

والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يســير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق (٢٧٨) اذا وقب ، ولا يسهل على أحــد أن يحتاط للتحفظ من النمام • فانه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول • واذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه ، فلا بد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه ، وهى قوة الله •

* * *

● **حديث سحر لبيد للنبى صلى الله عليه وسلم :**

روى الشيخان من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : سحر النبى ﷺ حتى انه ليخيل اليه أنه فعل الشىء وما فعله ، حتى اذا كانت ذات يوم وهو عندى دعا الله ودعاه ثم قال : « أشعرت يا عائشة أن الله أفتانى فيما استفتيته فيه ؟ قلت : وما ذاك يا رسول الله ؟ فقال : جاءنى رجلان فجلس أحدهما على رأسى والآخر عند رجلى • فقال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب • قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم

---

(٢٧٧) ضرام : نار مشتعلة ، نمائم : جمع نميمة •

(٢٧٨) الغاسق : الليل ، واذا وقب : أى غشى الكون فأظلمه .

اليهودى من بنى زريق (٢٧٩) . قال : فيم ذا ؟ قال : فى مشط ومشاطة (٢٨٠) وجف طلعة ذكر . قال : وأين هو ؟ قال : فى بئر ذى أروان .

ومن الرواة من قال : بئر ذروان . قال : وذروان بئر فى زريق ، فذهب النبى ﷺ فى أناس من أصحابه الى البئر ، فنظر اليها وعليها نخل ، ثم رجع الى عائشة فقال : والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين . قلت : يا رسول الله أفأخرجته ؟ قال : لا . أما أنا فقد عافانى الله وشفانى ، وخشيت أن أثور على الناس منه شرا » وأمر بها فدفنت .

وفى رواية للشيخين : كان ﷺ سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن ، بنحوه — وفيه : سحره رجل من بنى زريق حليف ليهود . كان منافقاً .

وعن زيد بن أرقم : سحر النبى ﷺ رجل من اليهود . فاشتكى لذلك أياما فأتاه جبريل فقال : ان رجلا من اليهود سحرك . عقد لك عقدا فى بئر كذا وكذا ، فأرسل ﷺ فاستخرجها فحلها ، فقام كأنما أنشط من عقال . فما ذكر ذلك لذلك اليهودى ولا رآه فى وجهه قط . رواه النسائى .

والأيام التى قيل ان النبى ﷺ سحر فيها جمع قلة ، ولكن بالغ بعض الرواة غير الصحيحين فجعلوها أشهرا ..

قال الامام معقبا على ذلك (٢٨١) : « ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر الى أن يظن أنه يفعل شيئا وهو لا يفعله ، ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية ، بل هو ماس بالعقل ، آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه « ان تتبعون الا رجلا

---

(٢٧٩) بنو زريق : بطن من الخزرج ، فهو يهودى نسب اليهم بالحلف لا بالنسب .

(٢٨٠) المشاطة : ما يسقط من الشعر عند تمشيطه .

(٢٨١) تفسير جزء عم ص ١٣٨ — ١٤٠ .

مسحوراً »(٢٨٢) وليس المسحور عندهم الا من خولط فى عقله ، وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع ، فيخيل اليه أنه يوحى اليه ولا يوحى اليه •

وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ولا ما يجب لها • ان الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من انكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر •

فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح ، والحق الصريح — فى نظر المقلد — بدعة ! نعوذ بالله ! يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه ﷺ وعده من افتراء المشركين عليه ، ويؤول فى هــذه ولا يؤول فى تلك ! مع أن الذى قصــده المشركون ظاهر • لأنهم كانوا يقولون : ان الشــيطان يلابسه عليه الســلام ، وملابسة الشــيطان تعرف بالسحر عنــدهم ، وضرب من ضروربه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب الى لبيد ، فانه قد خالط عقله وادراكه فى زعمهم •

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتــاب الله بالتواتر عن المعصوم ﷺ ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته ، وعدم الاعتقاد بما ينفيه •

وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هــذا ، فاذن هو ليس بمسحور قطعا •

وأما الحديث — على فرض صحته — فهو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد ، وعصمة النبى ﷺ من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والمظنون •

وعلى أن الحديث الذى يصل الينا من طريق الآحاد انما يحصل

(٢٨٢) الفرقان : ٨ .

الظن عند من صح عنده . أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة .

وعلى أى حال فلنا — بل علينا — أن نفوض الأمر فى الحديث ، ولا نحكمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فانه اذا خولط النبى ﷺ فى عقله — كما زعموا — جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئا ولم يبلغه ، أو أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليه ، والأمر ظاهر لا يحتاج الى بيان .

ثم ان نفى السحر عنه لا يستلزم نفى السحر مطلقا ، فربما جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحال أن يصيبه ﷺ ، لأن الله عصمه منه .

ما أضر المحب الجاهل ! وما أشد خطره على من يظن أنه يحبه . نعوذ بالله من الخذلان !

* * *

● **حكم نفى السحر مطلقا :**

على أن نافى السحر بالمرة لا يجوز أن يعد مبتدعا . لأن الله تعالى ذكر ما يعتقد به المؤمنون فى قوله : « **آمن الرسول** »(٢٨٣) الآية ، وفى غيرها من الآيات ، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ، ولم يأت فى شىء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الايمان بثبوته أو وقوعه على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة . بل الذى ورد فى الصحيح هو أن تعلم السحر كفر ، فقد طلب منا أن لا ننظر با' ة فيما يعرف عند الناس السحر ويسمى باسمه .

وجاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع مختلفة ، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ، فان السحر فى اللغة معناه صرف الشىء عن حقيقته . قال الفراء فى قوله تعالى : « **فأنى تسحرون** »(٢٨٤) أى أنى تؤفكون وتصرفون . وسحره وأفكه بمعنى واحد .

---

(٢٨٣) البقرة : ٢٨٥ .

(٢٨٤) المؤمنون : ٨٩ .

وما علينا لو فهمنا من السحر الذى يفرق بين المرء وزوجه ، تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التى تصرف الزوج عن زوجته والزوجة عن زوجهـا ؟ وهل يبعد أن يكون مثل هـذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الأساتذة ، ونحن نرى أن كتبا ألفت ، ودروسا تلقى لتعليم أساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمـال السياسة فى بعض الحـكومات ؟

وقد يكون ذكر المرء وزوجه من قبيل التمثيل ، واظهار الأمر فى أقبح صورة • أى بلغ من أمر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الافساد أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه • وسياق الآية لا يأباه ، وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الانس والمنافقين بالشياطين •

قال : « **واذا خلوا الى شياطينهم** »(٢٨٥) •

وقال : « **شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا** »(٢٨٦) •

وسـحر سـحرة فرعون كان ضربا من الحيـلة ، ولذلك قال : « **يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى** »(٢٨٧) وما قال : انها تسعى بسحرهم• قال يونس : تقول العرب : ما سحرك عن وجه كذا • أى ما صرفك عنه ؟

ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ، ويعرفون من اللغة ما يكفى العاقل أن يتكلم ، ما هذروا هـذا الهذر ، ولا وصموا الاسـلام بهذه الوصمة ، وكيف يصح أن تكون هـذه السورة نزلت فى سحر النبى ﷺ مع أنها مكية فى قول عطاء والحسن وجابر ، وفى رواية ابن كريب عن ابن عباس • وما يزعمونه من السحر انما وقع فى المدينة ؟

لكن من تعود القول بالمحال لا يمكن الكلام معه بحال • نعوذ بالله من الخبال •

(٢٨٥) البقرة : ١٤ •
(٢٨٦) الأنعام : ١١٢ •
(٢٨٧) طه : ٦٦ •

● **تعقيب :**

لم يكن الامام محمد عبده فيما قاله بدعاً من العلماء ، فقد أنكر الحديث من قبله أبو بكر الجصاص فى كتابه « أحكام القرآن » .

وقد ناقض الشيخ رشيد رضا شيخه ، وحاول تقريب الشقة فقال : ان ما روى هو كناية عن هذا الشىء الخاص — المباشرة الزوجية — وليس عاما فى كل شىء ، فلا يدخل فيه شىء من أمور التشريع ، ولا غير غشيان الزوجية من الأمور العقلية أو الأمراض البدنية . فضلا عما كان يريده الذين يرمون الأنبياء بسحر الجنون .. فالمسألة محصورة فيما يسمونه — حتى الآن — الربط ، أو العقد ، أى عقد الرجل المانع من مباشرة زوجه فقط .

ثم قال : « أما ما رواه البيهقى فى دلائل النبوة عن ابن عباس فى مرضه ﷺ وأنه كان شديداً . وأنه كان سحراً فى بئر تحت صخرة فى كربة ، وأنهم أخرجوها فأحرقوها فاذا فيها وتر فيه احـدى عشرة عقدة ، وأنزلت عليه هاتان السورتان — يعنى المعوذتين — فجعل كلمـا قرأ آية انحلت عقدة [ا . هـ ملخصا] فهذا حديث باطل مخالف لحديث الصحيحين فى المسـألة ، ولروايات نزول السورتين بمكة ، وهو من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، واسمه « محمد بن السائب » .

وأما ما رواه أبو نعيم فى الدلائل عن أنس قال : « صنعت اليهود للنبى ﷺ شيئاً ، فأصابه من ذلك وجع شديد فدخل عليه أصـحابه فظنوا أنه لمـا به ، فأتاه جبريل بالمعوذتين فعوذه بهما ، فخرج الى أصحابه صحيحاً » ، فهو من طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس وهما ضعيفان . وليس فى متنه ذكر السحر ، ولا أن المعوذتين نزلتا فى ذلك الوقت ، ولا فى شىء من روايات الصحيحين ، فالاستدلال به على أنها مدنيتان ضعيف ، فالحق أنهما مكيتان كما تقدم[٢٨٨] .

---

(٢٨٨) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، ط أولى سنة ١٣٥٣ هـ ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .

ودفاع الشيخ رشيد رضا عن اثبات السحر من لبيد للنبى ﷺ فى شىء خاص اجلالا لنص صحيح البخارى ، أو دفعا لهجوم العامة لا مبرر له ، فالبخارى ذكر الاسناد لنحمل تبعة التصديق أو الانكار بعد معرفة الاسناد ، وفى الاسناد « هشام بن عروة بن الزبير » وهشام هذا لا يعول على حديثه فى مسألة تمس العقيدة ، فقد أعله كثير من المحدثين ، وألف بعضهم كتابا خاصا به ، محتجا بقول بعض علماء الجرح والتعديل ، وانه كان فى العراق يرسل عن أبيه عروة بن الزبير ما سمعه من غيره » .

وقال خراش : كان مالك لا يرضاه ، يعنى هشاما ، وقد نقم منه حديثه لأهل العراق .

وقال ابن القطان : تغير قبل موته .

وحديث زيد بن أرقم لم يذكر جملة « حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن » ، كما أن الحديث الأول لم يذكر ذلك . وانما ذكر الحديثان مرضا لم يخصصاه بالمرض العقلى ، ولا العصابى ولا ما يتصل بذلك ، فهو ان صح سحر يؤثر على البدن فيعجزه عن الجماع .

وعبارة « كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن » : تعنى « يرى » بمعنى يرغب ويريد ويهم ويطمع فى « أنه يأتى النساء » ، ولكنه لعجزه البدنى « لا يأتيهن » . فالعبارة صيغت بالمعنى صياغة أوهمت المعنى الخاطىء الذى سبب انكار المنكرين للحديث برمته ، أو بالطريقة التى سلكها المرحوم السيد محمد رشيد رضا .

والحديث آية على صدق النبى محمد ﷺ واحدى المعجزات ، اذ أن الساحر صنع ما صنع بعيداً عن أعين الرقباء ، فكشف الله للنبى ﷺ ذلك الصنيع ليعلم الساحر أن النبى موصول بالسماء ، ويوحى اليه منها بما يشاء الله من علمه (٢٨٩) .

* * *

---

(٢٨٩) فقه السيرة لمحمد سعيد رمضان البوطى ص ٥١١ ط ١٩٧٣ ، وشرح الشفاء القاضى عياض ٢٧٨/٤ ، ٢٧٩ ، وشرح النووى لصحيح مسلم ٧٤٤/١٤ .

● **حجة أبى الأعلى فى تفسيره :**

قال أبو الأعلى : لمــاذا كان الملكان يعلمان الناس السحر ؟ ان مثل هــذا كمثل « البوليس » الذى يتخذ عدته ليعطى الموظفين المرتشين أوراق عملة مميزة لديه كى يقبض عليهم متلبسين ، وكما لا يوجد فى مسلك « البوليس » هذا خطأ أو استغراب ، كذلك ليس من استغراب أو خطأ فيما فعلته الملائكة لاختبار اليهود المنحطين المنحرفين .

يقول الحديث النبوى : « ان ابليس يضع عرشه على المــاء ، ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، فيدنيه منه ويقول : أنت »[٢٩٠]

وفى نور هذا الحديث نستطيع أن نفهم لمــاذا أمر الملائكة الذين أرسلوا الى بنى اسرائيل لامتحانهم أن يقدموا لهم « السحر » الذى يفرق بين المرء وزوجه ، والحقيقة أن هــذا المسلك كان المعيار الذى يقيس انحطاط أخلاقهم ويزنها وزنا عادلا[٢٩١] .

* * *

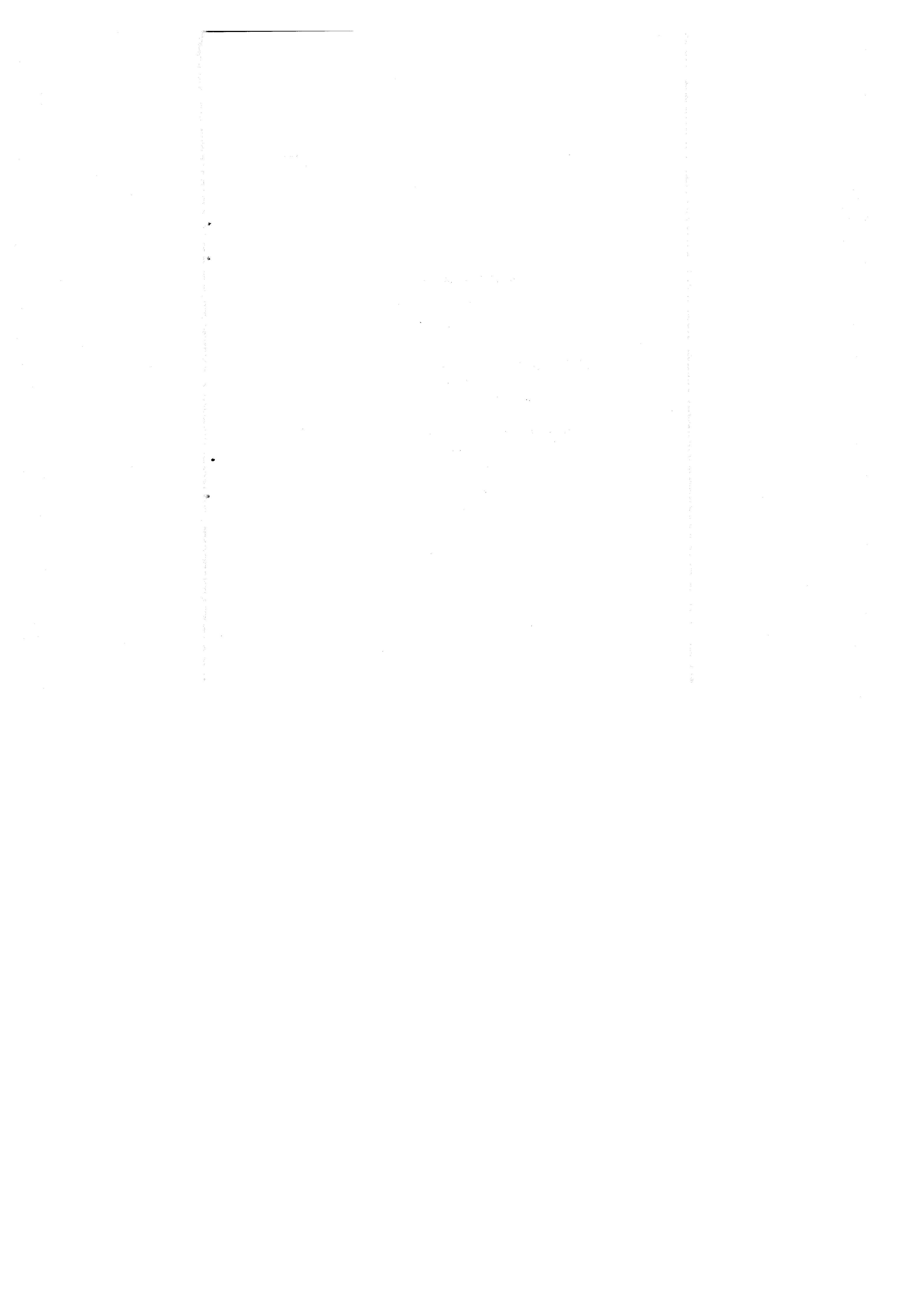
(٢٩٠) الزواجــر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيثمى ٢٨/٢ عن ابى يعلى ومسلم .

(٢٩١) تفهيم القرآن : ٩١/١ .

الفصـــل الثـالث

المخـــادعون

- اقســـام الناس .
- ما المخادعة ؟
- فلسفة خداع المنافقين .
- أسباب ضعف العقل .
- لم ذكر العـــذاب فى جزاء الكـــذب دون الكفـــر ؟
- عقيـــدة المخادعين ســـببها انخداع بمن يقلدونهم .
- الســـخرية بالصـــالحين باســـم العصرية .
- الحيل الفقهية .
- تخريب المساجد والمعابد .
- فى الـــدعاء .



المخـــــادعون

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين • يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفســـهم وما يشعرون • فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضـــاً ، ولهم عـــذاب أليم بما كانوا يكذبون »[1] •

● أقســـام النـــاس :

الكلام من أول ســـورة البقرة هو بشـــأن أقســـام الناس ازاء الايمان ، وهم فرق :

١ ــ الحنيفيـــون والكتـــابيون المنتظـــرون ظهـــور النبى ، وهم : **« الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »**[2] •

٢ ــ المتقون تمام التقوى : من أهل الكتاب الذين أسلموا ومن غيرهم ، وهم المعنيون بقوله : **« والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون »**[3] •

٣ ــ الكافرون : الجاحدون المعاندون ، وهم : **« الذين كفـــروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون »**[4] •

٤ ــ المخادعون : وفيهم هذه الآيات تشرح حالهم فى كل عصر وملة •

* * *

● ما المخادعة ؟

قال الشيخ « العمل الظاهر الذى لا يصدقه الباطن اذا قصد به ارضاء آخر ، يسمى فى اللغة : مداجاة ، ومداراة ومخادعة ، فان كان يقصد به المخادعة فظاهرة • والا فيكفى لصحة الاطلاق أن العمل عمل المخادع • لا عمل الطائع الخاضع •

---

(١) البقرة : ٨ ــ ١٠ •
(٢) البقرة : ٣ •
(٣) البقرة : ٤ •
(٤) البقرة : ٦ •

وهذا مراد القرآن من مخادعة هؤلاء الذين هم من أهل الكتاب المؤمنون بالله ايماناً ناقصاً ، لم يقدروا الله فيه حق قدره ، ويستحيل أن يقصد المؤمن بالله تعالى مخادعته ، ولكنهم لجهلهم بالله ظنوا به ما سوغ وصفهم بما ذكر عنهم •

واذا رجع الانسان الى نفسه • وأصغى لمناجاة سره : يجد — عندما يهم بعمل شىء — أن فى نفسه خصمين مختصمين :

أحدهما : يأمره بالعمل وسلوك الطريق الأعوج •

وآخر : ينهــاه عن العوج ويأمره بالاستقامة على المنهج •

ولا يترجح عنده باعث الشر ولا يجيب داعى السوء • الا اذا خدع نفسه بعد المشاورة والمذاكرة المطلوبة فيهــا ، وصرفها عن الحق وزين لهــا الباطل •

وهذه الشئون النفسية فى غاية الخفاء • تكون المنازعة ، ثم المخادعة ثم الترجيح ، ويمر ذلك كله كلمح البصر ، وربما لا يلتفت اليه الانسان بفكره • ولذلك قال « وما يشعرون » • فان الشعور هو ادراك ما خفى •

وذهب أبو الأعلى فى تفسير المخادعين هنا الى قول القائلين بأنهم هم المنافقون • يتوهمون أن نفاقهم يحفظ مصالحهم ويحميها ، وقد يحالف المنافق حظ من النجاح فى خداع بعض النــاس حينا ، ولكنه لا يستطيع أن يطلى خداعه على كافة البشر دوما ، وحين يفتضح أمره وحياؤه دفعة واحدة يفقد كل شرفه الى الأبد »[٥] •

وجاء فى تفســير المنار : وأطلق بعض المفسرين : أن الشعور : ادراك المشاعر أى الحواس الخمس ، والتحقيق أنه ادراك ما دق من حسى وعقلى ، فلا تقول : شعرت بحلاوة العسل ، وبصوت الصاعقة ، وبألم كية النار ، وانما تقول أشعر بحرارة ما فى بدنى ، وبملوحة أو مرارة

---

(٥) تفهيم القرآن : ١/٥ .

فى هذا المـاء اذا كانت قليلة ، وبهينمة وراء الجدار . وما فى القرآن من هذا الحرف يدل على هذا المعنى . أى ادراك ما فيه دقة وخفـاء فمعنى نفى الشعور عن المنافقين فى مخادعتهم لله تعالى : أنهم يجرون فى كذبهم وتلبيسهم وريائهم على ما ألفوا وتعودوا . فلا يحاسبون أنفسهم عليه ، ولا يراقبون الله فيه ، وما كلهم يؤمنون بوجود الله واحاطة علمه .

ومن يؤمن بوجوده ولم يترب على خشيته ومراقبته ، ولا يفكر فيما يرضيه وفيما يغضبه ، فهو يعمل عمل المخادع له . وما يشعر بذلك .

* * *

● **فلسفة خداع المنافقين :**

جاء فى تفسير المنار : وقد فصل شيخنا مخادعتهم وفلسفتها ببيان علمى جلى فقال ما معناه :

« هؤلاء المغرورون : اذا عرض زاجر الدين بينهم وبين شهواتهم . قام لهم من أنفسهم ما يسهل لهم أمره : من أمل فى الغفران ، أو تأويل الى غير المراد ، أو تحريف الى ما يخالف القصد من الخطاب ، وذلك بما رسخ فى نفوسهم من ملكات السوء ، المغشاة من العقائد الملونة مما قد يتجلى للأعين فيما يسمونه ايمانا ، وما هم فى الحقيقة بمؤمنين ، وانما هم خادعون مخدوعون ، ولكنهم لـما عمى عليهم من أمر أنفسهم لا يشعرون . لأن ذلك يمر فى أنفسهم وهم عنه غافلون .

وفرق بين ما تستحضره النفس من المعلومات وتستعرضه عندما تسئل عنه ، وبين ما هو راسخ فيها من تلك المعلومات ، بصـيرورته ملكة فى النفس متصرفة فى الارادة ، باعثة لهـا على العمل ، وهـو العلم الحقيقى .

والنوع الأول : أى ما تستحضره النفس من المعلومات عندما تسئل كعلم الحلال والحرام الذى يحصله طلبة الفقه الاسلامى مثلا ، وكعلم مزايا الفضيلة ورزايا الرذيلة الذى يخزنه طلاب علوب الآداب والأخلاق ، والنظار فى كتب الأواخر والأوائل ، لتعزيز مادة العلم ، وتوسيع مجال القول ، وتوفير القدرة على حسن المنطق ونحو ذلك •

فهذا العلم كالأداة المنفصلة عن العامل ، يبقى فى خزانة الخيال ، تستحضره النفس عندما تدفعها الشهوة الى تزيين ظاهر المقال ، لا الى تحسين باطن الحال ! ولن يكون لهذا الضرب من العلم أدنى أثر فى عمل من أعمال صاحبه •

وتسميته علما لأنه يدخل فى تعريفه العام : « صورة من الشىء حاضرة عند النفس » • وعند التدقيق : لا ترتفع به منزلته الى أن يندرج فى معنى العلم الحقيقى » •

فاستحضار هذا العلم كاستحضار الكتاب واللوح وادراك ما فيه ، ثم الذهول عنه ونسيانه عند الاشتغال بشىء آخر •

فهؤلاء الذين يخدعون أنفسهم ويخادعون الله تعالى — عندهم علم حقيقى تنبعث عنه أعمالهم ، وان كان « علما » باطلا فى نفسه ، وهو تصديقهم بما فى شهواتهم من المصلحة لذواتهم ، وهو الذى رجح عندهم اختيار ما فيه قضاؤها ، والانصباب الى ما تدعو اليه ، وهو الذى أنساهم ما كانوا خزنوا فى أنفسهم من صور الاعتقادات الدينية ، فأبعدهم ذلك عن الاعتقاد الحقيقى الذى يعتد به ، وجعله رسما مخزونا فى الخيال لا أثر له فى الأفعال ، يدعونه بألسنتهم ، وتكذبهم فى دعواهم أعمالهم وأحوالهم ، ولذلك نسبهم الى الدعوى القولية ، ولم يقل فيهم ما قال فى ذلك الفـــريق الأول : « **الذين يؤمنـــون بالغيب ويقيمـــون الصـــلاة ومما رزقناهم ينفقون** »[٦] •

---

(٦) البقرة : ٣ •

فانه هناك ذكر ايمانهم ، وقفى عليه بذكر العمل الذى يشهد له ٠

ومن هنا يعلم : ما الايمان الذى يعتد به القرآن ؟ وهو يظهر لمن يقرأ القرآن ليحاسب به نفسه ، ويزن ايمانه وأعماله بما حكم به على ايمان من قبله وأعماله ، لا لمن يقرأه على أنه قصة تاريخية مات من يحكى عنهم ٠ واستثنى القارىء نفسه ممن حكم عليهم فيها ٠

فان كان مات من كانوا سبب النزول فالقرآن حى لا يموت ٠ ينطبق حكمه ، ويحكم سلطانه على الناس فى كل زمان ومكان ٠

« فكل مؤمن بالله واليوم الآخر ! ومع ذلك يصدر فى عمله عن شهواته ، ولا يمنعه ايمانه عن ركوب خطيئاته ٠ فاعتقاده انما هو خيال ، لا يعلو عن لفظ فى مقال ٠ ودعوى عند جدال ٠ فاذا ركن الى هـــذا المعتقد فهو خادع لنفسه مخادع لربه ، يظن أن علام الغيوب لا ينظر الى ما فى القلوب » ٠

* * *

● **« فى قلوبهم مرض » :**

عهد عند العرب التعبير عن العقول بالقلوب ، والمرض هو ما يطرأ على العقول فيضعف تعقلها وادراكها ٠

والشك والوهم من أعراض هذا المرض ، فهو ظلمة تعرض للعقل فتقف (دون) أن ينفذ الى ما وراء التكاليف والأحكام من الأسرار والحكم ، وهذا النفوذ : هو الفقه فى الدين الذى يسوق النفس الى الأخذ به ظاهراً وباطناً ٠

وقد عبر القرآن عن فقد أمثال هؤلاء لهذا « الفقه الســـائق الى العمل » بقوله : **« لهم قلوب لا يفقهون بها »**[٧] ٠

---

(٧) الأعراف : ١٧٩ ٠

وربما كان التعبير عن العقول بالقلوب فى مثل هذا المقام ، لأن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذى هو السائق الى الأعمال •

« فيظهر لك ذلك بما تجده من اضطراب قلبك عند اشتداد الخوف • أو اشتداد الفرح • فانك تحس بزيادة ضرباته وشدة نبضاته » •

فصورة الاعتقاد اذا تناولها العقل عن طريق التقليد والتسليم فجعلها فى زاوية من زوايا الدماغ ، لم يكن لها سلطان على القلب ولا تأثير فى الوجدان ، وهو اعتقاد لا يعتد الله تعالى به ، ولا يستفيد الانسان منه •

فمن لم يطرق الايمان قلبه بقوة البرهان ، ولم يحل مذاقه منه فى الوجدان ، بحيث يكون هو المصرف له فى أعماله • لا ينفعه ايمانه الا اذا تمرن على الأعمال الصالحة عن فهم واخلاص • حتى ليحدث لقلبه الوجدان الصالح ، فأهل اليقين يبعثهم يقينهم على العمل الصالح ، وأهل التقليد تلحقهم أعمالهم الصالحة بأهل اليقين فى الانتفاع بايمانهم •

وهذا الفريق الذى تحكى عنه الآيات وتصفه بالكذب والخداع ، قد فقد الأمرين معاً • ولا صحة للقلب الا بهما ، فمن فقدهما مرض ، ولا يلبث مرضه أن يقتله •

* * *

● **أسباب ضعف العقل :**

قال الأستاذ الامام : — ما معناه — ولضعف العقل أسباب :

منها ما هو فطرى : كما هو حال أهل البله والعته • وهو الذى لا يكلف صاحبه ولا يلام •

ومنها ما يكون من فساد التربية العقلية : كما هو حال المقلدين لا يستعملون عقولهم ، بل يكتفون بما حكى الله عنهم فى قوله : : **« انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »**[٨] ، وذلك حتى

---

(٨) الزخرف : ٢٣ .

يجيء اليوم الذى يقولون فيه : **« ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا »**[٩] •

● **« فزادهم الله مرضا » :**

وهذا عندما جاءهم البرهان المنير يبعثه البشير النذير ووجـدوا منه زعزعة فى أنفسهم ، لكن أخذتهم العزة بالاثم « وزاد تمسكهم بما كانوا عليه واشتد حرصهم عليه » فكان شـعاع النور الذى جاء به الرسول عمى فى أعينهم ، ومرضاً على مرضهم •

وقال أبو الأعلى [١٠] : يزيد الله مرض النفاق فى قلوبهم لسـوء مسـلكهم فتراهم اذا بدا نفاقهم ناجحـا — الى حين — يؤمنون به ، فيمارسونه باصرار أكثر من ذى قبل •

« ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون » فى دعواهم الايمـان بالله واليوم الآخر فانهم لم يصدقوا بأعمالهم ما يزعمونه من حالهم •

أقول : وأعمالهم دليل التكذيب لدعوى الايمان ، على القراءة الأخرى **« يكذبون »** بتشديد الذال •

* * *

● **لم ذكر العذاب فى جزاء الكذب دون الكفر ؟**

أجاب الامام قائلا : عبر القرآن بقوله : **« ولهم عذاب أليم بمـا كانوا يكذبون »** ، ولم يقل بما كانوا يكفرون ، لأن الكفر داخل فى هذا الكذب • وانما اختير لفظ الكذب فى التبعير للتحذير عنه • وبيـان فظاعته وعظيم جرمه • ولبيان أن الكفر من مشتملاته ، وينتهى اليـه فى غاياته ، ولذلك حذر القرآن منه أشد التحذير • وتوعد عليه أسوأ الوعيد [١١] •

---

(٩) الأحزاب : ٦٧ .　　　　(١٠) تفهيم القرآن : ١/٥٧ .

(١١) وفى الحديث : « أيكون المؤمن جبانا ؟ قال : نعم .. قيل : أيكون المؤمن بخيلا ؟ قال : نعم . قيل : أيكون المؤمن كذابا ؟ قال : لا » (أخرجه ابن القيم فى اعلام الموقعين) •

وما فشا الكذب فى قوم الا فشت فيهم كل جريمة وكبيرة • لأنه ينشأ من دناءة النفس ، وضعف الحياء والمروءة ، ومن كان كذلك لا يترك قبيحا الا بالعجز عنه • نعوذ بالله تعالى من عمله ومنه • ا هـ

* * *

● **عقيدة المخادعين سببها انخداع بمن يقلدونهم :**

قال تعالى : « **واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا انما نحن مصلحون • ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون • واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** »(١٢) •

تنطق هذه الآيات بأن ما عليه هذا الصنف من الغرور بما عنده من التقاليد قد زين له سوء عمله فرآه حسنا • وشوه فى نظره كل حق فهو يراه قبيحا ، وقد صورت الآيات هذا الغرور بما حكته عن بعض أفراده وهو :

« **واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض** » : بما تصدون عن سبيل الله من آمن ، وبما تنفرون الناس عن اتباع محمد ﷺ فيما جاء به من الاصلاح الذى يجتث أصول الفساد ، ويصطلم جراثيم الأداد (١٣) •

« **قالوا انما نحن مصلحون** » •

أى بالتمسك بما استنبطه الرؤساء • وما كان عليه الأحبار والعرفاء ، وقالوا : انهم أعرف بسنتهم وأدرى بطريقتهم • فكيف ندع ما تلقيناه منهم ، ونذر ما يؤثره آباؤنا وشيوخنا عنهم ونأخذ بشىء جديد ، وطارف ليس له تليد (١٤) •

---

(١٢) البقرة : ١١ ، ١٢ •

(١٣) الأداد : المنكرات والدواهى وعظائم الأمور « القاموس » وتصطلم وتستأصل بمعنى واحد •

(١٤) الطارف : المال المستحدث ، والتليد : المال الموروث .

هكذا شأن كل مفسد يدعى أنه مصلح فى نفس افساده ، فان كان على بينة من افساده • عارفا أنه مضل — فانما يكون كذلك اذا كان افساده لغيره لعــداوة منه له — اذ يدعى ذلك لتبرئة نفسه من وصمة الافساد بالتمويه والموارية •

وان كان مسوقا الى الافساد بسوء التقليد الأعمى الذى لا ميزان فيه لمعرفة الاصلاح من الافساد الا الثقة بالرؤساء المقلدين • فهو يدعيه عن اعتقاد ، ولا يريد أن يفهم غير ما تلقاه عنهم ، وان كان أثر تقليدهم والسير على طريقتهم مفســداً للأمة فى الواقع ونفس الأمر ، لأنهم لا يعرفون مناشىء الفساد ، فقد عطلوا نظرهم الذى يميز ذلك ، وأرادوا أن يوقعوا غيرهم بهذه المهالك • بصدهم عن سبيل الاسلام •

وأى فساد أعظم من التنفير عن اتباع الحق ، والاعتصام بدين فيه سعادة الدارين • واعرض انما تفسد وتصلح بأهلها • ولذلك قال الله تعالى : **« ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون »** : أى لا يحسون بأن هــذا افساد غرز فى طبائعهم بما تمــكن فيها من الشــبهة بتقليد رؤسائهم الذين أشربوا عظمتهم •

وهــذا دليل على أنهم لم يكونوا معاندين ولا مرائين • وأنهم على اعتقاد ضعيف لا يشهد له العمل•كما تقدم فى تفسير آية **«يخادعون الله»**•

واذا كانت الآيات فى وصف طائفة من الناس توجد فى كل أمة — كما قدمنا — فليحاسب بها نفسه كل مسلم يعتقد أن القرآن امامه ، وأنه هدى له ، فانها حجة على كثير ممن يدعون الاسلام بالقول • ويعملون بخلاف ما جاء به ، ويتبعون غير سبيله •

● **تعقيب :**

عقب المنار على هذا قائلا : هذه جملة ما قرره شيخنا فى الدرس واضعاً نصب عينيه منافقى اليهود ، ولا سيما فقهائهم الذين كانوا مجاورين

النبى ﷺ فى المدينة • وشدة الشبه بينهم وبين فقهاء السوء ، ولا سيما فقهاء عصرنا هــذا • ولذلك نبه لعمــوم الآيات وشمولها لهم عوداً على بدء •

وقد ورد فى التفسير المأثور جعله فى بيان حال منافقى المدينة من العرب كعبد الله بن أبى بن سلول وحزبه • فانهم كانوا يفسدون فى الأرض بالتشكيك فى الدين ، وبتفريق كلمة المؤمنين • كما فعلوا فى غزوة أحد ، ثم فى غزوة تبوك • فكان هــذا شأنهم ، وان كانت الغزوتان بعد نزول السورة •

● **تعقيبى على الامام :**

أقول : فهــذا من اعجاز القرآن بذكر أدواء تحدث فى المجتمع الاســلامى قبل وقوعها ، ثم تقع وكأنها التأكيد لصدق القرآن ، وأنه نازل من عند علام الغيوب •

* * *

● **السخرية بالصالحين باسم العصرية :**

قال تعالى : **« واذا قيل لهم آمنوا كمــا آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون »**(١٥) •

قال الامام محمد عبده(١٦) : **« واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس »** الذين يعتقدون كمالهم كابراهيم وموسى وعيسى وأتباعهم **« قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء » ؟** يعنون بالسفهاء أتباع النبــى ﷺ ، فهم كأتباع أولئك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام • وهم سلف اليهود الذين كان الكلام معهم ، وكانوا يتفاخرون بما كانوا يتناقلونه من سيرتهم •

وقال أبو الأعلى : اعتبروا المخلصين للاسلام حمقى ، لأنهم عرضوا أنفسهم للمخاطر(١٧) •

---

(١٥) البقرة : ١٣ . (١٦) المنار جـ ١ ص ١٣٤ — ١٣٦ .
(١٧) تفهيم القرآن : ٥٢/١ .

فرد الله تعالى عليهم بقوله : ((**ألا انهم هم السفهاء**)) أى هم السفهاء وحدهم دون من عرضــوا بهم ، لأن لهم سلفا صالحا تركوا الاقتداء بهم ، زاعمين أن المتأخر لا يمكن أن يكون على هدى المتقدم ، لعلوه فى الدرجة ، وأن حظهم من سلفهم انتظار شفاعتهم •

وهذا أيضا حجة على كثير من اللابسين لباس الاسلام ، وهم من هذا الصنف ، يعتقدون كمال سلفهم ، ولا يقتدون بهم ، وانما يطمعون فى سعادة الدنيا والآخرة بانتسابهم الى أولئك السلف العظام ، ولكونهم من أمة النبى ﷺ وهى خير الأمم ، بشــهادة الله فى القدم ، ولكنهم لا يعلمون أنها فضلت سواها بكونها أمة وسطا تقوم على جادة الاعتدال فى العقائد والأخلاق والأعمال ، وتســعى فى اصلاح البشر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

وقال أبو الأعلى : ((**واذا قيل لهم آمنــوا كما آمن النــاس**)) أى أخلصوا فى اسلامكم وتحملوا نتائجه وتبعاته ((**قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء**)) أى اعتبروا المخلصين للاســلام حمقى ، لأنهم عرضوا أنفســهم للمخاطر •

● **تعقيب :**

أقول : وهــذا الذى قاله أبو الأعلى ينطبق مع قوم اليوم يقولون عن العاملين للاسلام حين أصابتهم المحن انهم سفهاء ، والصواب أن يتسللوا الى السلطة بالالتحام بالأحزاب أو المؤسسات الجاهلية ويتعاونوا معها حتى لا يمسهم القرح ، وهؤلاء يغفلون عن قوله تعالى :

((**ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون**))[١٨] •

وأنهم بهــذا الذى يسمونه دبلوماسية وكياســة يفقدون هويتهم الاسلامية أو الجماعية حين يتحولون الى أذناب تابعة ، لا رؤوس قائدة ،

---

(١٨) هود : ١١٣ .

وينحرفون بخلق المسلم الذين يتميز بالصدق والعزة الى خلق «الوصولية» و « الكذب والملق » وهـذا انحراف من الايمان الموجب للعزة الى النفاق الذى هو ثمرة الاستخذاء ، والانهزامية •

« ولله العزة ولرســوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »[١٩] •

ولأن الاندماج أو المشاركة لنظام جاهلى اشتراكى أو شيوعى ، أو رأسمالى غربى يعنى التسليم به والنصرة له نصرة أقلها التعاون معه •

وهل نصرة النظام المعارض لنظام الاسلام الا الحرب للاسلام — أو على الأقل « الشرك » بالاسلام نظاما غيره — والقاء السلاح ضـد الجاهلية والتصالح معها — لا فى وضع أوزار الحرب والخصومة — ولكن القاء السلاح ضدها ، والانصراف عن كثير من العمل للاسلام •• الذى يضـيع الوقت المخصص له — فى العمل التعـاونى مع النظم الجاهلية •• وهل هنالك انتصار للجاهلية أقوى من أن تستعبد المسلم ، وتستغل وقته ولسانه لصالحها •• والوقت هو الحيـاة ، وهل العبودية والاسترقاق الا استخدام العبيد والأرقاء لخدمة مصالح سيده ، وافقاده استقلاليته فى عمله ••

ان التاريخ فى جميع عصوره بنى العقائد على أســاس الدعوة والتربية ، وبالدعوة يتم الانتشــار للعقيدة والمبادىء ، وبالتربية توجد النمــاذج الجذابة للباحثين عن الهدى ويوجد التثبيت للدعوة ولقوائم المبشرين بها •• وبالانتشــار مع بناء قواعد أساسية هى بناء المسلم فردا وأسرة توجد الأمة التى تعتنق العقيدة — واغفال كلمة التاريخ وسنة الاجتماع فى سياسة الدعوة للاسلام •• انحراف بالدعوة عن المنهج الفطرى العلمى •

وبالتــالى فالذين يســخرون من الســالكين منهجهــا الطبعى **« هم السفهاء ولكن لا يعلمون »** •

* * *

---

(١٩) المنافقون : ٨ •

قال الامام [٢٠] : « واننا نرى كثيرا من المحرمات قد انتهكت فى المسلمين بمثل تلك التأويلات [٢١] حتى جوز بعض المشتغلين بالفقه هدم ركن من أعظم أركان الاسلام بالحيلة ، وهو ركن الزكاة الذى يحارب تاركوه شرعا • وترى هـذه الحيل قد أثرت فى الأمة أسوأ التأثير ، فقلما يوجد فيها غنى يؤدى الزكاة ، ولا يعتقد المتمسك بالدين من هؤلاء الأغنياء أنه متعرض لمقت الله وعقوبته ، وأنه قد فسق عن أمر ربه ، لأنه يمنع الزكاة بحيلة يسميها « شرعية » وقد أخذها عمن يسمون فقهاء ، ويفتخرون بأنهم ورثة الأنبياء •

ثم ان الحيل على التزوير وأكل أموال الناس بالباطل لها فى بعض الكتب ، وعلى ألسنة كثيرين من أصحاب العمائم ــ مجال واسع وميدان فسيح ، ولها أقبح التأثير فى افساد العامة واستباحتهم المحظورات •

ولقد صارت هـذه الحيل على الله عز وجل ، والتأويلات الباطلة الهادمة لدينه معدودة من علم الدين ، حتى انه ليأتيها من لا منفعة له فى اتيانها ممن يعدون صالحين •

ومن أعجب ذلك أن بعض أهل العلم الصالحين يشهد الزور بمثل هذه التأويلات ، وقد نقل الثقات : أن طالب الشهادة يستعطفه ويستميل قلبه بالشكوى من الظلم ، وارادة الاستعانة بشهادته على دفع المظلمة والتخلص من الأذى • فيأمر الشيخ بأن تطوى الورقة المشتملة على قول الزور بحيث يحجب سواد الكتابة فلا يراه ، ويضع توقيعه وختمه فى ذيلها • كأنه وضعهما على ورقة خالية ، وهو يعلم أنها ليست خالية من الكتابة ، ويعرف ما فيها من الكذب •

---

(٢٠) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ ط دار التراث .

(٢١) كالمحلل ، وكقول اليهود : المحرم علينا من مال النــاس ما كان خاصا باليهود وليس علينا فى الأميين سبيل ، وكاستباحة تعليم السحر الضار مع اشتراط ألا يقوم به المتعلم فى الاضرار بالغير .

فهل تقول : انه غير عالم بقوله تعالى : « **والذين يشهدون الزور** »(٢٢) — وقوله : « **انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون** »(٢٣) — وبما رواه البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى بكر أن النبى ﷺ قال وكان متكئا : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله ، وعقوق الوالدين — ثم قعد فقال — ألا وقول الزور وشهادة الزور • فمازال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » • وبما روياه من حديث أبى هريرة مرفوعا أيضا : « آية المنافق ثلاث : اذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، واذا اؤتمن خان » ؟ بل انه عالم بكل ذلك • ولكنه التأويل أفسد على كل أهل دين دينهم •

● **تعقيب :**

أقول : ومن الحيل الفقهية المعاصرة وفتاويها المستحدثة والبدع الضالة المضلة دعوى بعض المعاصرين من غير علماء الشريعة أن ما أجمع عليه فقهاء أهل السنة من اقامة حد الرجم على الزانى المحصن وحد الردة وحد شرب الخمر ، أمور لا يسوغ القول بها اليوم ، لأنها لم ترد فى القرآن الكريم ويتجاهلون أن القرآن أمرنا بتلقى أقوال الرسول وأحكامه بالقبول دون أن يكون لنا اختيار فى رفض ما جاءنا به •• لأنه المبين لمقاصد القرآن والمفصل لمجمله والمزيل لابهامه والمقيد لمطلقه والمخصص لعامه قال تعالى : « **وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** »(٢٤) •

وقال تعالى : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، ان الله شديد العقاب** »(٢٥) •

واننا ما عرفنا عدد ركعات الفرائض وهيئة مناسك الحج وهيئة الصلاة الا من رسول الله ﷺ ، ومن ثم فان ترك ما جاء بالسنة لأنه ليس عليه نص فى القرآن انما هو هدم للاسلام ، وتقويض أحد جناحيه ، بل هو كفر بالاسلام وردة عنه واجتهاد مناهض للوحى الذى قاله الرسول ولم ينزل وحى بما ينقضه عليه ﷺ •• فكان عدم نزول ما ينقضه تقريرا من الله للنبى ﷺ على ما قاله وفعله •

---

(٢٢) الفرقان : ٧٢ . (٢٣) النحل : ١٠٥ .
(٢٤) النحل : ٤٤ . (٢٥) الحشر : ٧ .

وقد يعجب القارىء من القول بأن انكار العمل بالسنة فى الحدود الاسلامية الواردة بشأن العقوبات ردة ، بينما منكر ذلك يقول : اشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله ، ولكن عجبه يزول عندما ما يعلم ان مسيلمة الكذاب لم ينكر أنه لا اله الا الله وأن محمداً رسول الله وانما فقط زعم أنه نبى كمحمد يشاركه الرسالة ، فمحمد فى الشمال ، ومسيلمة فى الجنوب الشرقى •

● **فحد الرجم** علمنا اياه الرسول ﷺ كما علمنا أركان الصلاة وعدد ركعاتها وهيئتها ، وحديث الرجم ، وأمر الرسول به وتنفيذ أمره ﷺ بالنسبة للرجال والنساء أكثر من مرة ، معلوم وثابت ، وعمل الخلفاء الراشدين به ثابت ، واجماع المسلمين عليه فى كل العصور ثابت ما عدا فرقة شاذة من الخوارج الذين لا يعتد بخلافهم — أى برأيهم — على حد تعبير رجال الفقه وأصوله • فوجب الصيرورة الى العمل بعمل الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين واجماع الأمة المتلقى بالقبول •

والغريب أن الذى يقول بهذا من رجال القانون والسياسية — وليس من علماء الشرع المتخصصين ، يقول بوجوب الأخذ برأى الأغلبية — حتى ولو كانت ناشئة عن تصويت من الدهماء والغوغاء — ولكنه يشجب اجماع الصحابة والتابعين وكل فقهاء أهل السنة ، وليس هنالك الا شبهة عدم ذكر الرجم فى القرآن •• ولابن الجوزى فى حكمة عدم ورود نص قرآنى فيها خاطرة نصها « تفكرت فى السر الذى أوجب حذف آية الرجم من القرآن لفظا ، مع ثبوت حكمها اجماعا ، فوجدت لذلك معنيين :

أحدهما : لطف الله تعالى بعباده فى أنه لا يواجههم بأعظم المساق ، بل ذكر الجلد ، وستر الرجم ، ومن هـذا المعنى قال بعض العلمـاء : ان الله تعالى قال فى المكروهات : « **كتب عليكم الصيام** »(٢٦) على لفظ لم يسم فاعله ، وان كان قد علم انه هو الكاتب •

فلما جاء الى ما يوجب الراحة قال: «**كتب ربكم على نفسه الرحمة**»(٢٧)

والوجه الثانى : أنه يبين بذلك فضل الأمة فى بذلها النفوس قنوعاً

---

(٢٦) البقرة : ١٨٣ . (٢٧) الأنعام : ٥٤ •

ببعض الأدلة ، فان الاتفاق لما وقع على ذلك الحكم كان دليلا ، الا أنه ليس كالدليل المقطوع بنصه .

ومن هـذا الجنس شروع الخليل عليه الصلاة والسلام فى ذبح ولده بمنام ، وان كان الوحى فى اليقظة آكد »(٢٨) .

هـذه لغة الايمان تكفيها فى اشـارة من نصوص الشرع .. وأما الكافرون فلن تنفعهم جمهرة من الأدلة حتى ولو كانت وحيا يوحى بنص قطعى الثبوت قطعى الدلالة .

ففى حديث أبى هريرة وزيد بن خالد فى العسيف — الأجير — الذى زنى بامرأة صاحب العمل وجاء رسول الله ﷺ والد العسيف وقد جاء يسأل الرسول عن الحكم الشرعى وقد دفع لزوج الزانية مائة شاة ووليدة — أمة — فقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله : الوليدة والغنم رد ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام ، واغد يا أنيس — لرجل من أسلم — الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها . فغدا عليهـا فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت . رواه الجماعة .

وعن الشعبى أن عليا حين رجم المرأة — ضربها يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ . رواه أحمد البخارى .

وعن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم » — رواه الجماعة الا البخارى والنسائى .

وعن جابر بن عبد الله أن رجلا زنى بامرأة ، فأمر به النبى ﷺ فجلد الحد ، ثم أخبر أنه محصن فأمر به فرجم . رواه أبو داوود .

وعن جابر بن سمرة أن رسول الله ﷺ رجم ماعز بن مالك ولم يذكر جلدا(٢٩) وروى عن النبى ﷺ فى الذى يأتى جارية امرأته : « ان كانت أحلتها له جلد مائة وان لم تكن أحلتها له فرجم »(٣٠) .

---

(٢٨) صيد الخاطر لابن الجوزى ، ص ٨٦ — المكتبة العلمية ببيروت .
(٢٩) نيل الأوطار جـ ٧ ص ٢٤٩ ط دار الجيل — بيروت سنة ١٩٧٣ .
(٣٠) فتاوى ابن تيمية ٢٣٦/٨ .

● **وحد شارب الخمر** ثابت فى السنة .. وجرى عليه العمل فى عهد الرسول ﷺ والراشدين من بعده . فقد جلد رسول الله ﷺ شارب الخمر بالجريد والنعال أربعين ، وضرب أبو بكر رضى الله عنه أربعين ، وضرب عمر فى خلافته ثمانين ، وكان على يضرب مرة أربعين ومرة ثمانين ، فمن العلماء من يقول : يجب ضرب الثمانين ، ومنهم من يقول : الواجب أربعون والزيادة يفعلها الامام عند الحاجة اذا أدمن الناس الخمر ، أو كان الشارب ممن لا يرتدع بدونها ، ونحو ذلك . فأما مع قلة الشاربين وقرب أمر الشارب فتكفى الأربعون ، وهذا أوجه القولين ، وهو قول الشافعى وأحمد — رحمهما الله — فى احدى الروايتين عن أحمـد .

وقد كثر عمر رضى الله عنه لمـا كثر الشرب — زاد فيه النفى وحلق الرأس مبالغة فى الزجر عنه ، فلو غرب الشارب مع الأربعين لينقطع خبره ، أو عزله عن ولايته كان حسنا . فان عمر رضى الله عنه بلغه عن بعض نوابه أنه تمثل بأبيات فى الخمر فعزله .

وروى عن على أنه قال حين سأله عثمان بن عفان عن حد شارب الخمر فى مجلس شهده بعض فقهاء الصحابة : انه اذا شرب سكر ، واذا سـكر هذى ، واذا هذى افترى ، فأرى أن يحد حـد الافتراء — أى ثمانين جلدة هى حد القذف للمحصنات — .

وقد روى أهل السنن عن النبى ﷺ من وجوه أنه قال : « من شرب الخمر فاجلدوه ، ثم ان شرب فاجلدوه ، ثم ان شرب فاجلدوه ، ثم ان شرب الرابعة فاقتلوه » ..وثبت عنه أنه جلد الشارب غير مرة ، هو وخلفاؤه والمسلمون بعده .

وقال بعض العلماء : ان القتل تعزير يفعله الامام عند الحاجة[٣١] .

وقال ابن تيمية فى فتاواه : والحشيشة المصنوعة من ورق القنب حرام أيضا ، يجلد صاحبها كما يجلد شارب الخمر ، وهى أخبث من الخمر من جهة أنها تفسد العقل والمزاج ، حتى يصير فى الرجل تخنث

---

(٣١) فتاوى ابن تيمية ٣٤٥/٨ .

ودياثة وغير ذلك من الفساد ، والخمر أخبث ، اذ تفضى الى المخاصمة والمقاتلة ، وكلاهما يصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وقد توقف بعض الفقهاء فى حدها •

وهكذا رأينا السنة فى الاجماع على حد شارب الخمر حداً أدناه أربعون جلدة ، ولم يختلفوا الا فى المخدرات غير السائلة •

● حـــد الردة :

وأما حد الردة فثابت بصحيح السنة ، فقد قال رسول الله ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه » رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس مرفوعا وقال : « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : كفر بعد ايمان ، وزنا بعد احصان ، وقتل نفس بغير نفس » •• وهو حديث صريح فى بابه ، وفى رواية : « لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » •• وكلمة المفارق للجماعة فى حديث الرسول ﷺ شرحها الرسول نفسه لأصحابه عندما سئل عمـــا يعنيه بالجماعة فى قوله « تلزم جماعة المســـلمين وامامهم » •

قال : « هى ما عليه أنا وأصحابى » ـــ أى الاسلام الخالى من البدع •

وجرى العمل على هذا ، فقد أخرج الدارقطنى والبيهقى عن جابر رضى الله عنه أن امرأة يقال لها أم مروان ارتدت ، فأمر النبى ﷺ بأن يعرض عليهـــا الاســـلام ، فان تابت والا قتلت ، فأبت أن تســـلم ، فقتلت (٣٢) •

---

(٣٢) والحديث وان كان اسناده ضعيفا ، فان الحكم الذى يستفاد منه مأخوذ من الحديث الصحيح المتفق عليه • وقال الحنفية : الحديث ضعيف لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل النساء ، فهى تستتاب فقط •• ويرد عليهم بأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل النساء فى الحرب ، وبأن النهى عن قتل النساء مخصوص باذا لم ترتد عن الاسلام ، أو لم تقتل ، والا قتلت فى حد الردة أو قصاصا •

وقد ثبت بالاجماع والتواتر أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قاتل المرتدين من العرب حتى رجعوا الى الاسلام ، ولم يختلف أحد من العلماء فى وجوب قتل المرتد ، بل اتفقت كافة المذاهب المعمول بها على ذلك .. ولا عبرة بقول احدى فرق الخوارج التى لا يعتد بقولها أحد منهم .

وقد روى أن معاذ بن جبل حين أرسله الرسول ﷺ الى اليمن قال له ﷺ : « أيما رجل ارتد عن الاسلام فادعه ، فان عاد والا فاضرب عنقه ، وأيما امرأة ارتدت عن الاسلام فادعها ، فان عادت والا فاضرب عنقها » .

وهذا نص فى محل النزاع بين الحنفية وغيرهم فى قتل المرتدة ، وقد حسنه الحافظ .

وأخرج البيهقى والدارقطنى أن أبا بكر استتاب امرأة يقال لها أم قرفة كفرت بعد اسلامها ، فلم تتب فقتلها .

وروى أبو داوود أن معاذاً قدم اليمن على أبى موسى الأشعرى ، وقد وجد عنده رجلا موثقا ، فقال : ما هذا ؟ قال : انه رجل كان يهوديا فأسلم ، ثم رجع الى دينه « اليهودية » فتهود ، فقال معاذ : لا أجلس حتى يقتل ، ذلك قضاء رسول الله ﷺ وكان أبو موسى قد استتابه قبل قدوم معاذ عشرين ليلة أو قريبا منها فأمر به فقتل .

وقد جىء الى على رضى الله عنه بشيخ كان نصرانيا فأسلم ، ثم ارتد عن الاسلام ، فقال له على : لعلك انما ارتددت عن الاسلام لتصيب ميراثا ثم ترجع الى الاسلام ؟ قال : لا ، قال على : فلعلك خطبت امرأة فأبوا أن يزوجوكها ، فأردت أن تتزوجها ثم تعود الى الاسلام ؟ قال : لا .. قال على : فارجع الى الاسلام ، قال : لا حتى ألقى المسيح فأمر به على فضربت عنقه ، فدفع ميراثه الى ولده من المسلمين .

وعن ابن مسعود روى مثله ، وينبنى على الردة قتل المرتد ، وحرمانه من أن يرث غيره ، وأن يرثه ورثته المسلمون وفقد أهليته للولاية على غيره ، فلا يتولى عقد تزويج بناته ولا أبنائه الصغار .

* * *

تخريب المساجد والمعابد

قال تعالى : « **ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين** » (٣٣) .

قال الامام : يصح أن تكون الآية على التوزيع بين طائفتين :

١ — فالذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه هم مشركو مكة فى قصة عمرة الحديبية .

٢ — والذين سعوا فى خرابها هم مشركو الرومانيين ، حين دخل تيطس الرومانى بيت المقدس بعد المسيح بسبعين سنة وخربه بعد أن هيجه المسيحيون فهدم الهيكل .

وقيل ان الكلام عما سيقع من اغارة الصليبيين على بيت المقدس وغيره ، أو من حادثة القرامطة .

قال الامام : سواء أكانت الآية فى حادثة واقعة أو منتظرة ، أو كانت وعيداً للذين لا يحترمون المعابد على الاطلاق . هى على كل حال ناطقة بوجوب احترام كل معبد يذكر فيه اسم الله تعالى بالصلاة والتسبيح . وبتحريم السعى فى خراب المعابد ، وبالحكم على الذين يصدون الناس عنها ويسعون فى خرابها — أى هدمها أو تعطيل شعائرها ومنع عبادة الله فيها — بكونهم أظلم الناس . كما يستفاد من استفهام الانكار ، لأن المنع من ذكر الله تعالى وابطال شعائر المعابد التى تذكر به . وتشعر القلوب عظمته . انتهاك لحرمة الدين يفضى الى نسيان الناس الرقيب المهيمن عليهم ، فيمسون كالهمل ، وتفشو فيهم المنكرات والفواحش ، وانتهاك الحرمات ، وهضم الحقوق ، وسفك الدماء .

وعبادة الله تعالى بذكره والصلاة له تنهى بطبيعتها عن الفحشاء والمنكر .

---

(٣٣) البقرة : ١١٤ .

ولا ينافى ذلك ما عساه يطرأ على العبادة ، أو يوجد فى المساجد من البدع التى لم يأمر بها الكتاب ، فمن علم بهذه البدع فعليه أن ينكرها ويسعى فى ازالتها ، ولا يجوز له السعى فى ازالة المعـــابد من الأرض ، لمـــا فى ذلك من الفساد الذى أشرنا اليه •

وهذا هو السر فى حكم الشريعة الاسلامية باحترام كنائس أهل الكتاب وبيعهم وصوامعهم وعبادهم ، واحترام معابد الذين لهم شـــبهة كتاب أيضاً كالمجوس والصابئين •

قال رشيد رضا : لكن ذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الأئمة من آل البيت ، وأئمة الفقه ، وغيرهم من الصالحين ، وقد ارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التى يعد بعضها من الشرك الصريح وبعضها من البدع والمعاصى ، ولا سيما المعاصى التى تفعل تديناً وتقربا وتوسلا الى الله تعالى ، كما ترى فى كتاب الزواجر للفقيه ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم ، وفى كثير من كتب الحنابلة ، ويحتجون بهدم النبى ﷺ لمسجد الضرار (٣٤) •

وقال أبو الأعلى : تعنى الآية أن المساجد وأماكن العبادة ينبغى ألا تكون فى أيدى الظالمين الباغين ، بل فى يد المؤمنين المتقين ؟ كى يحذر الأشرار ارتكاب الأذى والسوء فيها ، لئلا ينالهم العقاب •

كذلك تعنى الآية أن كفار مكة كانوا يمنعون اخوتهم الذين اعتنقوا الاسلام من دخول الكعبة دون وجه حق ، فى حين أن الكفار أنفسهم كانوا يسمون الكعبة « بيت الله » (٣٥) •

* * *

---

(٣٤) أقول : وما قاله الائمة حق ، ولكن يجب أن يتقدمه تبصير العامة حتى لا يثيروا الفتنة ، أو يتقدمه ايمان الحاكم واقامة الدولة التى تحمى الاسلام وتشريعاته كالسعودية حين تبنت محاربى البدع •

(٣٥) تفهيم القرآن : ٩٥/١ •

قال تعالى : « **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ٠ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حســـنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ٠ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب** » (٣٦) ٠

بين الله تعالى أن الذين يذكرونه فيدعونه قسمان :

● **الفريق الأول :**

« **فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق** » ٠

الخلاق : الحظ والنصيب ، وقال تعالى : ان هذا الفريق يطلب حظ الدنيا مطلقا ، ولم يقل انه يطلب « حسنة » فيها ، لأن من كانت الدنيا كل همه لا يبالى أكانت شهواته وحظوظه حسنة أم سيئة ، فهو يطلب الدنيا من كل باب ، فباستيلاء حب الدنيا عليه لم يكن للآخرة موضع من نفسه يرجوه ويدعو الله فيه ، كما أنه لا يخاف ما توعد الله به المجرمين فيها فيلجأ اليه تعالى ويدعوه أن يقيه شره ٠

فحرمان هذا الفريق من خلاق الآخرة هو أثر كسبه وسوء اختياره ، انه لا يسأل ربه الا المزيد من حظوظ الدنيا وشهواتها ٠ وقد ينالهــا كثير من الناس بدون هم كبير فى العمل لها ، ولا يعمل للآخرة ، وقــد اشترط لسعادتها خير العمل ، فقال تعالى : « **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصـــلاها مذموماً مدحوراً ٠ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** » (٣٧) ٠

---

(٣٦) البقرة : ٢٠٠ — ٢٠٢ ٠ (٣٧) الاسراء : ١٨ ، ١٩ ٠

● **لمـاذا حذف مفعول الفعل « آتنا » ؟**

حذف ليدل على عموم المطلوب اتيان الله به ، مع اختلاف يشمل الأهواء من الحظوظ والشهوات ، خيرها وشرها ، وما لا يليق ذكره منها ، أما المتقون فيذكرون مفعول الفعل ويعينـونه بأنه من الخير الحلال « **آتنا فى الدنيا حسنة** » .

● **من هم هؤلاء الضالون فى دعائهم ؟**

قيل هم الكفار الذين لا يؤمنون بالآخرة . روى عن ابن عباس وأنس أن هذا من دعاء المشركين .

وقيل : هم المسلمون الذين لم تمس أسرار الدين وحكمه قلوبهم ، بل اكتفوا بالتقليد فى رسومه الظاهرة ، فكان همهم فى الدنيا دون الآخرة ، لـما روى مرفوعاً من أن الله تعالى يؤيد هذا الدين بمن « لا خلاق لهم » ، واستدل القائلون على هذا الرأى بالسياق .

ولا شك أن هذا القسم موجود فى المسلمين كما وجد فى كل أمة .

* * *

● **الفريق الثانى :**

« **ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة** » . فهو يطلب خير الدنيا والآخرة جميعاً .

وقد اختلف المفسرون فى تعيين الحســنة : هـل هى العافية ، أو الكفاف ، أو المرأة الصالحة ، أو الأولاد الأبرار ، أو المـال الصالح ، أو العلم والمعرفة ، أو العبادة والطاعة .

وروى بعض هذه الأقوال عن بعض السلف ، ولعل كل ذى قول يطلقها على المهم عنده » .

● **تعقيب على الامام :**

أقول : بل ربما قالوا بهذا تبعاً لمـا رجح عندهـم من الآثـار ، كالمروى عن رسول الله ﷺ : « نعم المـال الصـالح للرجل الصالح » فوراء كل رأى أثر ، فدعوى أن كل ذى قول انما قاله بناء على المهم عنده .. قول لا يليق الصاقه بالسلف ، ففيه اتهام يثير شبهة دخول الغرض فى التفسير .

● **وما المراد بحسنة الآخرة ؟**

قيل : هى الجنة ، وقيل رؤية الله سبحانه .

والقول الثانى ينكره المعتزلة والاباضية ، لانكارهم أن الله يمكن أن يرى يوم القيامة .

واختلفوا فى المراد بقوله « **آتنا فى الدنيا حسنة** »والمراد بعذاب النار ؟ « **وقنا عذاب النار** » ، ورووا عن على كرم الله وجهه أنه المرأة السـوء .

فمن دعا الله تعالى اجمالا بسعادة الدنيا والآخرة كان مهتديا بالآية . على أن يصحب الطلب باللسان أخذ باتباع سنة الله فى الأسباب والمسببات ، مع التوجه اليه تعالى واستمداد المعونة والتوفيق منه للهداية الى ما يعجز العبد عنه .

وعلى هذا يتخرج تفسير الحسن لقوله تعالى : « **وقنا عذاب النار** » بقوله : أى احفظنا من الشهوات والذنوب المؤدية اليها .

فطلب الحياة الحسنة فى الدنيا يكون بالأخذ بأسبابها المجربة فى الكسب ، وبالنظام فى المعيشة ، وحسن معاشرة الناس بآداب الشريعة والعرف ، وتوقى الشرور كلها .

وطلب الحياة الحسنة فى الآخرة يكون بالايمان الخالص ومكارم الأخلاق والعمل الصالح بقدر الاستطاعة ٠

وطلب الوقاية من النار يكون بترك المعاصى مع القيام بالفرائض المحتمة ٠

هذا هو الطلب بلسان القلب والعمل ٠

وأما الطلب بلسان المقال فهو يصدق بما يذكر القلب بأن هذه الأسباب من الله ، فالسعى لها مع الايمان هو عين الطلب من فيضه واحسانه ، مضت سنته بأن يعطى بها فضلا منه ورحمة ، لا بخوارق العادات التى لا يعلم محلها وحكمتها غيره ٠

ولم يذكر فى التقسيم من لا يطلب الا حسنة الآخرة ، لأن التقسيم لبيان ما عليه الناس فى الواقع ونفس الأمر ، بحسب داعى الجبلة وتأثير التربية وهدى الدين ، ولا يكاد يوجد فى البشر من لا تتوجه نفسه الى حسن الحال فى الدنيا مهما يكن غالياً فى العمل للآخرة ، لأن الاحساس بالجوع والبرد والتعب يحمله كرها على التماس تخفيف ألم ذلك الاحساس ، والشرع يكلفه ذلك بما يقدر عليه من أسبابه ، وقد جعل عليه حقوقاً لبدنه ولأهله وولده ، ولرحمه ولزائريه واخوانه وأمته ، لا تصح عبوديته الا بدعاء الله تعالى فيها ٠

وفى الآية اشعار بأن هذا الغلو مذموم خارج عن سنن الفطرة وصراط الدين معاً ٠ وما نهى الله أهل الكتاب عن الغلو فى الدين وذمهم على التشدد فيه الا عبرة لنا ٠ وقد نهانا عنه نبينا ﷺ ٠

وفى حديث أنس عند البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ دعا رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ المنتوف فقال له : هل كنت تدعو الله بشىء ؟ قال : نعم ٠ كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ٠ فقال رسول الله ﷺ : سبحان الله ٠٠ اذن لا تطيق ذلك ولا تستطيعه ٠ فهلا قلت : **« ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »** ؟ ! ودعا له فشفاه الله تعالى ٠

وأبعد من هذا فى الغلو أن أحد أدعياء الصوفية سمع قارئاً يتلوا قوله تعالى **« منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريـــد الآخـــرة »** [٣٨] فصاح : أواه .. فأين من يريد الله ؟ .

وهو قول حسن الظاهر قبيح الباطن . فالآية خطاب لخيـــار الصحابة ، وهو وشيخه من الصوفية لم يبلغوا مد أحدهم ولا نصيفه ، فارادة الدنيا والآخرة بالحق ارادة لمرضاة الله ، وعمل بسنته وشرعه .

والمراد بالدنيا فى الآية : الغنيمة فى الحرب ، والمراد بالآخرة : الشهادة فى سبيل الله . فهل يظن بجهله أن من شهد الله تعالى لهم بأنهم بذلوا أنفسهم فى سبيله ، ونصروا رسوله ، وآثروا الشهادة فى القتال على الغنيمة .. أنهم يريدون الله !

وقد ورد فى الصحيح أن الآية كانت أكثر دعاء النبى ﷺ . فهل يدعى ذلك القائل وأمثاله من الغلاة أنهم أشد حباً منه ﷺ لله وطلبا له عز وجل .

وقوله سبحانه : **« أولئك لهم نصيب مما كسبوا »** : نص فيما تقدم من معنى الدعاء ، وأنه لابد أن يكون طلب اللسان مطابقا لمـــا فى النفس من الشعور بالحاجة الى الله تعالى ، بعد الأخذ بالأسباب والسعى فى الطرق التى مضت بها سنة الله تعـــالى ، ولهـــذا قال : **« مما كسبوا »** . ولم يقل : لهم ما طلبوا . أى كان لهم حظ من كسبهم هذا فى الدارين على قدر عملهم » .

« والله سريع الحساب » يوفى كل كاسب أجره عقب عمله بحسبه .
ولم يتعرض المودودى لشىء فى الآية .

* * *

(٣٨) آل عمران : ١٥٢ .

الفصل الرابع

التصور

- القرآن بين الادراك السطحي والتدبر .
- التدبر .
- ما المقصود من التلاوة ؟
- ما المراد بأن القرآن يتعبد بتلاوته .
- التلاوة والتفهم واجبان فما حكم الأميين ؟
- اضلال العوام والفهم للأحكام والاخلاص .
- السؤال .. منه الجائز والضال .



التصـــور

يراد بالتصور الاحاطة بدلالات كلمة التوحيد وكلمات آيات القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان فى العقيدة والاجتماع • ولكن الى أى مدى يكون التصور الاسلامى لكلمة التوحيد وأدلتها ولآيات القرآن كافيـا لاثبات العقيدة الاسلامية ووجودها ؟ والى أى مدى يكون الفهم القرآنى فى مكونات الايمان والاسلام ؟

ذلك ما يجيب عنه الامام محمد عبده فيما يلى :

● القرآن بين الادراك السطحى والتدبر :

قال الامام فى مقدمة التفسير[1] : « معرفتنا بالقرآن كمعرفتنا بالله تعالى ، أول ما يلقن الوليد عندنا من معرفة الله هو اسم « الله » تبارك وتعالى • يتعلمه بالأيمان الكاذبة ، كقوله : « والله لقـد فعلت كـذا وكذا • والله ما فعلت كذا » •

وكذلك القرآن : يسمع الصبى ممن يعيش معهم أنه كلام الله تعالى ، ولا يعقل معنى ذلك • ثم لا يعرف من تعظيم القرآن الا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم • وذلك بأمرين :

أحدهما : اعتقاد أن آية كذا اذا كتبت ومحيت بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى ، وأن من حمل القرآن لا يقربه جن ولا شيطان ، ويبارك له فى كذا وكذا • الى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للعامة ، أكثر مما هو معروف للخاصة •

ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول : ان فيه مبالغة فى التعظيم عظيمة جداً ، ولكنها — وياللأسف — لا تزيد عن تعظيم

(1) المنار جـ 1 ص 26 — 28 •

التراب الذى يؤخذ من بعض الأضرحة • ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسهـا •

وثانيهما : الهزة والحركة المخصوصة ، والكلمات المعلومة التى تصدر ممن يسمعون القرآن اذا كان القارىء رخيم الصوت ، حسن الأداء • عارفا بالتطريب على أصول النغم •

والسبب فى هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم ، بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن •

وأعنى بالفهم : ما يكون عن ذوق سليم تصبيه أساليب القــرآن بعجائبها ، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه •

* * *

● **التــدبر :**

لا أريد الفهم المــأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ، ولطف الوجدان ، اللذين هما مدار التعقل والتأثر والتدبر •

لهذا كله يمكننا أن نقول : ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية والضالين فى زمن النبى ﷺ • لأن من أولئك من قال الله تعالى فيهم : **« يعرفونه كما يعرفون أبناءهم »**(٢) ، ومعرفة الحق أمر عظيم شريف ، ربما كان اثم صاحبها مع الجحود أشد ، ولكنه يكون — دائماً — ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق ، وهذا اللوم يزلزل ما فى نفسه من الاصرار على الباطل •

كان البدوى راعى الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً ، لمــا عنده من رقة الاحساس ، ولطف الشعور فهل يقاس هذا بأى متعلم اليوم ؟ ! أرأيت أهل جزيرة العرب • كيف انضووا الى الاسلام بجاذبية القرآن ، لمــا كان لهم من دقة الفهم التى كانت سبب الانجذاب الى الحق •

---

(٢) البقرة : ١٤٦ ، الأنعام : ٢٠ .

لقد خاطب الله بالقرآن كل من كان فى زمن التنزيل ، ولم يوجه الخطاب اليهم لخصوصية فى أشخاصهم ، بل لأنهم من أفراد النوع الانسانى الذى أنزل القرآن لهدايته •

يقول الله تبارك وتعالى : « **يا أيها الناس اتقوا ربكم** »[٣] فهل يعقل أنه يرضى منا بألا نفهم قوله هذا ، ونكتفى بالنظر فى قول ناظـر[٤] نظر فيه • لم يأتنا من الله وحى بوجوب اتباعه ، لا جملة ولا تفصيلا ؟ كلا • انه يجب على كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته • لا فرق بين عالم وجاهل •

يكفى العامى من فهم قوله تعالى فى أول المؤمنون : « **قد أفلح المؤمنون • الذين هم فى صلاتهم خاشعون** »[٥] الى آخر ما يعطيه الظاهر من الآيات ، وأن الذين جمعت أوصافهم فى الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى •

ويكفى فى معرفة الأوصاف أن يعرف معنى الخشوع والاعــراض عن اللغو وما لا خير فيه ، والاقبال على ما فيه فائدة له : دنيوية أو أخروية ، وبذل المال فى الزكاة ، والوفاء بالعهد ، وصدق الوعد ، والعفــة عن اتيان الفاحشة[٦] •

● **تعقيب :**

ومن مظاهر الضلالة هــذه فى عصرنا هذا عصر طريقة «الفرماوية» اذ يجلس شيخهم بين أتباعه معتجراً عمامة كبيرة ، ويبسط يده مسبلا عينيه موهما أتباعه أن الوحى أو الالهام أو المدد يتنزل على يديه المبسوطتين ثم يقول : هات ، هات •• وبعد فترة انتظار العطاء أو الفيض الربانى المزعوم يقرأ على أتباعه قوله سبحانه على لسان العبد الصالح الذى يتقمص الفرماوى شخصيته « **قال فان اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث**

---

(٣) النســاء : ١ .

(٤) ناظر : بمعنى دارس ومفسر وباحث .

(٥) المؤمنون : ١ ، ٢ .

(٦) وهذا لا يدخل فى ايمان المقلد ، لأنه يأخذ من القرآن دينه قدر ما استطاع ، بينما المقلد يأخذ من الناس لا من كتاب الله .

لك منه ذكرا »(٧) ثم يقول: جاء فى الوحى… ،فيذكر آية أحيانا ويشرحها بما يجىء به الوحى اليه • ويقول عما يلهمه أيضا : جاء فى الوحى ، فاذا سألت كيف يكون ما يقوله الشيخ وحيا قالوا لك : كما ضاع بعد الوحى الذى نزل على الرسول فلم يدونه علماء الحديث ونسلم بأنه وحى ، فكذلك هذا الذى ألهمه الشيخ هو من الوحى المفقود والسنة الضائعة •

ويقولون:كيف نؤمن بالوحى جاء الى النحل «**وأوحى ربك الى النحل**»(٨) ولا نقول يوحى الى الشيخ كما يوحى الى النحل ؟ •• فلما وثقوا بقول شيخهم وكان قد قال لهم : لا تقرأوا غير القرآن •• فانهم جهلوا كل ما فى السنة وتراث الفكر الاسلامى وفقهه وعلوم القرآن والسنة ، وفهموا خطأ أن العمل وكسب الرزق ليس واجبا ، لأنه مظهر لفقد الثقة بالرزاق • ويرفضون العمل فى أجهزة الدولة ، وينكرون صلاة الجماعة الا اذا كان الامـــام هـــو مـــن يلقـــب بالعبـــد الصـــــالح « الفرمـــاوى » • ويحرمون قتل الحشرات وما فيه روح كالبرغوث والبعوض ، ولا يتداوون اذا مرضوا ، بل ان طفلا سقط فى حوض ماء ، وهمت أمه أن تنقذه من الغرق فقال زوجها الفرماوى النزعة : دعيه •• فان كان الله أراد له الحياة نجاه فلا يغرق • وهكذا غرق الطفل المسكين !!

* * *

● ما المقصود من التلاوة ؟

« الذين آتيناهم الكتـــاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون »(٩) •

قال أبو الأعلى : **« حق تلاوته »** : أى بايمان وصدق واخلاص ، ويؤمنون به لا لشىء الا لأنهم يرونه الحق(١٠) •

وقال الامام محمد عبده : عبر عن التدبر والفهم بالتلاوة حق التلاوة، ليرشدنا الى أن ذلك هو المقصود من التلاوة •

---

(٧) الكهف : ٧٠ • (٨) النحل : ٦٨ •
(٩) البقرة : ١٢١ • (١٠) تفهيم القرآن : ٩٧/١ •

والتعبير يشعر بأن أولئك اليهود الذين حكم بنفي رضاهم عن النبى ﷺ نفياً مؤكداً .. لا حظ لهم من الكتاب الا مجرد التلاوة . لا يعقلون عقائده ، ولا يتدبرون حكمه ومواعظه ، ولا يفقهون أحكامه وشرائعه . لأنهم استغنوا عنــه بتقليد بعض الرؤساء « الحاخامات » والاكتفاء بما يقولون ، فلا عجب اذا أعرضوا عما جاء به النبى ﷺ .

وأما الآخرون : فانهم لتدبرهم وفهمهم أسرار الدين ، وعلمهم بوجوب مطابقتها لمصالح المكلفين ، يعلمون أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق الذى يتفق مع مصلحة البشر فى ترقية أرواحهم ، وفى نظــــام معايشهم ، فيؤمنون به ، وانما ينتفع بايمان أمثالهم .

وجملة القول ان هذا التعبير أفاد حكما جديدا وارشادا عظيما ، وهو أن الذى يتلوا الكتاب لمجرد التلاوة مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، فلا حظ له من الايمــان بالكتاب ، لأنه لا يفهم أسراره ، ولا يعــرف هداية الله فيه .

وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية . وان كان القارىء يفهم مدلولاتها على الصورة التى قالها المعلم والمفسر لها (١١) . لأن هذا الفهم من قبيــل

---

(١١) يؤيد هذا ما ذكره الامام الغزالى فى بحث « التخلى عن موانع فهم القرآن » عند التلاوة .. فحواجب الفهم هى :

(أ) أن يكون الهم منصرفا الى تحقيق الحروف باخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى كلام الله عز وجــل .

(ب) أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمعه عليه ، وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع ، من غير وصول اليه ببصيرة ومشاهدة ، فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه ، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فصار نظره — تدبره — موقوفا على مسموعه ، فان لمع برق على بعد ، وبدا له معنى من المعانى التى تخالف مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك ، وهو خلاف معتقد آبائك ؟ ولمثل هذا قالت الصوفية : « أن العلم حجاب » . وارادوا بالعلم العقائد التى استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد ، أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للمذاهب والقوها اليهم » (الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن فى احياء علوم الدين) .

التصور ، وما التصور الا خيال يلوح ويتراءى ثم يغيب ويتناءى • وانما الفهم فهم التصديق والاذعان ممن يتدبر الكتاب مستهديا مسترشداً ، ملاحظا أنه مخاطب به من الله تعالى ليأخذ به فيهتدى ويرشد • والمقلدون محرومون من هذا • فلا يخطر لهم ببال أنهم مطالبون بالاهتداء بكتاب الله • لا بكلام رؤسائهم الدينيين •

واذا كنا نعتبر بما قص الله تعالى علينا من خبر أهل الكتاب ، كما قال : «**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب**» (١٢) فاننا نعرف حكم أهل القرآن عنده تعالى مما ذكره عن أهل التوراة والانجيل ، كما نعرفه من مثل قوله عز وجل : « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** »(١٣) •

فكل هذه الآيات لم تحل دون اتباع هذه الأمة سنن من قبلها شبرا بشبر ، وذراعا بذراع كما أنبئت ، للتحذير • والقرآن حجة عليها ، كما ورد فى الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك »(١٤) •

ولا شك أن من يتلوا القرآن غير معتبر بوعده ووعيده فهو كالمستهزىء بربه •

* * *

● **ما المراد بأن القرآن يتعبد بتلاوته :**

سأل سائل بأن العلماء قالوا : ان القرآن يتعبد بتلاوته ؟

قال الامام : نعم • ولكنهم لم يقولوا : انه أنزل لذلك • وكيف يقولون ذلك ، والله الذى أنزله يقول انه أنزله « **ليدبروا آياته ..** » •

فالقرآن وكذلك السنة يصرحان فى مواضع كثيرة بخلاف هذا القول اذا أخذ على اطلاقه وجعل معناه — أو من معناه — أن الله تعالى يطالب عباده بقراءة القرآن بدون تدبر ولا تذكر •

وقد جاء من الأحاديث ما يصف حال قوم يأتون بعده « يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم »(١٥) • وقد سماهم شرار الخلق •

---

(١٢) يوسف : ١١١ • (١٣) سورة ص : ٢٩ •

(١٤) رواه مسلم والنسائى وابن ماجه عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا .

(١٥) الترقوة : العظم بين ثغرة النحر ، والعاتق : المنكب .

فهؤلاء الأشرار قد اتخذوا القرآن من الأغانى والمطربات ، واذا طالبت أحدهم بالفهم والتدبر أخذته العزة بالاثم ، واحتج عليك بكلمة قالهـا فلان ، أو حلم رآه فلان . وهكذا انقلب على المسـلمين وضع الدين ، ثم هم يتعجبون — مع ذلك — كيف حرموا من وعد الله فى قوله : « **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** »[١٦] . « **أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين** »[١٧] .

وضرب الأستاذ مثلا رجلا يرسل كتابا الى آخر ، فيقرأه المرسل اليه هذرمة[١٨] ، أو يترنم به ولا يلتفت الى معناه . ولا يكلف نفسـه اجابة ما طلب فيه ولا فهمه ، ثم يسأل الرسول أو غـيره : ماذا قـال صاحب الكتاب فيه ، وماذا يريد منه ؟ أيرضى المرسل من المرسل اليه بهذا ، أم يراه استهزاء به ؟ .

فالمثل ظاهر وان كان الحق — سبحانه — لا يقاس على الخلق ، فان الكتاب لا يرسل لأجل ورقه ، ولا لأجل نقوشه ، ولا لأجل ان تكيف الأصوات حروفه وكلمه ، ولكن ليتعلم مراد المرسل منه ويعمل به »[١٩] .

* * *

● **التلاوة والتفهم واجبان .. فما حكم الأميين ؟**

ثم قال الأستاذ الامام : ان الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف فى كل مان ومكان ، فعلى كل قـارىء أن يتلوا القرآن بالتـدبر ، وأن

---

(١٦) الروم : ٤٧ . (١٧) المؤمنون : ٦٨ .

(١٨) الهذرمة : السرعة فى القراءة .

(١٩) سبق الامام الغزالى الى هذا المثل فذكره فى الاحياء مرات فقال : « مثال العاصى اذا قرأ القرآن وكرره : مثل من يكرر كتاب الملك فى كل يوم مرات ، وقد كتب اليه فى عمارة مملكته ، وهو مشغول بتخريبها ، ومقتصر على دراسة كتابه ، فلعله لو ترك الدراسـة عند المخالفة لكان أبعـد من الاستهزاء والمقت » ا هـ (من الباب الثالث من كتاب آداب تلاوة القرآن) .

ويقول السيد محمد رشيد رضا : أن الأحاديث التى وردت فى الترغيب فى التلاوة من غير ذكر التدبر ، يجب أن تحمل على اصطحاب التدبر المعلوم وجوبه من الآيات والأحاديث الأخرى ، على أن حفظ ألفاظ القرآن مقصود لينقل بالتواتر ، وهذا لا ينافى كونه حجة على القارىء الذى لا يهتـدى ولا يعتبر بما يحفظ أو يتلو ، كما فى الحديث الصحيح ..

يطالب نفسه بفهمه والعمل به ، ولا شك أن كل من له معرفة ولو قليلة بالغة العربية • فانه يفهم من القرآن ما يهتدى به •

ومن كان أمياً أو أعجمياً فانه ينبغى له أن يسأل القارئين أن يقرأوا له القرآن ويفهموه معناه •

ثم قال الأستاذ : اننى أعتقد أنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن ، أو يسمعه كله ، ولو مرة واحدة فى عمره ، ومن فوائد ذلك أن يأمن من انكار شىء منه اذا عرض عليه أو سمعه مع التشكيك فيه •

ولم يعرض « أبو الأعلى » لبيان هذا الحكم فيما أعلم •

وفى بيان القرآن معايب اليهود يقول : **« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون »**[٢٠] •

قال أبو الأعلى : يشير القرآن الى ما كان عليه عامة اليهود من جهل تام بأساسيات دينهم ، وجهل بأسباب النجاح ، ومن أسف أنهم كونوا فى جهلهم هذا — أفكارهم وتصوراتهم عن الدين ، وعاشوا حياتهم على مزاعم زائفة ، وآمال مكذوبة ، وأمانى مغلوطة »[٢١] •

وقال الامام محمد عبده: هذه الأمانى توجد فى كل الأمم فى حال الضعف والانحطاط • يفتخرون بما بين أيديهم من الشريعة ، وبسلفهم الذين كانوا مهتدين بها ، وبما لهم من الآثار التى كانت ثمرة تلك الهداية ، وتسول لهم الأمانى أن ذلك كاف فى نجاتهم وسعادتهم وفضلهم على سائر الناس • هكذا كان اليهود فى زمن التنزيل • وقد اتبعناهم ، واننا لنقرأ أخبارهم فنسخر منهم ولا نسخر من أنفسنا ، ونعجب لهم كيف رضوا بالأمانى ونحن غارقون فيها •

ثم ان الآية تدل على بطلان التقليد وعدم الاعتداد بايمان صاحبه ، وقد مضى على هذا اجماع الصدر الأول وأهل القرون الثلاثة ، وانما

---

(٢٠) البقرة : ٧٨ . (٢١) تفهيم القرآن : ٨٣/١ .

كان الجاهل يأخذ عن العالم العقيدة ببرهانها ، والأحكام برواياتها ولا يتقلد رأيه كيفما كان من غير بينة ولا برهان •

وفسر بعضهم الأمانى بالأكاذيب ابتداء •

ومنهم من فسرها بالقراءات • أى أنهم لا حظ لهم من الكتاب الا قراءة ألفاظه من غير فهم ولا اعتبار يظهر أثرهما فى العمل ، فهو على حد « **مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً** »[٢٢] •

وقد ورد التمنى بمعنى القراءة فى الشعر العربى قال الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليلة   تمنى داوود الزبور على رسل

وهذا النوع من التمنى قد برز فيه المسلمون حتى سبقوا من قبلهم ، فقد أمسوا أكثر الأمم تلاوة لكتابهم ، وأقلهم فهماً له ، واهتداء به •

قال الأستاذ الامام : انما يحسن تفسير هذه الآيات من كان له علم بتاريخ اليهود فى ذلك العصر ، ووقوف على حالهم ، وان كانت الا نسخة من حال بعض الشعوب الموجودين الآن •

كانوا أكثر الناس مراء وجدالا فى الحق وان كان بيناً باهراً ، وأشد الناس كذباً وغروراً وأكلا لأموال الناس بالباطل • كالربا الفاحش ، وغشاً وتدليساً وتلبيسا • وكانوا مع ذلك يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ، وأفضل الناس ، كما يعتقد أشباههم فى هذا الزمان ، فهذه هى الأمانى التى صدتهم عن قبول الاسلام •

* * *

---

(٢٢) الجمعة : ٥

● **حــق القــرآن :**

وقد تعرض الامام البنا لذلك فقال : ما رأيت ضائعا أشبه بمحتفظ به، ولا مهملا أشبه بمعنى بشأنه من القرآن الكريم فى أمتنا هــذه ، وقد أنزله الله كتابا محكما ونظــاما شاملا ، وقواما لأمر الدين والدنيــا **« لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »**(٢٣) .

وأعتقد أن أهم الأغراض التى تجب على الأمة الاســلامية حيال القرآن الكريم ثلاثة مقاصد :

أولها : الاكثار من تلاوته ، والتعبد بقراءته ، والتقرب الى الله تبارك وتعالى به .

ثانيها : جعله مصدرا لأحكام الدين وشرائعه ، منه تؤخذ وتستقى وتستنبط وتتعلم .

ثالثها : جعله أساسا لأحكام الدنيا ، منه تســتمد ، وعلى مواده الحكيمة تطبق .

ولقد فهم السلف هــذه المقاصد فقاموا بتحقيقها خير قيام ، فكان منهم من يقرأ القرآن فى ثلاث ، ومنهم من يقرأه فى سبع ، ومنهم من يقرأه فى أقل من ذلك أو أكثر ، وقد كان بعضهم اذا شغل عن ورده من القرآن نظر فى المصحف وقرأ بعض الآيات الكريمة وقال : حتى لا أكون ممن اتخذوا هــذا القرآن مجهورا ، ورضى الله عن الخليفة الثالث الذى لم يترك المصحف والحصار على بابه والسيف على عنقه :

تمنى كتــاب الله أول ليلة   وآخره لاقى حمــام المقادر

وهم حينما أرادوا أن يستنبطوا أحكام دين الله كان القرآن أول المصادر ، وها أنت ترى أن المصطفى ﷺ قد أقر معاذاً حين ســأله بم يحكم ؟ فقال : بكتاب الله . وبدأ به ، ثم ثنى بالسنة المطهرة ، وقد علمت أن عمر رضى الله عنه حظر على كثير من الصحابة الكرام أن يحدثوا

---

(٢٣) فصلت : ٤٢

الناس — وهم حديثو عهد بالاسلام — بالأحاديث والوقائع حتى يفقهوهم فى كتاب الله أولا ، ويقفوهم على حلاله وحرامه ، وقد علمت كذلك أن الأئمة من صدور التابعين وتابعيهم باحسان أمثال سـعيد بن المسيب ، ما كانوا يسمحون للناس بتدوين فتاويهم حذر الانصراف بأقوالهم عن كتاب الله ، ولقد مزق سـعيد الصحيفة من يد من دون افتاءه وقال : تأخذ كلامى وتدع كتاب الله ثم تذهب تقول : قال سـعيد قال سـعيد •• عليك بكتاب الله وسنة رسوله •

وما كانت أحكام الدنيا عندهم الا وفق ما يأمر به ، ونزولا على حكمه •• حقوق تؤدى ، وحدود تقام ، وأحكام تنفذ ، وأوامر تسرى : لا الغاء ، ولا تعطيل ، ولا تعليل ، ولا تأويل •

ثم دالت تلك الدولة ، وذهب ما كان للقرآن على عقول الناس وألبابهم من صولة ، وسرت فى ألسنتهم وعقولهم لوثة العجمة ، فاذا بهم فى ناحية القرآن فى ناحية أخرى ، وبين الناحيتين بعد المشرقين :

سارت مشرقة وسرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

● القـرآن والأوراد :

فأما التعبد بتلاوة القرآن ، وقراءته آناء الليل وأطراف النهار ، فالنذر اليسير منا من عنى بذلك وعمل عليه •• وأما بقية المتعبدين فلهم فيما وضعوا لأنفسهم ، ووضع لهم شيوخهم من أوراد وأحزاب ووظائف وصلوات ما تركوا به كتاب الله ، وأحلوه محله حفظا واهتماما وتعبداً وتلاوة وترديداً وتكراراً •

وما نحرم تلاوة الأوراد الصحيحة ، ولا نحول بين الناس والأدعية والأحزاب التى لا تخالف ظاهر الشريعة ، ولكن نقول لهم : كتاب الله أولى أولا ، رتبوا على أنفسـكم منه أحزاباً تصل قلوبكم به ، وتربط أرواحكم بفيضه واشراقه ، ثم اذكروا الله بعد ذلك بما شئتم من الصيغ

التى تنطبق على أحكام الدين ، أما أن تهملوا القرآن جملة ، وتجعلوا عبادتكم كلها مما وضعتم لأنفسكم ، أو وضع غيركم لكم فترك لكتاب الله ، واهمال لحقوقه •

● **الاجتهاد والتقليد :**

وأما استنباط الأحكام منه فقد وقع الناس فى جهالة بكتاب الله تجعل بينهم وبين ذلك حجابا كثيفا وسداً منيعا مما اضطرهم الى القناعة بالمخصات ، والرضا بالتعليقات ، وقصر هممهم عن السمو الى ما هو أرقى من ذلك من الغايات •

● **تعطيل الأحكام الشرعية :**

وأما تطبيق أحكامه الدنيوية فقد استبدل بها القوم غيرها ، وجعلوا تشريع الأجانب وما وضعه الفرنسيون والرومان أساسا لتشريعهم ، ومصـــدرا لأحكامهم ، وبذلك تعطلت أحـــكام كتاب الله وأصـــبحت نسيا منسيا ، واكتفى المســـلمون — بعد هذا كله من القرآن الكريم بأن جعلوه تمائم لأمراضهم ، وزينـــة لمجتمعاتهم ، وسلوة فى حفلهم وأفراحهم وأحزانهم ، وليتهم اذ جعلوه كذلك أعطوه حقه ، بل تراهم فى محله لاهين غافلين لاعبين ، منصرفين الى اللغو والحـــديث واللهو والعبث ، والله تبارك وتعالى يقول :

« واذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »(٢٤) •

كان القرآن فيما مضى زينة الصلوات فأصبح اليوم زينة الحفلات ، وكان قسطاس العدالة فى المحاكم ، فصار سلوة العابثين فى المواسم ، وكان واسطة العقـــد فى الخطب والعظات ، فصار واسطة العقـــد فى الحلى والتميمات • أفلســـت محقا حين قلت : ما رأيت مضيعا أشـــبه بمحتفظ به من كتاب الله ؟ ! نعظمه ونذود عنه ونتقرب الى الله به • وقد أخطأنا طريق التعظيم ، وتنكبنا سبيل الذود عنه ، وضللنا عن جادة التقرب الى الله به •

---

(٢٤) الأعراف : ٢٠٤

أليس من الاضاعة لكتاب الله أن نرى الطالب يدخل الأزهر الشريف وهو يحفظه[٣٥] — لأن ذلك شرط دخوله — ثم يخرج منه وقد نسيه ، لأن القرآن لم يشترط فى اجازته بنهاية مدة تعليمه ، فتراه ان خرج ليكون اماما يصلى بالناس قصر بهم •• وان كان واعظا استند الى فقهاء الريف المحافظين فى عظاته ودروسه ، وان كان محاميا أو قاضيا لجأ الى المصحف فى تصحيح الآيات التى يستشهد بها من كتاب الله ••

اننا حقيقة أضعنا كتاب الله ، وكأنه بيننا كتاب أثرى لا يسرى مفعوله ، ولا ينفذ حكمه ، وهذا فى الحقيقة أصل ما أصابنا من بلاء وشر »[٣٦] •

* * *

(٢٥) هذا كان فى عهد الامام البنا وعهدنا ، ثم جاء عهد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وصدر قانون تطوير الأزهر .. فأصبح الطالب يدخل الأزهر ويخرج منه وهو لا يحفظ الا بضع آيات .

(٢٦) مجموعة رسائل الامام الشهيد حسن البنا ص ٨٤ — ٨٦ ، رسالة « هل نحن قوم عمليون » ؟ .

اضلال العـــوام

قال الله تعالى : « **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هــذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** »(٢٧) •

روى الامام قول الجلال فى تفسيره : انهم كانوا يكتبون الأحكام على خلاف ما هى عليـــه فى الكتاب كآية الرجم ووصف النبـــى ﷺ وتابعه المودودى(٢٨) وعقب الامام محمد عبده قائلا :

لو كان هذا هو المراد من هذه الآية لمـــا بدىء الكلام بفاء العطف وانما الآية وعيد على أن لبسوا على الناس بالكتابة ، وتأليف الكتب الدينية ، وايهام العامة أن كل ما كتبوه فيها مأخوذ من كتاب الله ؛ كما يعتقـــد المقلدون من كل ملة بكتب الدين التى يؤلفها علماؤهم فى الأصول « العقائد » والفروع « أحكام الفقه فى العبادات والمعاملات » ؛ حتى ان بعضهم يقول : ان اختلافها لا ينافى كونها من عند الله ، خلافاً لقوله تعالى : « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** »(٢٩) •

ولا خلاف بين أن تكون الآية وصفاً لليهود وبين أن تكون وعيداً وتهديداً ــ فانه لا تهديد ولا وعيد الا على وصف يستحقه •

ثم قال : « من شاء أن يرى نســـخة مما كان عليه أولئك اليهود فلينظر فيما بين يديه فانه يراها واضـــحة جلية ، يرى كتباً ألفت فى عقائد الدين وأحكامه حرفوا فيها مقاصده ، وحولوها الى ما يغر الناس ويمنيهم ويفسد عليهم دينهم ، ويقولون : هى من عند الله ، وما هى من عند الله : وانما هى صادرة عن النظر فى كتاب الله ، والاهتداء به ، ولا يعمل هــذا الا أحد رجلين :

١ ــ رجل مارق من الدين يعتمد افساده ، ويتوخى اضلال أهله ؛

---

(٢٧) البقرة : ٧٩
(٢٨) تفهيم القرآن : ١/٧٣
(٢٩) النساء : ٨٢

فيلبس لباس الدين ويظهر بمظهر أهل الصلاح ، يخادع بذلك الناس ليقبلوا ما يكتب ويقول •

٢ — ورجل يتحرى التأويل ، ويستنبط الحيل ليسهل على الناس مخالفة الشريعة ابتغاء المـــال والجاه •

● **تعقيب :**

أقول : ويضاف الى هذين : من يتحرى التأويل ليسهل على الناس مخالفة الشريعة — لا ابتغاء المـــال — انما غروراً منه بأنه أهل للاجتهاد — حتى ولو خالف ما استقرت عليه أحكام الشريعة كحدود الرجم والردة والخمر وبعض المعاملات الربوية فيمنعون اقامة هـــذه الحدود التى استقر عليها اجماع أهل السنة وعمل الرسول والخلفـــاء الراشدين ، وكاباحة بعض صور التعامل كوثائق التأمين وأســـعار الفائدة البسيطة فى صورة بحوث علمية فقهية •

ومن هـــذا الباب أيضا المستشرقون الذين يكتبون عن الاســـلام فى صورة بحث علمى يدسون فيه من الأباطيل ما ليس فى الاســـلام فكل هؤلاء ينطبق عليهم جملة« **يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هـــذا من عند الله** » ، أى فهم عنهم مما جاء من عند الله •

ثم ذكر الأستاذ وقائع طابق فيها بين ما كان عليه اليهود من قبل ، وما عليه المسلمون الآن • فمنهم من يتأول ويغتر بأنه يقصد نفع أمته ، كما كان أحبار اليهود يفتون بأكل الربا أضعافاً مضاعفة • ليستغنى[٣٠] شعب اسرائيل ، ومنهم من يفعل ما يفعل عامداً عالمـــاً أنه مبطل ولكن تغره أمانى الشفاعات والمكفرات « للذنوب » •

* * *

---

(٣٠) فى اللغة المعاصرة : رفع مستوى المعيشة •.

● **الفهم للأحكام والاخلاص :**

تناول الامام حال الحجاج فى عصرنا فقال : ان أكثرهم لا يخطر فى بالهم مناسك الحج وأركانه وواجباته ولا يقصدونها للجهل بها ، وانما يقصدون زيارة « أبو ابراهيم » يعنى النبى ﷺ ، ومنهم من لا يعرف للحج معنى سوى هـذه الزيارة • ومن الناس من يحج ليقال له الحاج فلان • وهـذا من أخس ضروب الرياء • وكثير منهم يقترض بالربا ويحج ، فيريد أن يعبد الله بأنكر المنكرات •

* * *

السؤال الجائز والضال

« يسألونك عن الأهلة ، قل هى مواقيت للناس والحج »(٣١) .

● **فى سبب النزول :**

قال أبو الأعلى : استحوذت منازل القمر على انتباه البشر فى كل آن — والعرب كسائر الأمم — سادت بيئتهم عـدة خرافات حولها ، فكانوا يستطلعونها فى أعمالهم وأسفارهم وزواجهم وحربهم ، ويؤدون لها بعض الشـعائر الخرافية . لاعتقادهم بتأثيرها فى حظوظهم ، ولهذا سألوا رسول الله ﷺ عنها فأجابهم بأنها ليست سوى مواقيت للحج(٣٢) .

وورد فى أسباب النزول أن بعضهم سأل النبى ﷺ عن الأهلة — مطلقاً — وأن بعضهم سأل : لم خلقت ؟ والروايتان عن أبى هاشم فنزلت الآية .

وأخرج أبو نعيم وابن عساكر من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس : أن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنيمة قالا : يا رسول الله .. ما بال الهلال يبدو دقيقا مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعـود كما كان ، لا يكون على حال واحدة ؟ فنزلت الآية .

وبالرغم من أن رواية الكلبى عن أبى صالح فى الحديث هى أوهى الطرق عنه . فهى رواية ضعيفة ، الا أنها هى الأشهر . لأن الجواب جاء ببيان الحكمة دون العلة ، جريا على ما يسمى فى البلاغة « أسـلوب الحكيم » أو « الأسـلوب الحكيم » .

ولم يذكر المفسرون ما ذكره أبو الأعلى ، وواضح أنه ليس هناك ما يجعلنا نقبله . وقد جرى الامام « محمد عبده » على ما عليه الجمهور هنا فقال : كأنه سبحانه قال : كان عليكم أن تسألوا عن الحكمة والفائدة

---

(٣١) البقرة : ١٨٩ (٣٢) تفهيم القرآن : ١٣١/١

فى اختلاف الأهلة ان لم تكونوا تعرفونها • والا فعليكم الاكتفاء بها ، وعدم مطالبة الشارع بما ليس من الشرع •

ففى الكلام تعريض بأن سؤالهم فى غير محله • ولو توجه هذا السؤال ممن يتعلم الفلك الى أستاذه فيه لما عد قبيحا ، ولا قيل انه فى غير محله ، ولكنه موجه الى نبى لا الى فلكى ممن ليس تلميذاً فى الفلك ، فهو قبيح من هـذا الوجه ، لا لذاته • والا لكان النظر فى السموات والأرض لأجل الوقوف على أسرار الخليقة وأسباب ما فيها من الآيات والعبرة مذموما • وكيف يذم وقد أرشـدنا الله تعـالى اليه فقال : **« أفلم ينظـروا الى السـماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لهـا من فروج »**[٣٣] •

* * *

● **أنواع الأسـئلة :**

ثم قال الأستاذ الامام : العلوم التى نحتـاج اليها فى حياتنا على أقسـام :

القسم الأول : ما لا نحتاج فيه الى أستاذ كالمحسوسات والوجدانات•

القسم الثانى : ما لا نجـد له أستاذاً ، لأنه لا مطمع للبشر فى الوصول اليه ألبتة • وهو كيفية التكوين والايجاد الأول • ففى النبات يمكن للنباتى أن يعرف ما يتكون منـه النبات ، وكيف ينبت وينمو ويتغذى ، وللطبيب أن يعرف كيف يتولد الحيـوان ، والأطـوار التى يتدرج فيها منذ يكون نطفة الى أن يكون انسانا مستقلا عاقلا ، ولكن لا يعرف نباتى ولا طبيب كيف وجد أنواع النبات وأنواع الحيوان ومادتهما لأول مرة • ولا كيف وجد غيرهما من المخلوقات •• فالعلاقة بين الخالق والمخلوق من جهة الايجاد والخلق لا يمكن اكتناهها ، كما أنه لا يمكن اكتناه ذاته وصفاته سبحانه •

---

(٣٣) سورة ق : ٦

القسم الثالث : ما يتيسر معرفته بالنظر والاستدلال والتجربة كعلوم الطبيعة والزراعة والفلك .. وما فى الفلك من أسباب أطوار الهلال « **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم** »[٣٤] .

القسم الرابع : ما يجب علينا للخالق ، وهذا ما لا سبيل الى معرفته بطريق صناعى أو كسب بشرى ، فقد وقعت الأمم فى الحيرة والخطأ فى مسائله . لجهلهم بالصلة والنسبة بين الخالق والمخلوق ، فتوهم بعضهم أن معاصينا تؤلمه ، أو تفيده .. وبعضهم كالفراعنة تصور الحشر بأجسادنا هذه فحنطوها ، لذلك كنا فى حاجة الى نبى مرسل يمدنا بالادراك السليم ، فالوحى للنوع الانسانى كالعقل لأفراده .

● **تعقيب :**

وفى هذا يقول الامام البنا[٣٥] : « معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الاسلام ، وآيات الصفات[٣٦] وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه ، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل ، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء ، ويسعنا ما وسع رسول الله ﷺ وأصحابه :

« **والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** »[٣٧] .

القسم الخامس :

ما يستطيع العقل البشرى ادراك الفائدة أو الضرر منه ولكن الشهوات تجتاحه عما يجب ، كمن يدرك قبح الخمر والحشيش والغيبة ، فاحتاج الانسان الى ما ينصر العقل على الهوى .

فما يمكن الوصول اليه كالعلوم الكونية ليس وظيفة المرسلين ، حتى لا تعطل المواهب ، وكذا ما يستحيل وصول البشر الى ادراكه ، وما لا فائدة من ذكره .. وهذا ما يحدد آفاق الأسئلة .

---

(٣٤) يس : ٣٩ (٣٥) رسالة التعاليم .

(٣٦) آيات الصفات وأحاديثها مثل « **على العرش استوى** » (طه : ٥) ، « ينزل ربنا كل ليلة الى سماء الدنيا يقول هل من مستغفر فأغفر له » .

(٣٧) آل عمران : ٧ .

● **تعقيب :**

وفى العلم والشرع يقول الامام البنا :

« والاسلام يحرر العقل ، ويحث على النظر فى الكون ، ويرفع قدر العلم والعلماء ، ويرحب بالصالح النافع من كل شىء ، « والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها » .

وقد يتناول كل من النظر الشرعى والنظر العقلى ما لا يدخل فى دائرة الآخرة ، ولكنهما لن يختلفا فى القطعى ، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة ، ويؤول الظنى منهما ليتفق مع القطعى ، فان كانا ظنيين فالنظر الشرعى أولى بالاتباع حتى يثبت العقلى أو ينهار » .

ثم تناول الامام حسن البنا ما هو جدير بالبحث فقال : « وكل مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذى نهينا عنه شرعا ، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التى لم تقع ، والخوض فى معانى الآيات القرآنية الكريمة التى لم يصل اليها العلم بعد ، والكلام فى المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف ، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته ، وفى التأويل مندوحة » . يعنى التماس العذر وتبرير ما نراه من خطأ لأحدهم .

❋ ❋ ❋

الفصل الخامس

ضلالات في شئون المال

- رزق الفرد والأمة .
- اكل اموال الناس بالباطل وصوره .
- اغتصاب حقوق المطلقات .
- الخمر — والميسر — واليانصيب .
- الربا .
- حفظ المال وكسبه .
- اثبات الحق بكتابة الديون وتسجيل العقود — الشهود : والجمع بين المراتين عند اداء شهادتهما — امساك الدفاتر في التجارة والشركات .

رزق الفرد والامة

قال الامام محمد عبده : ان الرزق بغير حساب ولا سعى فى الدنيا : انما يصح بالنسبة الى الأفراد ، فانك ترى كثيرا من الأبرار ، وكثيرا من الفجار أغنياء موسرين متمتعين بسعه الرزق ، وكثيرا من الفريقين فقراء معسرين ، والمتقى يكون دائما أحسن واكثر احتمالا ومحلا لعناية الله تعالى به ، فلا يؤلمه الفقر كما يؤلم الفاجر ، فهو يجد بالتقــوى مخرجا من كل ضيق ، ويجد من عناية الله رزقا غير محتسب •

وأما الأمم فأمرها على غير هــذا ، فان الأمة التى ترونها فقيرة ذليلة معدمة مهينة : لا يمكن أن تكون متقية لأسباب نقم الله وســخطه ، بالجرى على سننه الحكيمة وشريعته العادلة •

ولم يكن من سنة الله تعالى أن يرزق الأمة العزة والثروة ، والقوة والسلطة من حيث لا تحتسب ولا تقدر ، ولا تعمل ولا تدبر ، بل يعطيها بعملها ، ويسلبها بزللها •

وقد بين الأستاذ هذا المعنى غير مرة ، وهو مؤيد بآيات الكتاب المبينة لسنن الله العامة كقوله تعالى : « **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** »[1] ، فجعل وقوع الظلم سببا فى وقوع البلاء على الأمة ، من ظلم منها ومن لم يظلم •

ومن الظلم ترك مقاومة الظلم حتى يفشو ويكون له السلطان الذى يذهب بكل سلطان •

وكقوله : « **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** »[2] •

---

(١) الأنفال : ٢٥

(٢) الأنفال : ٤٦ ــ وتذهب ريحكم : تذهب قوتكم .

● **تعقيب :**

أولا : فهذا بيان لسبب ضعف الشعوب والجماعات ، واستقراء التاريخ يدل على هذا .. فعندما كان المسلمون يعيشون عيشة الاخاء والحب والتعاون فى عهد أبى بكر وعمر وصدر خلافة عثمان كان المد الاسلامى والرخاء والغنى والعزة والمجد ، فلما اختلفوا توقف المد الاسلامى وضعفوا .. وظلوا هكذا ، كلما اتحدت كلمتهم قووا وعزوا . وان إختلفوا ذلوا وهانوا ووهنوا .. انظر حالهم فى عهد صلاح الدين الأيوبى وفى عهد قطز ، وعمر بن عبد العزيز من قبلهما ، كانوا فى وحدة أثمرت القوة والخير والنصر المؤزر على أعداء الاسلام وما يوم حطين ويوم عين جالوت عنا بغائب — وهكذا ما يوم صفين ويوم الجمل بغائبين عن الأذهان ، وما أكثر مثل هذه الأيام السود بعد ذلك فى تاريخ الفرقة وما نجم عنها من ويلات .

ثانيا — وظيفة المال الاجتماعية :

والقرآن يحدد وظيفة المال ، فالمال مال الله ، ونحن وكلاء الله فى ماله الذى استودعه بعضا منا ، وحدد موارد صرفه كما حدد نواحى كسبه المشروعة وطرق الكسب المشروع فيما شرحه الفقهاء والمحدثون فى أبواب « المعاملات » « والشركات » والزراعة والمخابرة والمساقاة والقراض والقرض والربا والرهن والسباق والصلح والزكاة والصدقة ، ويذكر القرآن وظيفة المولين أو أصحاب رؤوس الأموال صراحة فيقول فى سورة الحديد : « **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** »[3] ثم يقول : « **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض** »[4] فما بخلت به سيعود الى الله وارث السموات والأرض فالبخل بالنفقة التى أمر الله بها لا يتأتى الا ممن كان قصير النظر وضيق الأفق . ثم يذكر الله فضل المنفقين فى وقت الشدة على المنفقين فى وقت الرخاء ،

---

(٣) الحديد : ٧ — (٤) الحديد : ١٠

وان كان كل منهما له الجنة فيقول : **« لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير »**(٥) . ويعتبر اعطاء المسكين والمحتاج بمثابة الاقراض لله القادر على الوفاء بسداد ما أخذه الفقراء أو المجاهدون فى سبيل الله مضاعفا **« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم »**(٦) .

ومما يجرى على ألسنة الوعاظ منسوبا معناه الى رب العزة : « المال مالى والأغنياء وكلائى والفقراء عيالى . فان بخل وكلائى بمالى على عيالى ، أذقتهم وبالى ولا أبالى » .

ولعل هذا مأخوذ من الآيات السابقة ومما ذكره الله من انتقامه الذى سلطه على الذين بخلوا بأموالهم كقارون(٧) وثعلبة **« ومنهم من عاهد الله »**(٨) وأصحاب الجنة(٩) — وهى الحديقة — اذ يقول فى مناع للخير معتد أثيم **« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون (١٠) . فطاف عليها طائف من ربك (١١) وهم نائمون . فأصبحت كالصريم »**(١٢) وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ان العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقا قد كان هيىء له ، ثم تلا رسول الله ﷺ **« فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم »** . حرموا خير جنتهم بذنبهم .

وقال الله تعالى فى سورة الحشر : بشأن الفىء ، وهو كل ما أخذ من الكفار من غير قتال ولا ايجاف خيل ولا ركاب — كأموال بنى النضير ، الذين استسلموا للمسلمين خوفا دون حدوث اشتباك مسلح أن تكون

---

(٥) الحديد : ١٠ (٦) الحديد : ١١

(٧) انظر سورة القصص (٧٦ — ٨٢) .

(٨) التوبة : ٧٥ — ٧٧ (٩) القلم : ١٧ — ٢٠

(١٠) يصرمنها — بسكون الصاد — : يجمعون ثمار الحديقة ، مصبحين : فى الصباح الباكر ، ولا يستثنون : لم يقولوا « ان شاء الله » .

(١١) طائف من ربك : آفة سماوية . (١٢) أى كالزرع المحصود .

للرسول فى حياته ينفق منها على نفسه ثم على ما يحتاجه المسلمون من السلاح او ما يسد حاجة الفقراء ، واذا مات فالجميع لبيت المـال يصرف فيما حددته الآية • قال سبحانه : **« وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسـله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير • ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السـبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »**[١٣] أى لا ينحصر المـال فى طبقة الأغنياء •

ومن أجل ما يسمى بلغة العصر عدالة التوزيع الاجتماعى • جعل الله الفىء الذى لم يشترك فيه المسلمون بحرب : الخمس لمن خرجوا للقتال ، فاستسلم لهم العدو — دون حرب — والباقى للفقراء المهاجرين — ما عدا قوم من الأنصار — كانوا فى فقرهم كالمهاجرين فأعطوا من المـال كما أعطى المهاجرين — وذلك هو قوله تعالى عقب الآيتين : **« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضـلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون • والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »**[١٤] •

وفى الحديث الذى أخرجه الطبرى عن أنس مرفوعا : « برىء من الشـح من أدى الزكاة وقرى الضيف — أكرم ضـيافته — وأعطى فى النائبة » — أى أسهم فى ازالة الكوارث عمن تصيبهم •

والحق أن مشكلات البشرية ترجع الى جهل الناس حقيقة الموقف المطلوب تجاه المـال فيضلون طريق السلام ، فقد أخرج مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « اياكم والظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح

---

(١٣) الحشر : ٦ ، ٧ (١٤) الحشر : ٨ ، ٩

أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » وأخرج أحمد وأبو داوود عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فان الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، واياكم والشح فانه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل الى عبد الله[١٥] فقال : انى أخاف أن أكون قد هلكت ، فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله تعالى فيقول : **« ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »**[١٦] وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدى شيئا ، فقال عبد الله : ليس ذلك بالشح الذى ذكر الله فى القرآن ، انما الشح الذى ذكر الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلما ، ولكن ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل .. والبخل آفة علمنا رسول الله ﷺ دعاء للتخلص من شره وأن نقول كل صباح ومساء : « اللهم انى أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من الجبن والبخل ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » وقد روى ابن جرير عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلا يقول : اللهم قنى شح نفسى ، لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : اذا وقيت شح نفسى لم أسرق . ولم أزن ولم أفعله ، واذا الرجل عبد الرحمن ابن عوف — وحسبنا أن الله تعالى وصف أهل النار فقال : **« واذا مسه الخير منوعا »**[١٧] وقال : **« ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين »**[١٨] وقال فى صفة أهل الجنة **« ويطعمون الطعام**

---

(١٥) اذا قيل فى الأحاديث النبوية « عبد الله » عرف أنه عبد الله ابن مسعود لا غيره ، وكنيته « أبو عبد الرحمن » .

(١٦) الحشر : ٩ (١٧) المعارج : ٢١

(١٨) المدثر : ٤٢ — ٤٤

على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا • انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا »(١٩) •

ولأجل هذه السنة أمر بالاستعداد على قدر الطاقة « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »**(٢٠) •

ولا قوة مع الخلاف والنزاع والتفرق والانقسام ، ولذلك أمر الله تعالى بالدخول فى السلم كافة •

* * *

---

(١٩) الانسان : ٨ ، ٩ (٢٠) الأنفال : ٦٠

أكل أموال الناس بالباطل

قال تعالى : « **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون** »[21] .

● **فيم نزلت الآية :**

قبل أن أعرض لما قاله الامام أحب أن نعرف موضوع الآية ، قال ابن عباس : هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم الى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل للحرام ، وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : « انما أنا بشر وانما يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها » ولكن للباطل صورا استحدثت عرض لها الامام محمد عبده فقال :

● **الأجرة على العبادة :**

قال الامام : ان كل أجر يؤخذ على عبادة فهو أكل لأموال الناس بالباطل ، وقد مضى الصدر الأول ولم يكن أخذ الأجر على عبادة ما معروفاً ، ولا يوجد فى كلام أهل القرن الأول والثانى كلمة تشعر بذلك .

ثم لا يعقل أن تحقق العبادة وتحصل بالأجرة ، لأن تحققها انما يكون بالنية وارادة وجه الله تعالى وابتغاء رضائه بامتثال أمره ، ومتى شاب هذه النية شائبة من حظ الدنيا خرج العمل عن كونه عبادة خالصة لله تعالى ، والله تعالى لا يقبل الا ما كان خالصاً من الحظوظ والشوائب .

---

(٢١) البقرة : ١٨٨

ثم قال : من علم العلم والدين بالأجرة فهو كسائر الصناع والأجراء ، لا ثواب له على أصل العمل ، بل على اتقانه والاخلاص فيه والنصح لمن يعلمهم •

وينبغى للمعلم الذى يعطى راتباً من الأوقاف الخيرية أن يأخذ اذا كان محتاجاً لأجل سد الحاجة ، لا بقصد الأجرة على التعليم ، وبذلك يكون عابداً لله تعالى بالتعليم نفسه ، وعلامته أن يستعفف اذا هو استغنى ، فلا يأخذ من الوقف شيئاً •

وقالوا فى المؤذن مثل ما قالوا فى معلم القرآن ، ويأتى فيه من التعبد والنية ما ذكر فى المعلم •

ولا خلاف فى عـدم جواز أخذ الأجرة على جواب السـائل عن مسألة دينية تعرض له ؟ اذ الاجابة فريضة على العارفين ، وكتمان العلم محرم عليهم •

وجملة القول : ان أكل أموال الناس بالباطل يتحقق فى كل أخذ للمال بغير رضا من المـأخوذ منه ، لا شائبة للجهل أو الوهم أو الغش أو الضرر فيه ، ومما تعرض فيه هذه الشوائب كلها أو أكثرها قراءة القـرآن بالأجرة لأجـل الموتى ، أو رفع ضرر الجن أو غـيره عن الأحياء (٢٢) •

والذى يعطى الأجرة عليها يجهل ذلك ، والجاهل بالشرع فى المسألة عرضة لقبول الايهام والغش من الدجالين والمحتالين •

وليس كذلك اقراء القرآن فى البيوت لأجل اتعاظ أهلهـا وتقوية شعور الايمان بسماعه • بل هذا كتعليم العلم ، وينبغى أن يكون اكرام القراء بغير صفة الأجرة •

* * *

(٢٢) هذا عدا ما ورد فى قراءة آية الكرسى للحفظ فى الصحيحين ، وما روى من قراءة « يس » للموتى — على ضعف فى الرواية — لتذكير المحتضر والقارىء بأحوال الآخرة والاستعداد لها . (الجبرى)

● **غلط القاضى لا يحلل المـــال :**

ثم قال الامام : يعتقد بعض الناس أن الحاكم الذى هو نائب الشارع فى بيان الحق ، ومنفذ الشرع ، اذا حكم لانسان بشىء — ولو بغير حق — فانه يحــل له ، ولا يكون من الباطل • فقال تعـــالى « **وتدلوا بها الى الحكام** » ، أى ولا تلقوا بها الى الحكام رشوة لهم « **لتاكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون** » ابطالا لهـــذا الاعتقاد ، ليعلم أن الحق لا يتغير بحكم الحاكم ، بل هو ثابت فى نفسه ، وأن الحاكم عبارة عن شخص العدل الناطق بما لكل أحد منه •

قد نفت الآية الاشتباه ، وبينت أن الاستعانة بالحكام على أكل المـــال بالباطل محرم ، لأن الحكم لا يغير الحق فى نفسه ، ولا يحله المحكوم له به ، ومع هذا فقد اختلف علماؤنا فى حكم القاضى : هل هو على الظاهر فقط ، ينفذ ظاهراً وباطناً ، ويكون الاثم على القاضى وحده ان تعمد الجور — دون المحكوم له !

فالجمهور على أن حكم القاضى ينفذ ظاهراً فقط •

وأبو حنيفـــة على أن حكم القاضى بنحو الطلاق وعقـــد النكاح أو فسخه ينفذ ظاهراً وباطناً وان كان الشهود زوراً ، وأن حكمـــه بالمـــال لا ينفـــذ الا ظاهراً ، فلا يحل المحكوم له تناوله اذا لم يكن له •

● **تعقيب :**

وعقب المرحوم السيد محمد رشيد رضا قائلا : وقد نقل النووى فى شرح مسلم أن الشافعى حكى الاجماع على أن حكم الحاكم لا يحلل الحرام ، وقد علمت أن عليه الجمهور — ومنهم صاحبا أبى حنيفة — فلم يخالفاه الا لأنه ظهر لهما قوة دليل الجمهور ، ومنه حديث أم سلمة عند الجماعة مالك وأحمد والشيخين وأصحاب السنن « انما أنا بشر

وانكم تختصمون الى ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فانما أقطع له قطعة من النار » .

والمنتصرون لأبى حنيفة يقصرون الأمر على الأموال ، لأنهـا الموضوع الذى وردت فيه الآية والحديث .

ورد الجمهور ذلك بالقاعدة المجمع عليها ، وهى أن الأبضـاع — الفروج — أولى بالاحتياط من الأموال . فان لم يتناولها النص بلفظه فقد تناولها بعلته بالأولى .

* * *

● **حـدود المحامى :**

وفى الآية والحديث عبرة لوكلاء الدعاوى الذين يدعون بالمحامين ، فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليـوم الآخر أن يقبـل الوكالة فى دعوى يعتقد أن صاحبها مبطل ، ولا أن يستمر فيما ظهر باطله ، واننا نراهم يعتمدون على خلابتهم فى القول ولحنهم فى الخطاب .

* * *

● **جهل المحكوم له بعدم الاستحقاق الشرعى :**

فى الآية « **لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون** » قيل : الاثم شهادة الزور ، وقيل : اليمين الفاجرة ، وهو أعم من ذلك .

والمراد بالعلم فى قوله « **تعلمون** » ما يشمل الظن ، وهو احتراس عمن يأكل معتقداً أنه حقـه ، ولذلك أمثلة وفروع لا تحصى ، ذكر الأستاذ الامام منها فى الدرس مثل ما اذا علم زيد أن أباه أودع له وديعة كذا عند فلان الذى مات فطالب ولد الميت بذلك ، وكان الولد يعتقد أن أباه تركه تراثا — لا وديعة لأحد — فمن حكم له به منهما لا يقال : انه أكله بالاثم .

وذكر الامام فى تفسير الآية ما عليه المسلمون فى هذا العصر ، ولا سيما فى بلاد مصر ، من كثرة التقاضى والخصام ، والادلاء الى الحكام ، حتى ان منهم من لا يطالب غريمه بحقه الا بواسطة المحكمة ، ولعله لو طالبه لما احتاج الى التقاضى ، ومنهم من يحاكم الآخر لمحض الانتقام والايذاء وان أضر بنفسه •

وقد جرى أبو الأعلى فى تفسيره على أن الآية فى أمرين :

الأول : الحصول برشوة الحكام على فائدة شرعية •

والثانى : الذهاب الى المحاكم للحصول على حكم بأموال لا يستحقونها (٢٣) •

وقد جاء فى عقيدة الاخوان المسلمين وبيعتهم وواجبات الأخ العامل : « أن تقاطع المحاكم الأهلية وكل قضاء غير اسلامى » — « وأتعهد ألا ألجأ الى القضاء الا مضطرا » •

وقد تناول الامام « حسن البنا » فى واجبات الأخ العامل ما نصه :

— أن تزاول عملا اقتصاديا مهما كنت غنيا ، وأن تقدم على العمل الحر مهما كان ضئيلا وأن تزج بنفسك فيه مهما كانت مواهبك العلمية •

— وألا تحرص على الوظيفة الحكومية ، وأن تعتبرها أضيق أبواب الرزق ، ولا ترفضها اذا أتيحت لك، ولا تتخل عنها الا ان تعارضت تعارضا تاما مع واجبات الدعوة •

— وأن تحرص كل الحرص على أداء مهنتك من حيث الاجادة والاتقان ، وعدم الغش ، وضبط الموعد •

— أن تكون حسن التقاضى لحقك ، وأن تؤدى حقوق الناس كاملة غير منقوصة بدون طلب ، ولا تماطل أبداً •

— أن تبتعد عن الميسر بكل أنواعه مهما كان القصد من ورائه ، وتتجنب وسائل الكسب الحرام مهما كان وراءها من ربح عاجل •

---

(٢٣) تفهيم القرآن : ٣١/١

— أن تبتعد عن الربا فى جميع المعاملات ، وأن تتطهر منه تماما .

— أن تخدم الثروة الاسلامية العامة بتشجيع المصنوعات والمنشآت الاقتصادية الاسلامية ، وأن تحرص على القرش فلا يقع فى يد غـير اسـلامية مهما كانت الأحـوال ، ولا تلبس ولا تأكل الا من صـنع وطنك الاسـلامى .

— أن تشترك فى الدعوة — الى الاسـلام — بجزء من مالك ، وتؤدى الزكاة الواجبة فيه ، وأن تجعل منه حقا معلوما للسائل والمحروم مهما كان دخلك ضئيلا .

— أن تدخر للطوارىء جزءا من دخلك مهما قل ، وألا تتورط فى الكماليات أبداً .

— أن تحارب أماكن اللهو فضـلا عن أن تقربها ، وأن تبتعد عن مظاهر الترف والرخاوة جميعاً .

ثم يقول : ويمكن أن تجمع مظـاهر دعوتنا فى خمس كلمات : البساطة والتلاوة والصلاة والجندية والخلق .

* * *

● مـال اليتـم :

وأضيف الى ما قاله الامام أن من الضالين أيضا أولئك الذين يأكلون أموال اليتامى : قال تعالى : « **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشـده** »[٢٤] . قال بعض المفسرين : هذا مقيد ، فان يتامى المشركين أهل الحرب يجوز غنيمة أموالهم ، لكن قد يقال : هذا أخذ وقربان بالتى هى أحسن ، اذا فسر الأحسن بأمر الله ورسوله .

* * *

(٢٤) الأنعام : ١٥٢

قال تعالى : ((**الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون**))[٢٥] ٠

كثيراً ما يجد الرجل أن من تمام رجولته أن يجرد امرأته حين يطلقها من أموالها كلا أو بعضا ٠ ظالما أحياناً ٠٠ وقد يكون مظلوما فهو حين طلقها طلقها على الرغم منه لكثرة مشاحناتها ومضايقاتها له حتى يبدو وكأنه هو الذى يريد الطلاق ٠٠ ويطرح الامام هذه القضية فيقول فى تفسير الآية المذكورة :

الطلاق عبارة عن مفارقة المرأة المدخول بها ، يحل الرجل عقدة الزوجية التى تربطهما معاً ٠ وحد الله الذى حده للطلاق ولم يخرج به العصمة من أيدى الرجال هو مرتان : أى طلقتان ٠

وعبر بالمرتين ((**الطلاق مرتان**)) ، ليفيد أن الطلقتين تكون كل منهما مرة تحل بها العصمة ثم تبرم ، لا أنهما يكونان بلفظ واحد ٠

وقد صرح جماهير العلماء — ومنهم الحنفية — بأن الطلاق الشرعى هو ما كان مرة بعد مرة ٠ وأن جمع الثنتين أو الثلاث بدعة ، وأنه حرام ٠

هذا هو الطلاق المشروع فى كتاب الله تعالى ، وهو الطلاق الرجعى على هذه الصفة ، وبهذا العدد ٠

وقوله تعالى : ((**فامساك بمعروف أو تسريح باحسان**)) — معناه : الواجب عليكم اما امساك للمرأة مع المعاشرة بالمعروف ، واما تسريحها بامضاء الطلاق مع الاحسان اليها فى المعاملة ، والتمتيع بمال لائق به ٠

(٢٥) البقرة : ٢٢٨

وبعد أن فرض الله سبحانه الاحسان على من اختار التسريح حرم عليهم اخذ شيء من المرأة فقال : « **ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً** » ويدخل في هذا المهر وغيره مما يعطيه الرجل على سبيل التمليك [كالشبكة والهدايا] ، بل يجب أن يمتعها بشيء من ماله زائداً على ذلك : « **فمتعوهن وسرحوهن** »(٢٦) .

ثم قال الأستاذ : ان أخذ الرجل شيئاً من مال مطلقته مناف للاحسان ، فالأمر بالاحسان يستلزمه ، وانما صرح به لمزيد رأفته سبحانه بالنساء ، وتأكيده تحذيراً للرجال الأقوياء من ظلمهم وهضم حقوقهم .

وقد تابع الامام أبو الأعلى الامام محمد عبده فيما ذكره مضيفاً أن الآية تعالج داء كان متفشياً في الجاهلية ، حيث كان للرجل حق طلاق الزوجة ثم مراجعتها بلا عدد للطلقات ، فلا هو يحسن اليها ولا هو يتركها لتتزوج(٢٧) .

وقد كرر هذا النهي ، ومنه قوله سبحانه : « **وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً** »(٢٨) .

ومحل هذا الحكم : اذا كان الزوج هو الذى اختار فراق المرأة ورغب عنها ، وأما اذا كانت هي الراغبة عنه الطالبة لفراقه ، وخيف أن تتوسل اليه بالنشوز وسوء العشرة لكراهتها اياه ، أو لسوء خلقها ، لا لمضارته لها ، فلا جناح عليهما حينئذ فيما يأخذه منها لاطلاق سراحها ، اذ لا يكلف خسارة امرأته وماله بغير ذنب منه .

ولذلك قال تعالى : « **الا أن يخافا ألا يقيما حدود الله** »(٢٩) التي حدها للزوجين من حسن المعاشرة ، والمماثلة في الحقوق مع ولاية الرجل ، والتعاون على القيام بأمر المنزل وتربية الأولاد ، وعدم المضارة لقوله : « **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** »(٣٠) .

---

(٢٦) الأحزاب : ٤٩
(٢٧) تفهيم القرآن : ١/١٥٢
(٢٨) النساء : ٢٠
(٢٩) البقرة : ٢٢٨
(٣٠) الطلاق : ٦

وغير ذلك كذلك ، كأن تخاف المرأة أن تعصى الله فى أمر زوجها فتكفره أو تخونه • ويخاف هو أن يخرج عن الحد المشروع فى مؤاخذة الناشز ، ويخافا معا سوء العشرة • « **فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به** » •

والجناح : الاثم • أى لا جناح عليهما فيما تعطيه اياه ليخالعها ، لأن طلبها الطلاق انما يحظر لغير هــذا العذر ، ولا جناح عليــه فيما يأخذ لأجل ذلك ، لأنه برضاها واختيارها من غير اكراه منه ولا مضارة •

والخوف هنا على ظاهره • وهو توقع المكروه ، وفسره بعضهم بالظن ، وبعضهم بالعلم • وتوقع الشىء لا يكون الا بوجود دليل عليه ، فان كان الدليل قطعياً فهو من العلم ، والا فهو من الظن •

وظاهر الآية أنه لا فرق فى الخوف من عدم اقامة حدود الله بين أن يكون مثاره الرجل أو المرأة •

وخصه بعض المفسرين بما اذا كان المانع من اقامتها من جانب المرأة • وهو ما اختاره الأســتاذ الامام ، اذ جعل هــذا استثناء من تحريم أخذ الرجل أى مال أعطاه لامرأته التى طلقها •

وهذا الفراق المبنى على الافتداء يسمى « الخلع » •

وهل الخلع طلاق أم فسخ يعتد منه بحيضة واحدة كما قضى بذلك عثمان بن عفان[٣١] قولان •

وجرى أبو الأعلى على هــذا ، وأضاف أن عامة الفقهاء على أن التعويض يجب أن لا يتعدى قيمة المهر الذى دفعه الزوج[٣٢] •

* * *

---

(٣١) وهو مستند فى قضائه الى حديث رواه أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم وأخرجه ابو داوود والترمذى وابن ماجه •

(٣٢) تفهيم القرآن : ١/١٥٢ •

الخمر والميسر

قال تعالى : **« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما »** (٣٣) .

يقول الامام : وقال الجلال فى تفسير الآية : انها لما نزلت شربها قوم وامتنع آخرون حتى نزلت آية المائدة . وهو مخالف للاطلاق الذى رواه السيوطى فى أسباب النزول عن أحمد من حديث أبى هريرة قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله : **« يسألونك عن الخمر والميسر »** الآية ، فقال الناس : ما حرم علينا انما قال : **« اثم كبير »** ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين ، أم أصحابه فى المغرب ، فخلط فى قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها **« يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى »**(٣٤) .

ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : **« يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة »** — الى قوله : **« فهل أنتم منتهون »** ؟ (٣٥) قالوا : انتهينا ربنا .

وذهب الجمهور الى أن التحريم كان تدريجيا كما تقدم ، ووجهه الأستاذ الامام بأنه المنقول والمعهود فى حكمة التشريع ، وقال : ان الاثم هو الضرر ، فتحريم كل ضار لا يقتضى تحريم ما فيه مضرة من جهة ومنفعة من جهة أخرى ، لذلك كانت هذه الآية موضعا لاجتهاد الصحابة ، فترك الخمر بعضهم لنزولها ، وأصر على شربها آخرون . كأنهم رأوا أنه يتيسر لهم أن ينتفعوا بها مع اجتناب ضررها . فكان ذلك

---

(٣٣) البقرة : ٢١٩ .   (٣٤) النساء : ٤٣ .
(٣٥) المائدة : ٩٠ ، ٩١ .

تمهيداً للقطع بتحريمها ، ولو فوجئوا بالتحريم مع ولوع الكثيرين بها واعتقادهم منفعتها لخشى أن يخالفوا أو يستثقلوا التكليف ، فكان من حكم الله أن رباهم على الاقتناع بأسرار التشريع وفوائده ليأخذوه بقوة وعقل •

وقد وافق أبو الأعلى الامام محمد عبده فى هذا(٣٦) •

ثم قال الامام محمد عبده : وقد اختلفوا : هل الميسر ذلك النوع من القمار بعينه ، أم يطلق على كل مقامرة ؟

ولكن لا خلاف بين الفقهاء فى أن كل قمار محرم الا ما أباح الشرع من الرهان فى السباق والرماية ترغيبا فيهما للاستعداد للجهاد ، وليس منها سباق الخيل المعروف فى عصرنا ، فانه من شر القمار الذى ترجع جميع أنواعه الى كونها من أكل أموال الناس بالباطل •

* * *

● **اليانصيب :**

وفى تفسير المنار ما نصه : وكثيرا ما يجعل اليانصيب لمصلحة عامة والحكومات التى تحرم القمار تبيح « اليانصيب » الخاص بالأعمال الخيرية العامة أو الدولية ، ولكن فيه مضار القمار الأخرى ، وأظهرها أنه طريق لأكل أموال الناس بالباطل • أى بغير عوض حقيقى من عين أو منفعة ، وهـذا محرم بنص القرآن •

* * *

● **هلاك الشعوب فى الخمر والميسر :**

قال الامام : ومن مضرات الميسر افساد التربية بتعويد النفس الكسل ، وانتظار الرزق من الأسباب الوهمية ، واضعاف القوة العقلية بترك الأعمال المفيدة فى طرق الكسب الطبيعية ، واهمال الياسرين — المقامرين — للزراعة والصناعة والتجارة التى هى أركان العمران •

---

(٣٦) تفهيم القرآن : ١٤٦/١ — وكذا فى تفسيره للآية ٤٣ من سورة النساء ، و ٩٠ من المائدة .

ثم قال الامام [٣٧] : اننى كنت أقول ان المصريين لا يفنون فى جنس آخر وان استولى عليهم قرونا طويلة ، ولكن غيرهم قد يفنى فيهم • لأنهم يرضون بكل سلطة ، ويدينون لكل قوة ، فلا يؤثر فيهم الذل والفقر كما يؤثر فى غيرهم ، بل يظلون — ما وجدوا قوتا — يتناسلون ويكثرون ، والعامل لا يعدم أى أرض زراعية كمصر قوتاً ، ولذلك تقلبت الأمم على المصريين • ثم زالت أو زال سلطانها عنهم ، وبقى المصريون مصريين ، لهم سحنتهم وصفاتهم وأخلاقهم وعاداتهم •

ولكننى رجعت عن هذا القول بعد ما رأيت من انتشار الخمر والزنا فى البلاد ، ولا سيما هذه الخمور الافرنجية التى تباع للفقراء والفلاحين وما هى بخمر جعلت للشرب ، وانما هى المادة المحرقة السامة التى تسمى « السبرتو » يضاف اليها شىء من الماء والسكر أو غير ذلك مما يمكن من تناولها ، فاذا استمر السكر والفحش على سريانهما هذا فلا يبعد أن تنقرض الأمة المصرية بعد جيلين أو ثلاثة كما انقرض هنود أمريكا ، فلا يبقى منهم الا بقية من الخدم والأجراء عند من يخلفهم فى الأرض ، فان السكر والزنا كالمقراضين يقرضان الأمم قرضاً •

وأما كون اثم الميسر أكبر من نفعه فهو أظهر مما تقدم فى الخمر ، ولا سيما فى هذا العصر الذى كثرت فيه أنواع القمار وعم ضررها ، حتى ان الحكومات الحرة التى تبيح تجارة الخمر تمنع أكثر أنواع القمار وتعاقب عليها ، على احترامها للحرية الشخصية فى جميع ضروب التصرف التى لا تضر بغير العامل ، فمنفعة القمار وهمية ومضراته حقيقية ، فان المقامر الذى يبذل ماله المملوك له حقيقة على وجه اليقين ، لأجل ربح موهوم ، ليس عنده وزن ذرة من عقل ، لترجيحه الربح الوهمى على خطر الخسران والضياع المحقق •

والمسترسل فى اضاعة المحقق طلباً للمتوهم يفسد فكره ويضعف

---

(٣٧) تفسير المنار ج ٢ ص ٢٦٦

عقله ، ولذلك ينتهى الأمر بكثير من المقــامرين الى بخع أنفســهم — قتلها غماً — أو الرضا بعيشة الذل والمهانة •

ثم قال الأســتاذ الامام : اننى أعرف رجلا كانت ثروته لا تقل عن ثلاثة آلاف ألف جنيه — ٣ ملايين — فما زال شيطان القمار يغريه باللعب فيه حتى فقد ثروته كلها ، وعاش بقية حياته فقيرا معدما حتى مات جائعا ، وذكر أنه ربح فى ليلة تسعمائة ألف فرنك فقال : لا أبرح حتى أتمها مليوناً ، فلم يبرح حتى خسرها الى مليون آخر ، وهكذا شأن أكثر المقــامرين يغترون بالربح الذى يكون لهم أو لغيرهم أحيــانا فيسترسلون فى المقامرة حتى لا يبقى لهم شيء •

ولبيوت القمار فى مصر طرق فى استدراج الأغنيــاء لا يعقلها المصريون • على ما يرون من آثارها فى تخريب بيــوت من اصطيدوا بأحابيلها من اخوانهم •

ويحكى أن رجلا عاقلا رأى من ولده ميلا الى المقامرة لمعاشرته بعض أهلها ، فلما حانت وفاته وخاف أن يضيع ولده ما يرثه عنه ، وعلم أن النهى لا يكون الا اغراء • قال له : يا بنى •• أوصيك اذا شئت أن تقامر بأن تبحث عن أقدم مقامر فى البلد وتلعب معه ، فطفق الولد بعده يبحث ويسأل ، وكلما دل على واحد علم منه أن هناك من هو أقدم منه حتى انتهى به البحث الى شــيخ رث الثياب ، ظاهر الاكتئاب ، فعلم من حاله ومقاله أن مآل المقامر الى أسوأ مآب ، وأن والده قد اجتهد بنصيحته فأصاب ، وأنه أوتى الحكمة وفصل الخطاب ورجع هو الى رشده وأناب ، فلم يدخل بيت المقامرة من طاق ولا باب •

ويشترك الميسر مع الخمر فى أن متعاطيهما قلما يقدر على تركهما والسلامة من بلائهما • لأن للخمر تأثيراً فى العصب يدعو الى العود الى شربها والاكثار منهــا ، فان ما تحدثه من التنبيه يعقبه خمود وفتور بمقتضى سنة رد الفعل ، فيشعر السكران بعد الصحو أنه مضطر الى معاودة السكر • ليزول عنه ما حل به ، فاذا هو عاد قويت الداعية •

وأما الميسر فان صاحبه كلما ربح طمع فى الزيادة ، وكلما خسر طمع فى تعويض الخسارة ، ويضعف الادراك حتى تعز مقاومة هـذا الطمع الوهى ، وهـذا شر ما فى هاتين الجريمتين •

واننا نرى الأمم التى لا تدين بالاسلام أنشأت تؤلف الجمعيات للسعى فى ابطال هاتين الجريمتين ، ونحن الذين منحنا تلك الهداية منذ ثلاثة عشر قرنا ونيف • أنشأنا نأخذ عن تلك الأمم ما أنشأت هى تقاومه وتذمه ، حتى أن السـكر قد غلب فى رؤساء دنيانا ، والميسر قد انتشر فى أمرائنا وكبرائنا ، ثم فشا فيمن دونهم تقليداً لهم • فحل بهم غضب الله تعالى ، فسلبوا معظم ما وهبوا ، ويخشى أن يمتد ذلك حتى يعز تداركه ، والعياذ بالله تعالى •

* * *

قال تعالى : « **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون • يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم** »[٣٨] •

● **تحريم الربا والتأخر :**

قال الامام [٣٩] : يقول كثير ممن تعلموا وتربوا تربيـة عصرية : ان المسلمين منوا بالفقر بسبب تحريم الربا • فانهم لاحتياجهم للأموال يأخذونها بالربا من الأجانب ، ومن كان غنيا منهم لا يعطى بالربا • فمال الفقير يذهب ومال الغنى لا ينمو • ويجعلون هـذه المسألة أهم المسائل الاجتماعية والعمرانية عند المسلمين • يعنون أنه ما جنى على المسلمين الا دينهم •

وهذه أوهام لم يقولوها عن اختبار ، فان المسلمين فى هذه الأيام لا يحكمون الدين فى شىء من أعمالهم ومكاسبهم ، ولو حكموه فى هذه المسألة لما استدانوا بالربا وجعلوا أموالهم غنائم لغيرهم • فان سلمنا أنهم تركوا أكل الربا لأجل الدين ، فهل يقولون انهم تركوا الصـناعة والتجارة لأجل الدين ؟ •

ألم تسبقنا جميع الأمم الى اتقان ذلك • فلماذا لم نتقن سائر أعمال الكسب لنعوض منها ما فاتنا من كسب الربا • وديننا يدعونا الى أن نسبق الأمم فى اتقان كل شىء ؟ •

الحق أن المسلمين — فى الأغلب — قد نبذوا الدين ظهريا ، فلم

---

(٣٨) البقرة : ٢٧٥ — ٢٧٦

(٣٩) تفسير المنار جـ ٣ ص ١٠٦ ط ثانية .

يبق عندهم منه الا تقاليد وعادات أخذوها بالوراثة . فمن يدعى أن الدين عائق لهم عن الترقى فقد عكس القضية . ان جهل الأمة بنفسها وعدم قراءة ماضيها هو الذى أوقعها فيما هى فيه من البلاء العظيم ، فهى لا تدرى من أين أخذت ، ولا كيف سقطت بعد ما ارتفعت !

* * *

● **يمحق الله الربا :**

قال الأستاذ الامام : ليس المراد بهذا المحق محق الزيادة فى المال ، فان هذا مكابرة للمشاهدة والاختبار ، وانما المراد به ما يلاقى المرابى من عداوة الناس ، وما يصاب به فى نفسه من الوساوس وغيرها .

أما عداوة الناس : فمن حيث هو عدو المحتاجين ، وبغيض المعوزين وقد تفضى العداوة والبغضاء الى مفاسد ومضرات ، واعتداء على الأموال والأنفس والثمرات . وقد ظهر ذلك فى الأمم التى فشا فيها الربا . اذ قام الفقراء فيها يعادون الأغنياء ، ويتألب العمال عليهم حتى صارت هذه المسألة أعقد المسائل عندهم[40] .

ثم قال :

وأما ما يصاب به المرابى فى نفسه من الوساوس والأوهام فهو ما لا يعرفه الا من راقب هؤلاء العابدين للمال ، وبلى أخبارهم .

وهذا هو ما فسر به المودودى قوله : كالذى « **يتخبطه الشيطان من المس** »[41] .

* * *

● **تحريم الربا بكل صوره ولكل الأسباب :**

فى تفسير الآية « **ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا** » قال الامام ما مثاله :

---

(٤٠) وكأن الامام يتنبأ بالثورات الشيوعية على الأمم الراسمالية — رحمه الله .

(٤١) تفهيم القرآن : ١٨٠/١

مسألة الربا مسألة كبيرة اتفقت فيهـا الأديان ، ولكن اختلفت فيها الأمم ، فاليهود كانوا يرابون مع غيرهم ، والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ، ويرابون سائر الناس • وقد كان المسلمون حفظوا أنفسهم من هـذه الرذيلة زمنـا طويلا ، ثم قلدوا غيرهم ، ومنذ نصف قـرن [أوائل القرن التاسع عشر الميلادى] فشت المراباة بينهم فى أكثر الأقطار ، وكانوا قبل ذلك يأكلون الربا بالحيلة التى يسمونها شرعية ، وقد أباحها بعض الفقهاء فى استثمار مال اليتيم ، وطالب العلم المنقطع ، ومنها مسألة السبحة المشورة : وهى أن يتفق الدائن مع المدين على أن يعطيه مائة الى سنة بمائة وعشرة مثلا ، فيعطيه المـائة نقدا ، ويبيعه سبحة بعشرة فى الذمة ، فيشتريها ثم يهديها للبائع الدائن •

على أن الذين يأكلون الربا من المسلمين — أى يعطون أموالهم للناس بالربا — لا يزالون قليلين جداً ، ولكن الذين يؤكلونه غيرهم — أى يقترضونه بالربا — كثيرون جداً ، حتى لا تكاد تجد متمولا — صاحب مال أو عقار — فى هذه البلاد سالمـا من الاستدانة بالربا الا قليلا ، والسبب فى ذلك تقليد حكامهم فى هذه السنة ، بل كثيرا ما كان حكام هذه البلاد يلزمون الرعية بها الزاما لأداء ما يفرضونه عليهم من الضرائب والمصادرات •

ومن هنا نرى أن الأديان لم يمكنها أن تقاوم ميل الجماهير الى أكل الربا • حتى كأنه ضرورة يضطرون اليها ، من حجتهم عليها أن البيع مثل الربا • فكما يجوز أن يبيع الانسان السلعة التى ثمنها عشرة دراهم نقدا بعشرين درهما نسيئة • يجوز له أن يعطى المحتاج العشرة الدراهم على أن ترد اليه بعـد سنة عشرين درهمـا • لأن السبب فى كل من الزيادتين الأجـل •

هكذا يحتج الناس فى أنفسهم ، كما تحتج الحكومات بأنها لو لم تأخذ المـال بالربا لاضطرت الى تعطيل مصالحها أو خراب أرضها •

وقد أجاب الله تعالى عن دعوى مماثلة البيع للربا بجواب ليس على

طريقة الخطباء المؤثرين ، ولا على طريقة أقيسة الفلاسفة والمنطقيين ، ولكنه على سنة هداية الدين ، وهو أن الله أحل البيع وحرم الربا .

وقد جعل أكثر المفسرين هذا الجواب من قبيل « ابطال القياس بالنص » . أى انكم تقيسون فى الدين ، والله تعالى لا يجيز هذا القياس . ولكن المعهود فى القرآن مقارعة الحجة بالحجة .

والمعنى الصحيح أن زعمهم مساواة الربا بالبيع فى مصلحة التعامل بين الناس . انما يصح اذا أبيح للناس أن يكونوا فى تعاملهم كالذئاب . كل واحد ينتظر الفرصة التى تمكنه من افتراس الآخر وأكله ، ولكن ههنا اله رحيم ، يضع لعبـاده من الأحكـام ما يربيهم على التراحم والتعاطف ، وأن يكون كل منهم عوناً للآخر . لا سيما عند شدة الحاجة اليه ، ولذلك حرم عليهم الربا الذى هو استغلال ضرورة اخوانهم ، وأحـل البيع الذى لا يختص الربح فيه بأكل الغنى الواجد مال الفقير الفاقد . فهذا وجه للتباين بين الربا والبيع يقتضى فساد القياس .

وهناك وجه آخر ، وهو أن الله تعالى جعل طريق تعامل الناس فى معايشهم أن يكون استفادة كل واحد من الآخر بعمل ، ولم يجعل لأحد منهم حقاً على آخر بغير عمل . لأنه باطل لا مقابل له .

وبهذه السنة أحل البيع لأن فيه عوضا يقابل عوضا ، وحرم الربا لأنه زيادة لا مقابل لها ، والمعنى أن قياسكم فاسد ، لأن فى البيع من الفائدة ما يقتضى حله ، وفى الربا من المفسدة ما يقتضى تحريمه ، ذلك أن البيع يلاحظ فيه دائما انتفاع المشترى بالسلعة انتفاعا حقيقيا ، لأن من يشترى قمحا مثلا فانما يشتريه ليأكله أو ليبذره أو لبيعه ، وهو فى كل ذلك ينتفع به انتفاعا حقيقيا .

وأما الربا : وهو عبارة عن اعطاء الدراهم والمثليات — كالذهب بالذهب مثلا — وأخذها مضاعفة فى وقت آخر ، فما يؤخذ منه زيادة

عن رأس المـال لا مقابل له من عين ولا عمل — وهى لا تعطى بالرضا والاختيار ، بل بالكره والاضطرار كما يقول السيد رشيد رضا •

وفى هذا النطاق جرى الامام أبو الأعلى فى تفسيره[٤٢] •

* * *

● **استغلال النقدين :**

وثم وجه ثالث لتحريم الربا من دون البيع ، وهو أن النقدين انما وضعا ليكونا ميزانا لتقدير قيم الأشياء التى ينتفع بها الناس فى معايشهم ، فاذا تحول هذا وصار النقد مقصوداً بالاستغلال ، فان هذا يؤدى الى انتزاع الثروة من أيدى أكثر الناس ، وحصرها فى أيدى الذين يجعلون أعمالهم قاصرة على استغلال المـال بالمـال ، فينمو المـال ويربو عندهم ، ويخزن فى الصناديق والبيوت المـالية المعروفة بالبنوك ويبخس العاملون قيم أعمالهم ، لأن الربح يكون معظمه من المـال نفسه ، وبذلك يهلك الفقراء •

ولو وقف الناس فى استغلال المـال عند حد الضرورة لمـا كان فيه مثل هذه المضرات ، ولكن أهواء الناس ليس لها حد تقف عنده بنفسـها — أى فلابد لهـا من الوازع الذى يوقفهـا بالاقنـاع أو الالزام —[٤٣] •

لذلك حرم الله الربا ، وهو لا يشرع للناس الأحكام بحسب أهوائهم وشهواتهم كما هو شأن أصحاب القوانين ، ولكن بحسب المصلحة الحقيقية العامة الشاملة •

وأما واضعو القوانين فانهم يضعون للناس الأحكام بحسب حالهم الحاضرة التى يرونها موافقة لمـا يسمونه « الرأى العام » ، من غير نظر فى عواقبها ، ولا فى أثرها فى تربية الفضائل والبعد عن الرذائل •

---

(٤٢) تفسير القرآن : ١/١٨٠ — ١٨٢

(٤٣) ما بين العلامتين زيادة للسيد رشيد رضا للتوضيح .

واننا نرى البلاد التى أحلت قوانينها الربا قد عفت فيها رسوم الدين ، وقل فيها التعاطف والتراحم ، وحلت القسوة محل الرحمة ، حتى ان الفقير فيها يموت جوعا ولا يجد من يجود عليه بما يسد رمقه • فمنيت من جراء ذلك بمصائب أعظمها ما يسمونه « المسألة الاجتماعية »(٤٤) وهى مسألة تألب الفعلة والعمال على أصحاب الأموال واعتصابهم المرة بعد المرة لترك العمل وتعطيل المعامل والمصانع ، لأن أصحابها لا يقدرون عملهم قدره ، بل يعطونهم أقل مما يستحقونه ، وهم يتوقعون من عاقبة ذلك انقلابا كبيرا فى العالم •

ولذلك قام كثير من فلاسفتهم وعلمائهم يكتبون الرسائل والأسفار فى تلافى شر هذه المسألة ، وقد صرح كثير منهم بأنه لا علاج لهذا الداء الا رجوع الناس الى ما دعاهم اليه الدين •

وقد ألف « تولستوى » الفيلسوف الروسى كتابا سماه « ما العمل » ؟ وفيه أمور يضطرب لفظاعتها القارىء • وقد قال فى آخرة :

« ان أوروبا نجحت فى تحرير الناس من الرق ، ولكنها غفلت عن رفع نير الدينار عن أعناق الناس الذين ربما استعبدهم المال يوماً ما » •

ثم قال الامام :

« وهذه بلادنا قد ضعف فيها التعاطف والتراحم ، وقل الاسعاد والتعاون مذ فشا فيها الربا •• كنت أرى الرجل يطلب من الآخر قرضا فيأخذه صاحب المال الى بيته ، ويوصد الباب عليه معه ، ويعطيه ما طلب بعد أن يستوثق منه باليمين أن لا يحدث الناس بأنه اقترض منه ، لأنه يستحى أن يكون فى نظرهم متفضلا عليه • رأيت هذا من كثيرين فى بلاد متعددة • ورأيت من وفاء من يقترض أنه يغنى المقرض عن المطالبة ، بله(٤٥) المحاكمة •• ثم تغير الحال فضاعت الثقة ، وأصبح المرء لا يعطى ولده قرضا الا بسند وشهود » •

---

(٤٤) وتسمى الآن : « الثورات الشيوعية » .

(٤٥) بله — بفتح الباء وسكون اللام وفتح الهاء — : بمعنى « فضلا عن . . » .

« فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله » •

قال أبو الأعلى : هذا العفو ينطبق على الربا الذى أخذ قبل آيات التحريم ، وجملة **« وأمره الى الله »** تفيد أن الاستمتاع بهذا الحق ليس لكل واحد ، فقد خص الله به من يشاء من عباده ••• ومن دخل ماله الربا فعليه أن ينفق ما جمعه من الحرام فى وجوه الخير الاجتماعية ، ولا يعود الى ذلك بحجة بذله فى النواحى الاجتماعية •

ويستوى فى تحريم الربا ما كان قرضا استهلاكيا أو صناعيـــا أو تجاريا ، اذ أن المقترض لا يمكن أن يكون فى منجى من الخطر والخسارة لصناعته أو تجارته ، ولأن المقرض ليس شريكا مباشرا فى ربح العمل أو خسارته[٤٦] •

* * *

● **عقوبة المرابى :**

وفى قوله تعالى : **« اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين • فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله »**[٤٧] •

يقول أبو الأعلى : نزلت الآية بعد فتح مكة ، وان كان المسلمون قبل نزولها يكرهون الربا ويمقتونه ، وكان ضمن معاهدة النبى ﷺ لنصارى نجران أنهم لو استمروا فى تعاملهم بالربا لكان ذلك نقضا للاتفاقية وايذانا بالحرب •

وقد استنتج ابن عباس والحسن والبصرى وابن سيرين وربيع ابن أنس من قوله سبحانه : **« فأذنوا بحرب من الله ورسوله »** وجوب

---

(٤٦) تفهيم القرآن : ١٨٣/١ — ١٨٥

(٤٧) البقرة : ٢٧٨ ، ٢٧٩

انذار الدولة للمرابى أن يتوب والا قتل قتلا • بينما غيرهم من الفقهاء يرون القاءه فى السجن الى أن يتعهد بالكف والتوبة[٤٨] •

* * *

(٤٨) نفس المرجع ص ١٨٦ لابى الاعلى .. وفى أثناء طبع هذا الكتاب — فى طبعته الأولى — فى يوم الأحد ٢ ذى القعدة سنة ١٣٩٩ هـ الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٩٧٩ م — فاضت روحه رضى الله عنه فى أحد مستشفيات نيويورك التى يعمل بها ابنه طبيبا .. وأعلن الاخوان المسلمون نبأ الوفاة .. وصلوا عليه مع جماهير أنصار الاسلام صلاة الغائب .. تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جناته ..

وقد تواترت الأنباء انه عندما وصلت الطائرة التى تقل جثمانه الى كراتشى .. رأت السلطات الا يصلى عليه فى المطار — وكان ينتظره الالوف — فقرر العمال عدم تمويل الطائرة حتى يصلوا عليه ، ولما نقل الى لاهور حيث مدفنه ، حدث نفس القرار ولكن السلطات نزلت على رغبة الجماهير فى الصلاة الجامعة عليه ، وفى أثناء تشييع الجنازة قام أتباعه بامطار الورود بطائرة هليكوبتر .. اظهارا لفضله .. رحمه الله .

حفظ المـــال وكسبه

من ضلال البعض قديماً وحديثاً أن يفهموا أن المـــال وكسبه باهتمام والمحافظة عليه بعناية ينافى مطلب الزهد ، وقد لاحظ الامام والمفسرون من قبله أن الله ربط آيات تحريم الربا • بآية انظار المعسر وآيات اثبات الحق والدين بالكتابة والاشهاد والرهن ، ذلك بأن من يضيع ماله باهمـــال المحافظـــة عليه لا يكون محمـــوداً عند النـــاس ، ولا مأجوراً عند الله ، كما قال الحسن فى المغبون بالبيع •

قال الأستاذ الامام : ولمـــا كانت سلطة صاحب الربا قد زالت بتحريمه ، ولم يبق له الا رأس المـــال ، وقد أمر بانظار المعسر فيه(٤٩) ، وكان لابد لحفظه من كتابته ، اذ ربما يخشى ضـــياعه بالانظـــار الى الأجل ، جاء بعد ذكر أحكام الربا بأحكام الدين ونحوه •

ويقول بعض المفسرين — وله الحق — : انه تقدم فى الآيات طلب الانفاق والتصدق وذلك محض الرحمة ، ثم حكم الربا الذى يناقض الصدقة وهو محض القسوة ، ثم جاء هنا بما يحفظ المـــال الحلال ، لأن الذى يؤمر بالانفاق والصدقة ، وبترك الربا ، لابد له من كسب ينمى ماله ويحفظه من الضياع ، ليتسنى له القيام بالانفاق فى سبيل الله ، ولا يضطر بالفاقه — الفقر — الى الوقوع فيما حرم الله •

وهذا يدل على أن المال ليس مذموماً لذاته فى دين الله ، ولا مبغضاً عنده تعالى على الاطلاق ، كيف وقد شرع لنا الكسب الحلال ، وهدانا الى حفظ المـــال وعدم تضييعه ، والى اختيار الطرق النـــافعة فى انفاقه ، بأن نستعمل عقولنا فى تعرفها ، ونوجه ارادتنا الى العمل بخير ما نعرفه منها •

---

(٤٩) انظار : امهال .. وقال ابو الاعلى : وتجبر المحكمة الدائن على اعطاء المدين فسحة من الوقت لسداد الدين أن تبين لها أن المدين فى مخمصة وضيق . (تفهيم القرآن : ١/١٨٧) .

ففى آية الدين — بعد ما تقدم — احتراس أو استدراك مزيل ما عساه يتوهم من الكلام السابق ، وهو أن المبالغة فى الترغيب فى الانفاق فى سبيل الله ، والتشديد فى تحريم الربا ، يدلان على أن جمع المـال وحفظه مذموم على الاطلاق ، كما هو ظاهر نصوص بعض الآيات السابقة . فكأنه يقول : « انا لا نأمركم باضاعة المـال واهماله ، ولا بترك استثماره واستغلاله ، انما نأمركم بأن تكسبوه من طرق الحل ، وتنفقوا منه فى طرق الخير والبر .

وقال الامام : كان بعض المشركين وبعض المسلمين فى أول الاسلام يتأثمون فى أيام الحج من كل عمل حتى كانوا يغلقون حوانيتهم ، فعلمهم الله تعالى أن الكسب طلب فضـل من الله لا جنـاح فيه مع الاخلاص ، وأنزل « **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** »(٥٠) .

وقال : ان قوله تعالى : « **من ربكم** » يشعر بأن ابتغاء الرزق مع ملاحظة أنه فضل من الله تعالى — نوع من أنواع العبادة ، ويروى أن سيدنا عمر قال فى هذا المقام لسائل : وهل كنا نعيش الا بالتجارة ؟

* * *

● دعاء الله بالدنيا والآخرة فى الحج :

وقد سبق للامام حديث عن فضل الدعاء بطلب الدنيا مع العمل فى قوله تعالى : « **فاذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ، فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيـا وما له فى الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب** »(٥١) .

* * *

(٥٠) البقرة : ١٩٨

(٥١) البقرة : ٢٠٠ — ٢٠٢

● **كتابة الديون وتسجيل العقود :**

قال الله تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كمـا علمه الله ، فليكتب وليمـلل الذى عليـه الحق وليتق الله ربـه ولا يبخس منه شيئاً ، فان كان الذى عليـه الحق سفيهاً أو ضعيفـاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فان لم يكونا رجلين فرجـل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ، ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً الى أجله ، ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ، الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ، وأشـهدوا اذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وان تفعلوا فانه فسوق بكم ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم . وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فان أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه ، والله بما تعملون عليم** »[٥٢] .

ويقول الامام : ان كاتب العقود والوثائق بمنزلة المحكمة الفاصلة بين الناس ، وليس كل من يخط بالقلم أهلا لذلك ، وانما أهله من يصح أن يكون قاضى العدل والانصاف .

ان ما ذكر فى وصف الكاتب ارشاد من الله تعالى لتلك الأمة الأمية الى نظام معروف ، وهو أن يكون كاتب الديون عادلا عارفاً بالحقوق والأحكام فيها حتى لا يقع التنازع بعد ذلك فيما يكتبه ، وارشاد للمسلمين الى أنه ينبغى أن يكون فيهم هذا الصنف من الكتاب .

فهذه قاعدة شرعية لايجاد المقتدرين على كتابة العقود ، وهو ما يسمونه اليوم : العقود الرسمية ، ويتحتم ذلك على القول بأن الكتابة واجبة .

---

(٥٢) البقرة : ٢٨٢ ، ٢٨٣

وهذا ما جرى عليه أبو الأعلى ، مستئنسا بالحديث « ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ، ورجـــل دفع مال يتيم قبـــل أن يبلغ ، ورجل أقرض رجلا مالا فلم يشـــــهد »(٥٣) .

وفيه أيضا أن الكاتب ينبغى أن يكون غير المتعاقدين — وان كانا يحسنان الكتابة ، لئلا يغالط أحدهما الآخر أو يغشه . وكأن هذا أمر حتم ، وعليه العمل الآن . فان للعقود الرسمية كتاباً يختصون بها .

وفى قوله « ولا يأب كاتب أن يكتب » تأكيد ؛ لأن الموضـــوع غريب فى نظر الأميين الذين خوطبوا أولا .

والسفيه : الضعيف الرأى ؛ أى من لا يحسن التصرف فى المـــال لضعف عقله .

ومن لا يستطيع أن يمل : هو الجاهل والألكن والأخرس .

وولى الانسان : من يتولى أموره ويقوم بها عنه . وقد اكتفى فى أمر الولى بالعدل كالكاتب ، ولم يؤمر وليه بمثل ما أمر ونهى به من عليه الحق ، لأن من يبيع دينه بدنيا غيره قليل ، بالنسبة الى من يبيع دينه بدنيا نفسه .

وفى قوله سبحانه : « ولا تسأموا أن تكتبوه » قال الامام : وهذا دليل على أن الكتابة يعمل بها ، وأنها من الأدلة التى تعتبر عند استيفاء شرطها . أى أن الكتابة واجبة فى القليل والكثير . والأمر للوجوب خلافاً لمن قال انه للندب ، والا وقع حرج للناس . ثم قال :

كيف يكون هذا حرجاً وهو مما لا يقع الا قليلا لبعض المكلفين : ولا يكون الوضوء حرجاً وهو مما يجب على كل مكلف كل يوم يصلى فيه خمس مرات ؟ فما كل ما يتكرر يكون حرجاً ، يعنى أنه لا حرج فى هذا ولا ذاك .

* * *

(٥٣) تفهيم القرآن : ١/١٨٧

● **التفريط فى المندوب :**

ثم قال « هبوا أن هذه الأوامر المؤكدة وردت للندب ، فهل ينبغى أن يترك المسلمون جملة ما ندب اليه كتاب الله بحجة أن فيه حرجاً أو بغير ذلك من الحجج ، حتى صار من تراه من المسلمين يعنى بكتابة ديونه ، فانما يفعل ذلك لضعف ثقته بمدينه ، لا عملا بهداية دينه ؟

الا ان الحرج فى هذا كالحرج فى تحريم جميع أنواع الشرك والمعاصى ، فكما لا يجوز أن تكون مشركا بنوع ما من أنواع الشرك ، لا يجوز أن تفرط فى شىء من الحق ، والحق الذى لا مراء فيه أنه لا شىء من الحرج فى الكتابة ، فان البلد قد يكفيه كاتب واحد للديون المؤجلة . وقد رخص الله لنا فى ترك كتابة التجارة الحاضرة .

ثم قال : وقد اختلف الفقهاء بعد هذا فى العمل بالخط ، ونحمد الله أن كان المفتى به هو العمل بالخط ، اذ لو كان المفتى به هو خلاف ما أمر به القرآن لكان المصاب عظيما .

ان كلا من الكتابة والاستشهاد قد شرع للاستيثاق بين الدائن والمدين — لا لأجل التذكر بعد النسيان — والكتابة أقوى من الشهادة فيه ، وهى عون للشهادة ، فهى آلة الاستيثاق للمتعاملين ، فالدائن يأمن انكار دينه ، والمدين لا يخاف أن يزاد عليه ، والشاهد يستوثق ، فاذا شك أو نسى رجع الى الكتاب فتذكر واطمأن قلبه .

ثم قال عمن يرون الكتابة للندب والتذكرة لا لاثبات الحق : واحتجاجهم بأن الشهادة هى الأصل فى اثبات الحقوق ، واحتجاجهم بأن الكتابة ليست الا مذكرة بها ، وبأن الخط يحتمل فيه التزوير . منقوض بأن احتمال وقوع التزوير فى الشهادة أشد ، بل حصوله فيها بالفعل أكثر ، حتى ان النسبة بينهما تكاد تكون كنسبة الخمسة الى الألف .

ثم ان فى الشهادة احتمالات أخرى تسقطها عن مرتبة الكتابة كالنسيان والذهول ، ومن محاسن الأجوبة فى هذا المقام ما وقع لأحد

القضاة فى الوجه القبلى — الصعيد — اذ جاءه مدع يطالب آخر بدين له كتب فى صك وختم بخاتم المدعى عليه •

قال القاضى للمدعى : ان هذا الصك لا يعمل به ، لأن الختم ليس ببينة فلابد من الشهود • قال المدعى : من قال بهذا ؟ قال القاضى : أبو حنيفة • قال المدعى : هل عندك شهود سمعوا منه ذلك ؟ فبهت القاضى •

قال الأستاذ : فالأشياء البديهية يلهم حكمها كل الناس •

* * *

● **الجمع بين المرأتين عند الشهادة :**

قال الامام : ان الله جعل شهادة المرأتين شهادة واحدة ، فاذا تركت احداهما شيئاً من الشهادة ، كأن نسيته أو ضل عنها تذكرها الأخرى وتتم شهادتها ، وللقاضى — بل عليه — أن يسأل احداهما بحضور الأخرى ، ويعتد بجزء الشهادة من احداهما وبباقيها من الأخرى •• هذا هو الواجب وان كان القضاة لا يعلمون به جهلا منهم •

وأما الرجال فلا يجوز أن يعاملهم بذلك ، بل عليه أن يفرق بينهم ، فان قصر أحد الشاهدين أو نسى فليس للآخر أن يذكره ، واذا ترك شيئاً تكون الشهادة باطلة • يعنى اذا ترك شيئا مما يبين الحق ، فكانت شهادته وحده غير كافية لبيانه — فانه لا يعتد بها ولا بشهاد الآخر وحدها وان بينت •

ويضيف أبو الأعلى أن الشهود ينتقون : فشهود المسلمين من المسلمين الا لضرورة ، وعند فقد الشاهد المسلم • ويشترط عدالة الشاهد وأمانته وعفته ، ولا يرغم لى أداء الشهادة ، كما أنه لا يؤذى بسبب الادلاء بها ، وبالرغم من أن الأفضل كتابة المعاملات التجارية اليومية التى تتم نقداً الا أنه ليس ثمة حرج اذا لم تكتب تلك المعاملات التى تدور بين التجار المتجاورين[٥٤] •

(٥٤) تفهيم القرآن : ١/١٨٨ — ١٨٩

ولم يذكر أبو الأعلى ما شرطه الامام محمد عبده من الجمع بين المرأتين عند الادلاء بالشهادة •

وفى قوله سبحانه : « **ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا** »(٥٥) •

قال الامام : الاشارة فى « **ذلكم** » قيل للاشهاد • وقال الجمهور : للكتابة ، وهذا دليل من دلائل العمل بالكتابة فى اثبات الحق •

ومعنى كونه « **أقسط عند الله** » : أنه أعدل فى حكمه : أى أهدى باقامة العدل بين المتعاملين •

ومعنى كونه « **وأقوم للشهادة** » : أنه أعون على اقامتها على وجهها ، وفى هذا دليل على أن للشاهد أن يطلب وثيقة العقد المكتوب ليتذكر ما كان على وجهه •

وقوله : « **وأدنى ألا ترتابوا** » معناه : وأقرب الى انتفاء ارتياب بعضكم ببعض ، فان هذا الاحتياط فى كتابة الحقوق ، والاشهاد عليها ، وتقوى الله ، والعدل من المتعاملين والكتاب والشهداء ، يمنع كل ريبة ، وكل ما يترتب على الارتياب من المفاسد والعداوات والمخاصمات •

* * *

● **امساك الدفاتر فى التجارة والشركات :**

فى قوله سبحانه : « **الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها** »(٥٦) يقول :

وفى نفى الحرج اشارة الى أن كتابة ذلك أولى ، وهى ارشاد الى استحباب ضبط الانسان لماله ، واحصائه لما يرد عليه وما يصدر عنه ، وذلك من الكمال المدنى ، ومن أسباب ارتقاء أمور الكسب •

ولم يجعل هذا حتما لأنه مما يشق على غير المرتقين فى المدنية •

---

(٥٥) البقرة : ٢٨٢ (٥٦) البقرة : ٢٨٢

والترخيص فيه دليل على وجوب كتابة الديون المؤجلة • فربما يقع التنازع فيها بعد موت الشهود •

* * *

● **الرهن :**

« وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة ، فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه »(٥٧) •

قال أبو الأعلى : اثبات الحق بالكتابة والشهود • فإن تعذرا أو وجد من لا تسمح نفسه بالاقراض الا ان وجد رهن ، فإن الرهن جائز لضمان الحق ، وان كان الرهن انتاجياً كالأرض والعقار والآلة فإن ما ينتج من استخدامها يخصم من الدين ، والا كان ربا •

غير أن الدائن قد يستفيد من لبن الماشية الرهن ، أو يركبها ، أو يحمل عليها شيئاً ، لأن هذا يعد عوضاً عما يطعمها من علف •

ثم عاد الى التحذير من كتمان الشهادة ، يعنى المراوغة والتهرب من أدائها ، وكذا اخفاء الحقائق عند الادلاء بالشهادة — كل ذلك حرصاً على اثبات الحقوق وحفظ الأموال(٥٨) •

* * *

---

(٥٧) البقرة : ٢٨٣

(٥٨) تفهيم القرآن : ١/١٨٩

ما المخرج من الضلال ؟

تناول الامام المشكلات الأساسية للضلالة وأسبابها ومظاهرها .. وقد انطوت كتابته على الحل .. ولكنى فى هذه الطبعة الثانية للكتاب أحب أن أضيف ما كتبه الامام عن وسائل الخروج من الضلالة من خلال ما كتبه مع جمال الدين الأفغانى فى « العروة الوثقى » وقد تناولها من خلال القرآن فيما يلى :

● **الوحدة الاسلامية :**

قال الله تعالى : **« وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا ، ان الله مع الصابرين »**(٥٩) .

ثم تحدث فى ضوء الآية قائلا ما موجزه من عبارته :

« أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الأقصى — الى تونازنى على حدود الصين ، فى عرض ما بين فازان من جهة الشمال ، وبين سرنديب تحت خط الاستواء ، أقطار متصلة يسكنها المسلمون ، ما كان يهزم لهم جيش ، كان خليفتهم العباسى ينطق بالكلمة فيخضـــع لهـــا فغفور الصين(٦٠) ، وترتعد منهـــا فرائص أعظم الملوك فى أوروبا . وكانت لأساطيل المسلمين سلطة لا تبارى فى البحر الأبيض والأحمـــر والمحيط الهندى .. والمسلمون اليوم يملأون تلك الأقطار التى ورثوها عن آبائهم ، يحسب كل واحد منهم أن سقوط طائفة من بنى ملته تحت سلطة الأجانب سقوط لنفسه . كان فى نقطة الشرق من حكمائهم ابن سينا والفارابى والرازى ومن يشاكلهم ، وفى الغرب ابن باجه وابن رشـــد وابن الطفيل ومماثلوهم ، وما بين ذلك أمصار تتزاحم فيها أقدام العلماء فى الحكمة والطب والهيئة والهندسة ، وسائر العلوم العقلية ، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التى كانت عامة فى جميع طبقات الملة .

---

(٥٩) الأنفال : ٤٦

(٦٠) لقب ملوك الصين .

ذلك شأنهم الأول •• ولكنهم مع هذا كله وقفوا فى سيرهم فتأخروا عن غيرهم فى المعارف والصنائع ، وأخذت ممالكهم تنتقص من أطرافها ، مــع أن دينهم يرسم عليهم ألا يدينوا لسلطة من يخالفهم ، بل الركن الأعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبى عنهم وكشفها عن ديارهم [يعنى الامام بالركن الأعظم قول الرسول ﷺ : « ذروة الاسلام وسنامه الجهاد »] •

نعم يوجد للتقصير فى انماء العلوم ، وللضعف فى القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم ، وتعدد الملوك عليهم كتعدد الرؤساء فى قبيلة واحدة ، مع تباين الأغراض وتعارض الغايات فشغلوا أفكـــار الكافة بالمنازعات الداخلية عن العلوم والصنائع ، ونشأ من هذا ما تراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف فى القوة ، والخلل فى النظام ، وجلب تنازع الأمراء على المسلمين تفــرق الكلمة ، فلهوا بأنفســهم عن تعرض الأجانب بالعدوان عليهم •

وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة وما يتبع هذه الأسماء من مظاهر الفخفخة ونعومة العيش ، واختاروا موالاة الأجنبى عنهم المخالف لهم فى الدين والجنس ، ولجأوا للاستنصار به على أبناء ملتهم •

وهذا هو الذى أباد مسلمى الأندلس ، وهدم أركان الســلطنة التيمورية فى الهند ، وعلى أطلالها شيد الانجليز ملكهم بتلك الديـــار •

ان الاتفاق والتضافر على تعزيز الولاية الاسلامية ، والاعتقادية من أوليات العقائد عند المسلمين ، لا يحتاجون فيه الى أستاذ يعلم ، ولا رسائل تنشر ، وان المسلمين لا يحتاجون فى صيانة حقوقهم الا الى تنبه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، وارتباط قلوبهم الناشىء عن احساس بما يطرأ على الملة من الأخطار •

لقد كانت روسيا متأخرة عن سائر أمم أوروبا ، وليس فى ممالكها ينابيع الثروة ، فما الذى أقعدنا عن مشاكلة غيرنا ، وعن التعاون على صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلمها ، ما رد الأفكار عن الحركة ،

وما أقعد الهمم عن النهوض الا أولئك المترفون ، يحافظون على لقب موضوع ورسم موضوع ،ويقبلون من تصرف أعدائهم فى بيوتهم ما لا يقبله واحد من آحاد الناس دون موته .. أولئك صاروا فى أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود عن فريستها ، بل يجعلونها طعمة للثعالب .

لا ألتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصا واحداً ، فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكنى أرجو أن يكون القرآن سلطانهم جميعا .. وأن يسعى كل ذى ملك بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، فهذا مع كونه أساساً لدينهم ، تقضى به الضرورة وتحكم به الحاجة فى هذه الأوقات .

● **تعقيب :**

أكتب هذا الذى نادى به الامام محمد عبده .. وأنا فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أرى صورة الاستقلال فى الخدمات والميزانية لكل ولاية ، مع الوحدة الكاملة فى السياسة الخارجية والعسكرية والنظام الاجتماعى ، والاقتصادى .. وهم لم يصلوا الى هذا الا بعد جهاد أسفر عن هذه الوحدة .. ولا أرى صيحة للنداء الآن الا أن أعيد من فم التاريخ كلمة الامام لعلها تجد لها صدى الآن ، اذ قال رحمه الله :

« هذا آن الاتفاق ، ألا ان الزمان يواسيكم بالفرص ، وهى لكم غنائم فلا تفرطوا .. ان الحزن لا يدفع المصيبة ، ان العمل مفتاح النجاح ، ان الصدق والاخلاص سلم الفلاح ، ان الوجل يقرب الأجل ، ان اليأس وضعف الهمة من أسباب الحتف « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** » (٦١) الا لا تكونوا ممن « **كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** » (٦٢) احذروا أن تقعوا تحت قول الله : « **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** » (٦٣) ..

---

(٦١) التوبة : ١٠٥ — (٦٢) التوبة : ٤٦

(٦٣) التوبة : ٨٧

ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين ، وهموا بملافاة أمرهم قبل أن يقضى عليهم ، بما رزىء به المفرطون من قبلهم ، ان القرآن حى لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب بسهم من مقته فهو ممقوت ، كتاب الله لا ينسخ ، فارجعوا اليه ، وحكموه فى أحوالكم وطباعكم وما الله بغافل عما تعملون » •

* * *

● **الاهتمام بأمور المسلمين :**

الاحساس بوحدة الدين والمشاعر يبعث كل واحد على الفكر فى أحوال أمته ، فيجعل جزء من وقته للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد ، وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة •• ولا يكون همه بالفكر فى هذا أقل من همه بالنظر فى أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظراً — تفكيراً — عقيما « حبيس الذهن » دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكماله ، على نحو ما يكون فى استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة فى المكان الأول من الاعتبار ، والشئون الخاصة فى المنزلة الثانية منهما • ولا تقف فيما تجد — عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، وانما لصيانة حياة الأمة الى حد العمر اللائق بها ، وان الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ، ثم تتلوه سائر الأدوار ، وأولها أقصرها وهو سن الطفولية ••

وقد جاء فى قول صاحب الشرع : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشـــــد بعضه بعضا » وجاء فى نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخوانا » ونطق الكتاب الالهى« **انما المؤمنون اخوة** »(٦٤) وشدد على وجوب اصلاح ذات البين « **وأن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله**»(٦٥) •

---

(٦٤) الحجرات : ١٠ (٦٥) الحجرات : ٩

وقد بلغت مكانة الاتفاق فى الشريعة الاسلامية الى أن جعل اجماع الأمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفا عن حكم الله وما فى علمه ، وأوجب الشرع على عموم المسلمين الأخذ به ، وعد جحوده مروقا من الدين .

ومن الأوامر الشرعية ألا يدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، كما أن الوفاق واجب شرعى ، وهما ركنان قامت عليهما الشريعة .. وفى البقعة المباركة من مكة فى الحج تجتمع كل الأجناس ، فما هى الا كلمة تقال بينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب .

* * *

● **وضوح الرؤية والتخلص من الأوهام :**

وكان من دعاء الامام : اللهم اكشف عن بصائرنا ستائر الأوهام حتى نرى الحقائق كما هى ، كيلا نضل ونشقى .

وقال الامامان : الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، وطوراً يكون ممثلا للمسرات ، وفى كل هو حجاب الحقيقة لكن له سلطان على الارادة ، فهو مجلبة الشر ومنفاة الخير .

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمن مخافة ، والموئل مهلكا ، بل ويذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما والمعدوم موجودا ، واذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام وتسلطت على الارادات .

ان الوهم ليمثل للشرقيين أن المستعمرين على ما كانوا عليه فى الماضى .. بينما المستعمر نفسه يحس بضعف قوته فيجتهد دائما فى ستر نفسه ، ولا ستار أكثف من الوهم ، ولذا نراهم فى كل حادثة يجلبون ، ويصيحون ويزأرون ليثيروا بالضوضاء هواجس الأوهام ، فتحول أنظار الناظرين وبصائرهم عن استطلاع الحقيقة[٦٦] ..

* * *

---

(٦٦) العروة الوثقى : ص ١٧٦ — ١٧٧

● **العلم والأخلاق :**

وان الدين أول معلم وأهدى قائد الى اكتساب العلوم والتوسع فى المعارف ، وأبصر مروض بطبع الأرواح على الآداب الحسنة ، وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، ولقد رفع الاسلام أمة كانت من أعرق الأمم فى التوحش والقسوة والخشونة ، الى أرقى مراقى الحكمة والمدنية فى أقرب مدة وهى الأمة العربية •

وقالوا : للانسان كمال مفروض ، عليه أن يسعى اليه ، وانه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا : كماله فى استيفاء ما يمكن من الفضائل ، ونقصه فى التلوث برذيلة من الرذائل • فما هى الفضائل وما هى الرذائل ؟

الفضائل : سـجايا للنفس من مقتضـاها التأليف والتوفيق بين المتصفين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ، فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان فى التعـامل •• والاعفـاء لا يتزاحمون على مشتهى من المشتهيات • وهكذا كل الفضائل ، فهى مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية•• ومجموع الفضائل هو العدل فى جميع الأعمال ، يوقف كل واحد عند حده فى عمله لا يتجاوزه •• الفضائل فى المجتمع الانسانى كقوة الحياة المستكملة فى كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حـد وظيفته ، كاليد بها البطش وليس من خصائصها الابصار ، والبصر له خاصة الابصار دون البطش ، والكل يحيا بحياة واحدة ، وان شئت قلت : الفضائل فى عالم الانسان كالجذبة العامة — الجاذبية — فى العالم الكبير ، بها ثبت كل كوكب فى مركزه ، وكذلك شأن الفضائل بها يحفظ الله الوجود الشخصى — البشرى — الى الأجل المحدود ، ان أمة هـذا شأنها لا يتخالف أفرادها الا للتآلف ، فمثلهم فى اختلاف أعمالهم كمثل المتدابرين على محيط دائرة ، يتفارقان فى مبدأ السير ليتلاقيا على نقطة من المحيط •

تلك الفضائل : التعقل والتروى وانطلاق الفكر من قيود الأوهام ،

والعفة ، والسخاء ، والقناعة ، والدماثة — لين الجانب — والوقار ، والتواضع ، وعظم الهمة والصبر ، والحلم ، والشجاعة ، والايثار — تقديم مصلحة الآخرين على مصلحتك — والنجدة ، والسماحة ، والصدق ، والوفاء ، والأمانة ، وسلامة الصدر من الحقد والحسد ، والعفو ، والرفق ، والمروءة ، والحمية ، وحب العدالة ، والشفقة .. تلك صفات ، لو هبت واحدة منها على أمة كانت مواتا لأحيتها ... ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « انما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، **« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »**(٦٧) .

والرذائل : كيفيات خبيثة تعرض للأنفس ، من طبيعتها التحليل والتفريق بين النفوس المتكيفة بها كالقحة — قلة الحياء — ، والبذاء — الكلام غير المهذب — ، والسفه ، والبله ، والطيش ، والتهور ، والجبن ، والدناءة ، والجزع ، والحقد والحسد والكبرياء واللجاجة ، والسخرية ، والغدر ، والخيانة والكذب والنفاق ، ما اتصف بصفة منها اثنان الا اختلفا .. هذه الرذائل اذا فشت فى أمة نقضت بناءها ، واقتضت طبيعة الوجود الاجتماعى أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر . وتصرفها فى أعمال الحياة بالقسر ، فان حاجاتهم فى المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، فلابد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة .. هذه صفات اذا رسخت فى نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً ، تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة للأجنبى عنهم ، يرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحا ، واذا نطق أجنبى بما يدور على ألسنة صبيانهم عدوه من جوامع الكلم ونفائس الحكم ، واذا كشف لهم أحدهم دقائق الأسرار عدوه من سقط المتاع وقالوا : ليس فى الامكان أن يكون منا عارف ، ومن المحال أن يوجد بيننا « خبير » . يبذلون جهدهم لخيبة من يسعى لاعلاء شأنهم ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلب أول ما يبدأ يعض صاحبه قبل الأجنبى ، يمزقون الأمة قطعاً ويشوشون هيئتها ، أولئك قوم يسامون — يربون —

---

(٦٧) هود : ١١٧

فى مراعى الدنايا والخسائس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ، ويذلون لقزم الأجانب فضلا عن عليتهم ، وبهذا يمكنون للذلة فى نفوسهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الأعداء الألداء من طبقة الى طبقة حتى تضمحل الأمة ، وتفنى فى غيرها ، سنة الله فى فناء الأمم « **وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهى ظالمة ، ان أخذه أليم شديد** »(٦٨) .

* * *

● بماذا تقتنى الفضائل ؟

يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال فى أصول الأخلاق والتحلى بحلية الفضائل ، وترويض القوى والآلات — الأعضاء — البدنية على العمل بآثارها انما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين فى نفوس الآخذين به ، فيصيبوا حظا وافراً مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة الا اذا قام رؤساء الدين وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهيه ، وتثبيتها فى العقول ، ودعوة الناس الى العمل بها .

وربما لا ينكر أن كثيرا من عامة المسلمين — وان صحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد ، الا أنهم لا ينهجون فى بعض أعمالهم منهاج الشريعة الغراء ، وهذا مما يحدث ضعفا فى قوة الأمة ، بقدر الميل عن جادة الاعتدال فى الفضائل والأعمال : « **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** »(٦٩) .

الا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، وليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع ، وما تسبب عنه من الضعف فى القوة الا عرضا لا يبقى وحالا لا يدوم ، ولا ينقصهم الا تذكير العلماء لهم : « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون** »(٧٠) ، « **فلولا نفر من**

(٦٨) هود : ١٠٢ — (٦٩) الشورى : ٣٠
(٧٠) آل عمران : ١٠٤

كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون »(٧١) .

(ا) فليذكروا أبناء الملة بأحكام الله .

(ب) ويحكموا بينهم روابط الأخوة والألفة .

(جـ) ويقنعوهم بأنه لا ييأس من لطف الله الا الذين فى قلوبهم مرض ، وفى عقائدهم زيغ .

(د) ويسيروا بهم فى سبيل يقوى فيهم اباءة الضيم ، والنفرة من الذل .

(هـ) ويكشفوا لهم حقيقة دعوة الله ، ووعده الحق فى قوله : **« وكان حقا علينا نصر المؤمنين »**(٧٢) .

* * *

---

(٧١) التوبة : ١٢٢ (٧٢) الروم : ٤٧

خاتمـــة

فى هذه الدراسة الهامة بين تيارات الفكر المتحدرة فى مجرى العمل الاسلامى وصراع المذاهب : اخترت الامام محمد عبده ليحدثنا عن « الضالين » وأنواع الضلالة كما يتصور ذلك من خلال آيات الذكر الحكيم .. فهو بعيد عن أن يتهم بالغرض الشخصى أو المطمع السياسى أو الحزبى ، وفى الوقت ذاته اخترت له هذه الدراسة فى الحقبة الزمنية من العمر التى تكون عند السعى الى الله بما يرضيه ، فلقد عكف على تفسير القرآن فى آخر حياته .. فكان ما ننقله عنه بعد نضج علمه وتجربته .. ومع الظروف المحيطة التى تجعله يدقق فيما يرضى الله ويرجو أن يكون هو الصواب .

ثم تابعت تفسير الامام المودودى للآيات التى يعرضهـــا الامام محمد عبده ، فان كان موافقا فالحمد لله ، وما كان مخالفا أو فيه زيادة توضيح ذكرته .. وكان عامة ما وجدناه هو التقاء العالمين الجليلين على التوجيه الحى لهذه الأمة .

ومحمد عبده — شأن كل عظيم — يقع بين الخصوم والأنصار ، وكان لا بد من أن أسرد ما أخذعليه وأناقشه،حتى لا يلتقى الخصم والنصير الا على براءة ساحته ، فتحظى هذه الدراسة وما أنقله عن الامام من مقولة — بالقبول والاستعداد النفسى والذهنى لاستيعابها .

ومحمد عبده : من البشر ، فهو برغم دفع الشبهات عنه .. كان له فى العقيدة آراء لست معه فيها .. تعرضت لها كذلك بالنقد وبيـــان الصواب ، فكل انسان يؤخذ من قوله ويترك .. الا قول رســـول الله ﷺ ، كما قال الامام مالك رضى الله عنه .

وهذا المنهج الذى أسلكه فيما أقدمه للباحثين هو الذى يسمى « التفسير الموضوعى للقرآن » ، وهو أن تجمع الآيات التى فى الموضوع الواحد ، ولو كانت فى سور شتى ثم تشرح وتؤخذ منها العبرة .

ولئن كان الامام محمد عبده عندما عرض الى تفسير القرآن كان يفسره سوراً ، فانه فى خلال التفسير السورى التقليدى ، كان يضم الآيات الواردة فى الموضوع الواحد ، ليعطى المخاطب صورة متكامله للمعنى الذى تعرضت له الآية فى السورة ، وما قد يكون له من تتمة أو تأكيد للمعنى فى سور أخرى ..

وبهذا فان التفسير الموضوعى للامام جهد أنا صاحبه ، ولكن الفكرة فى أساسها كانت عنده وعند غيره من آئمة التفسير السابقين . كتفسير آيات الأحكام فهى من التفسير الموضوعى وان لم تأخذ هذه التسمية المعاصرة .

وقد جعلت الموضوع فى خمسة فصول :

الأول : فى أنواع الضالين ، مقــدماً لهــذا التعريف « الصراط المستقيم » الذى تكون الضلالة بالانحراف عنه ، وذكر الامام أنواعاً أربعة للضلالة من حيث التقسيم العقلى ، ثم ذكر أنواعاً فرعية من الضلالة ، كضلالة الانتماء الى الدين دون عمل ، والاستخفاف بعذاب الآخرة ، مبينا كيف أن ضلالة المعصية تؤدى الى ذل الشعوب . وأن المعاصى بريد الكفر ، وطريق التغلب على الشيطان بالصبر والصلاة .

والفصل الثانى : عن ضلال العقيدة والفهم ، وقد قدمنا له ببيان عبرة التاريخ فى حياة الأمم وهلاكها كما وضحها القرآن ، ثم وجه الخطأ فى أخذ التاريخ عن بنى اسرائيل وما فى التوراة . وضلال الاحتكام لغير ما أنزل الله ، وبيان القرآن معايير صلاحية المرء للحكم ، وأسباب الاختلاف فى الدين ، وحكم موالاة الكفار والتقية والمداراة لهم ، والتوسل بالأنبياء والأولياء ، مما يبين أنه يمضى على طريق السلف ، وذكرنا رأيه فى المتشابه وضلال الذين ضلوا حوله ، وضلال الناس ما يضربه الله من الأمثال ـــ ومشكلة السحر والخلاف فيه .

وفى الفصل الثالث : المخادعون ، عرضنا ما ذكره الامام عن أقسام الناس وفلسفة الخداع وأنماط الناس فى الخداع . والحيل

الفقهية وتخريب المساجد والمعابد حسيا ومعنويا وما فى الدعاء من مجال الضـــلال .

ثم الفصل الرابع : عن التصور وقيمة الادراك للقرآن والتلاوة وعلاقته بالايمان ، وبيان كيف أن القرآن يتعبد بتلاوته .

وفى الفصل الخامس والأخير : عن فنون المـــال تناولت وجـــوه الضلال فى موضوعات رزق الأمة والفرد ، وأكل أموال الناس بالباطل ، واغتصاب حقوق المطلقات — والخمر والميسر واليانصيب والربا وحفظ المـــال وكسبه ، واثبات الحق .

« والله يقول الحق وهو يهدى السبيل »(٧٣) .

* * *

(٧٣) الاحزاب : ٤

محتويات الكتاب

الصفحة

مقـــــــدمة ٥

الفصل الأول : أنواع الضالين
(٢٧ — ٧٦)

ما الصراط المستقيم ٢٩
كيف نتأسى بمن شرعنا أكمل من شرعهم ؟ ٣١
المغضوب عليهم ضالون — ما المراد بالغضب ؟ ٣٢
دليل بطلان كل الأوثان ٣٨
ازالة شـــبهة ٣٩
أقســـام الضـالين ٤١
صور أخرى لضلالات الكفر ٤٣
شبهة البشرية — ضلال الفرق فى القضاء والقدر ٤٦
مثال للخطأ فى فهم الأحكام — أثر الضلال فى الأمم ٤٨
التدين الفاسد فى أكثر الجماعات ٤٩
أعجل النـــاس فى الفتوى ٥٠
جماعات بلا منهج متكامل واضـــح — التربيـــة — معـــرفة الحق — الحب والوحـــدة ٥١
عقيدة الجزاء والربوبية — ما شروط المنهج السليم ؟ ٥٢
المفرطون فى دين اســـعد اسلافهم ٥٤
أسرى البدع والتقاليـــد ٥٥
عبرة المـــاضى للحاضر ٥٦
الاعتماد على الانتماء للدين ٥٧

	الصفحة
المعاصى وذل الشعوب — اقل المعاصى بريد الكفر	٥٩
تغلف القلوب — الايمـان القليل	٦١
ما حدث لليهود يحدث لغيرهم	٦٣
ضلال الكتابيين فى الآية	٦٤
الاستخفاف بعذاب الآخرة	٦٥
الاستعانة على الشيطان بالصبر والصلاة	٧٠

الفصل الثانى : ضلال العقيدة والفهم

(٧٧ — ١٨٨)

عبرة التاريخ فى حياة الأمم وهلاكها	٧٩
الترابط التاريخى والاجتماعى للأمم	٧٩
ما درس التاريخ للعمل الاسلامى الآن ؟	٨٣
أسـباب حفظ الملك	٨٥
الخبراء الأجانب	٨٥
أثر الأجانب فى اخلاق الوطنيين	٨٧
الشـورى	٨٨
اعـداد القـوة	٨٨
وضع كل شىء وشخص فى موضعه	٨٩
الاحتكام لغير ما أنزل الله	٩٠
كيف انحرف الناس عن الدين الى السياسية ؟	٩١
سبب نزول الآية	٩٤
اقامة خليفة للمسـلمين	٩٥
معايير صلاحية الفرد للحكم	٩٦
صورة من التضليل للمسـلمين	٩٨
الاختلاف فى الدين — الاختلاف بسبب الشهوات	١٠٠

الصفحة

الاخـذ ببعض النصوص ١٠٣
اخـذ التاريخ عن بنى اسرائيل وأمثالهم ١٠٥
اقتداء الغرب بالقرآن فى منهجه التاريخى ١٠٦
مجاراة اهـل الباطل ١٠٨
مصير التبعيـة ١١٢
التبعية لتوقى شر الامراء — عقوبة المضلين ١١٤
موالاة الكفـار ومعاملتهم ١١٥
التقية والمداراة ١١٨
التوسل بالانبياء والاولياء ١٢٠
الاستدلال بحديث الاعمى ١٢٤
الامل والرجاء — اليأس ضلالة ١٢٧
كيف يتولد القنوط وحال القانطين ١٢٩
علاج القنوط ١٣٠
الحياة فى الرجاء — الاسراف فى الرجاء ١٣١
الاعتذار بعـدم العصمة ١٣٢
امتحان الله للمؤمنين ١٣٣
التخلى عن الجبن ١٣٥
الانتمـاء للانبيـاء ١٣٧
المتشابه والمراد بتأويله — الربط بين الآيتين ١٣٩
معنى المتشابه والمحكم ١٤٠
اتباع المتشابه طلبا للفتنة ١٤١
ما حكمة وجود المتشـابه فى القرآن ؟ ١٤٢
ظواهر اخرى للمتشـابه ١٤٥
رد المتشابه الى المحكم ١٤٦

الصفحة

المتشـــابه والفلســـفة الاشراقية ١٤٧
الضلال بالمثل — ما المراد بالضلال ؟ ١٥١
ضرب المثل بالبعوضة ١٥٤
ما وجه الاعتراض ؟ ١٥٥
التهـكم بالمثـل ١٦١
صفات الضالين بالفســوق ١٦٢
كتمان الحقائق الدينيـة ١٦٥
العهـــد ١٦٧
والميثـــاق ١٦٩
صور الأمر التكوين ١٧٠
الافســـاد فى الأرض ١٧١
السـحر ١٧٥
ما يجب أن نعتقده فى الســحر ١٨٠
النفاثات فى العقــد ١٨١
حديث سحر لبيد للنبى صلى الله عليه وسلم ١٨١
حكم نفى الســحر مطلقا ١٨٤

الفصل الثالث : المخادعون

(١٨٩ — ٢١٦)

اقســـام الناس — ما المخادعة ؟ ١٩١
فلســفة خداع المنافقين ١٩٣
اســباب ضعف العقــل ١٩٦
لم ذكر العذاب فى جزاء الكذب دون الكفر ؟ ١٩٧
عقيدة المخادعين سببها انخداع بمن يقلدونهم ١٩٨
السخرية بالصالحين باسم العصرية ٢٠٠

الصفحة
الحيل الفقهيــة ٢٠٣
تخريب المســاجد والمعابد ٢١٠
فى الدعـــاء ٢١٢
من هم الضالون فى دعائهم ٢١٣
ما المراد بحسنة الآخرة ؟ ٢١٤

الفصل الرابع : التصـــور
(٢١٧ — ٢٣٨)

القرآن بين الادراك السطحى والتدبر ٢١٩
التـــدبر ٢٢٠
ما المقصـــود من التلاوة ؟ ٢٢٢
ما المراد بأن القرآن يتعبد بتلاوته ؟ ٢٢٤
التلاوة والتدبر واجبان .. فما حكم الاميين ؟ ٢٢٥
حــق القـــرآن ٢٢٨
القـــرآن والأوارد ٢٢٩
الاجتهـــاد والتقليـــد ٢٣٠
تعطيل الأحكـــام الشرعية ٢٣٠
اضــلال العـــوام ٢٣٢
الفهم للأحكـــام والاخلاص ٢٣٤
السؤال الجائز والضال ٢٣٥
أنواع الأســـئلة ٢٣٦

الفصل الخامس : ضلالات فى شئون المـــال
(٢٣٩ — ٢٨٥)

رزق الفرد والأمة ٢٤١
أكل أموال الناس بالباطل ٢٤٧

الصفحة

الأجرة على العبادة ٢٤٧
غلط القاضى لا يحل المال ٢٤٩
حدود المحامى ٢٥٠
جهل المحكوم له بعدم الاستحقاق الشرعى ٢٥٠
مال اليتيم ٢٥٢
اغتصاب حقوق المطلقات ٢٥٣
الخمر والميسر ٢٥٦
اليانصيب ٢٥٧
هلاك الشعوب فى الخمر والميسر ٢٥٧
الربا — تحريم الربا والتأخر ٢٦١
يمحق الله الربا ٢٦٢
تحريم الربا بكل صوره ولكل الأسباب ٢٦٢
استغلال النقدين ٢٦٥
عقوبة المرابى ٢٦٧
حفظ المال وكسبه ٢٦٩
دعاء الله بالدنيا والآخرة فى الحج ٢٧٠
كتابة الديون وتسجيل العقود ٢٧١
التفريط فى المندوب ٢٧٣
الجمع بين المرأتين عند الشهادة ٢٧٤
امساك الدفاتر فى التجارة والشركات ٢٧٥
الرهن ٢٧٦
ما المخرج من الضلال ؟ ٢٧٧
الوحدة الاسلامية ٢٧٧
الاهتمام بأمور المسلمين ٢٨٠

الصفحة

وضوح الرؤية والتخلص من الأوهام ٢٨١
العلم والأخـــلاق ٢٨٢
بماذا تقتنى الفضائل ؟ ٢٨٤
خاتمـــــة ٢٨٦
محتـــويات الكتـــاب ٢٨٩

* * *

رقم الايداع ٤٢٨٦ / ٨٤
انترقيم الدولى ٨ — ٠٣٢ — ٣٠٧ — ٩٧٧

دار التوفيق النموذجية
للطباعة والجمع الآلى
الأزهر/٣ حارة الموصلي بجوار جامع الدعاء